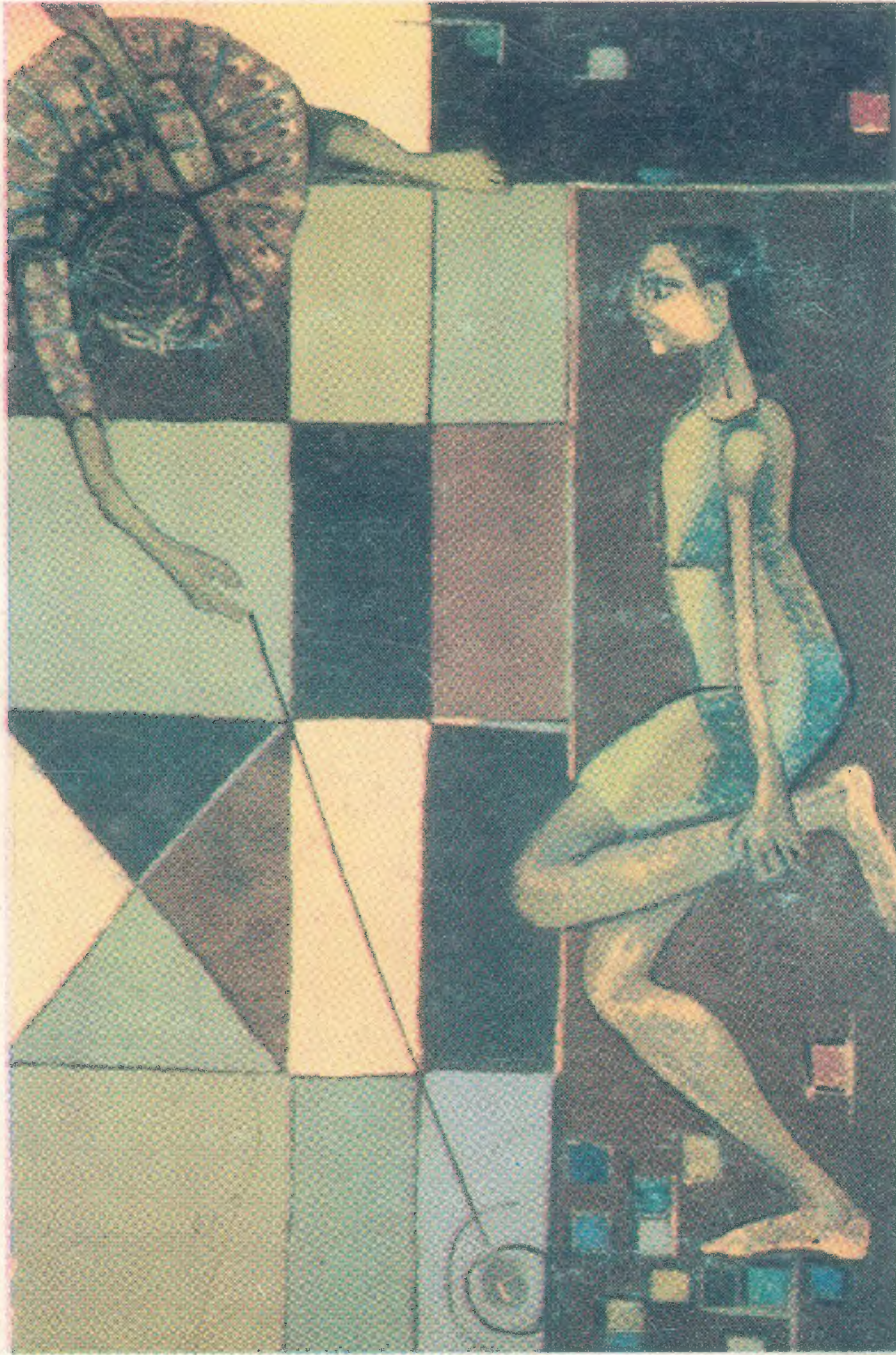


النظرية الأدبية المعاصرة

رامان سلدن

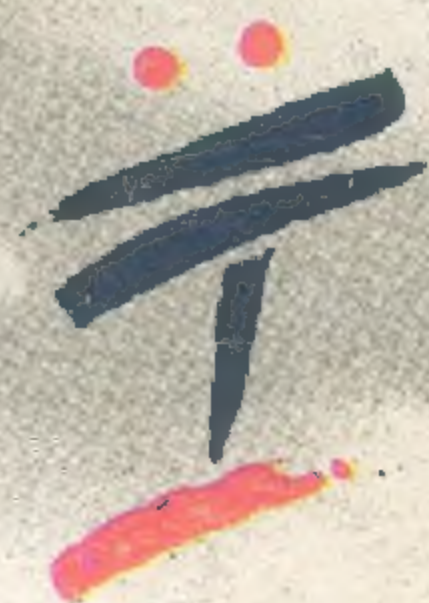
ترجمة:
د. جابر عصفور



10
ط 2



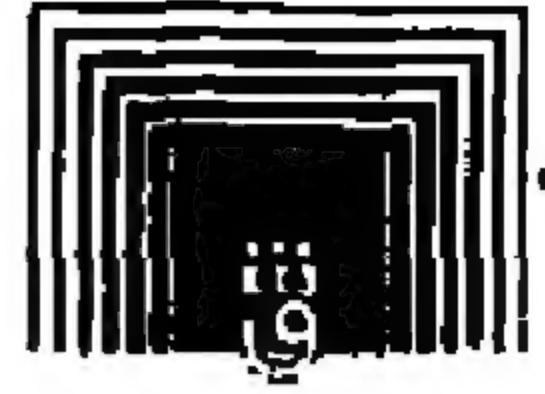
الهيئة العامة لقصور الثقافة



آفاق الترجمة



آفاق الترجمة
مارس ١٩٩٦



الهيئة العامة
لقصور الثقافة

النظرية الأدبية المعاصرة

(طبعة ثانية)

تأليف : رامين سسلان
ترجمة : د. جابر عصفور

لوحة الغلاف
للفنانة جاذبية سري
تصميم الغلاف
عمر جهان



آفاق الترجمة

شهرية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

ورئيس التحرير

حسين مهران

المشرف العام

على أبو شادي

نائب رئيس التحرير

محمد كشيك

مدير التحرير

محمد عيد إبراهيم

المراسلات باسم مدير
التحرير على العنوان التالي
١٦ شارع أمين سامي
القصر العيني - القاهرة
رقم بريدي ١١٥٦١

العنوان الأصلي للكتاب

*A Reader's Guide
To Contemporary Literary Theory
By
Raman Selden
The Harvester Press*

1985

النظرية الأدبية المعاصرة

هذه ترجمة كاملة لكتاب «دليل القارئ إلى النظرية الأدبية المعاصرة»

A Reader's Guide To Contemporary Literary Theory .

من تأليف رمان سلدن Raman Selden . وقد صدر عن The Har-vester Press عام ١٩٨٥ ، وقد اختزل العنوان - في الترجمة - إلى «النظرية الأدبية المعاصرة» . ويعمل المؤلف حالياً أستاذاً للأدب الإنجليزي في جامعة لانكاستر Lancaster University . وقد صدر له - قبل هذا الكتاب بعام - كتاب بعنوان «النقد والموضوعية» ١٩٨٤ ، وفي العام نفسه الذي صدر فيه هذا الكتاب نشر عن كلارندون، أكسفورد، بالاشتراك، «الأعمال الشعرية لجون أولدهام» . وصدر له عام ١٩٨٨ عن دار لونجمان كتاب من تحريره بعنوان «نظرية النقد - من أفلاطون إلى العصر الحاضر» .

تصريح الترجمة

حصلت على هذا الكتاب في الشهر الذي صدر فيه من عام ١٩٨٥. كنت وقتها منشغلا بالبحث عن كتب تقدم النظريات الأدبية المعاصرة تقديماً موجزاً إلى القارئ العربي. وقد كانت هذه النظريات، خصوصاً في تطوراتها المتلاحقة، تبدو شديدة العسر على الطلاب الذين كنت أقوم بتدريسها لهم، فضلاً عن أن نصوص هذه النظريات لم تكن قد ترجم منها شيء إلى اللغة العربية بعد، وكنت - ولا أزال - أرى من الأفضل أن نقدم تعريف الكاتب الغربي نفسه بنظرياته، وتقديمه لها، في الوقت الذي نترجم فيه نصوص النظريات، فذلك أفضل من أن يدعى بعضنا تقديم هذه النظريات في كتب ينسبها إلى نفسه، وهي - بدورها - ليست سوى تلخيص شائه لكتاب أو كتابين أو ثلاثة على الأكثر من الكتب المعروفة لقارئ اللغات الأجنبية. وكان من نتيجة ذلك أن قدمت ترجمة كتاب تيري إيجلتون، وهو من المداخل الممتازة عن «الماركسية والنقد الأدبي». ونشرت الترجمة عام ١٩٨٥. وفي العام نفسه، نشرت ترجمة «عصر البنيوية» للكاتبة إديث كيرزويل، وهو مدخل نقدي إلى البنيوية وعصرها الذي انتهى.

فى هذا السياق ، كان اهتمامى بترجمة هذا الكتاب ؛ فهو كتاب صغير الحجم ، تعليمى المدخل ، يصلح للمثقف العادى، والطالب الذى يريد أن يتعرف النظريات الأدبية المعاصرة. وترجمته فى أقل من شهر. وانفقت مع سلسلة «عالم المعرفة» على نشره. وتحمس الصديق الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا لمراجعة الكتاب. وكانت الخطة أن أرفق بالكتاب قسما آخر هو مجموعة من الدراسات الأساسية لأصحاب النظريات أنفسهم، بحيث يكون القسم الأول كتاب سلدن والقسم الثانى لأصحاب النظريات التى يتحدث عنها الكتاب، ولكن المرض، وتزاحم الأعباء، كل ذلك عطل المشروع بعد أن أنجز منه الكثير. وبعد أن انتهيت من النصوص التى تكمل المشروع، وجدت أن حجم الكتاب سوف يتضخم. ولذلك رأيت أن من الأفضل إصدار ترجمة الكتاب مستقلة، على أن يعقب ذلك كتاب آخر يحمل النصوص المهمة، ولحسن الحظ قد نشر منها الكثير.

والحق أنى أثناء إقبالى على مراجعة الكتاب قبل دفعه إلى المطبعة، خبثت أن يكون القطار قد فات، فنحن نعيش فى عصر تتزاحم فيه المعرفة، وتتقدم على نحو مذهل، فى تراكمها المتدافع. ولكنى - بعد الترجمة - وجدت أن هذه الخشية لا مبرر لها بالقياس إلى وضع ما هو متاح أمام القارئ العربى. وهو قارئ لم يكتمل أمامه المشهد النقدى المعاصر الخاص بالنظريات الأدبية.

وعنوان الكتاب الأصلى «دليل القارئ إلى النظرية المعاصرة». وهو دليل جيد بالفعل. فبعد المدخل النظرى الذى يطرح فيه المؤلف تأسيسا لكيفية تصنيف النظريات المعاصرة، معتمدا فى ذلك النموذج المنهجى الذى تقوم عليه دراسة رومان ياكوبسون لما أسماه «الحدث الكلامى»، يتوجه

المؤلف إلى النظريات المعاصرة نفسها، فيعرض للشكلية الروسية بوصفها «معطف جوجول» الذى تتابعت منه أحلام البحث عن منهج علمى، أو عن تأسيس علم لدراسة الأدب. وتتلاحق النظريات والمداخل، من النظرية الماركسية القديمة قدم «رأس المال» والجديدة جدة كتابات إيجلتون وفردريك جيمسون. والنظريات البنيوية التى تحتل مكانة متواضعة فى الكتاب بعد أن تصاعد موج نظريات ما بعد البنيوية منذ أوائل السبعينيات. والنظريات التى تتوجه إلى القارئ، وأخيرا النقد النسائى.

وأسلوب المؤلف فى العرض أسلوب تعليمى؛ فهو يتوجه بخطابه إلى القارئ العادى، ويعنى أنه يحاول إقناع قارئ معاد لهذه النظريات المتدافعة، إما بسبب ألفة القديم، أو بسبب المقولة المضمنة التى تؤكد أن من جهل شيئا عاداه. ولذلك، فإن بساطة العرض ترادف الوضوح، والاختصار يرادف الاقتصاد، والحرص على التعليم يوازى تجنب الدخول فى التفاصيل الفنية الدقيقة التى يعسر فهمها على غير المتخصصين. وإذا أضفنا إلى ذلك المقدمة التى كتبها المؤلف والتى تقدم أطروحة نظرية فى كيفية تقسيم النظريات الأدبية، فضلا عن الوعى النقدى الذى لا يفارق المؤلف فى عرض النظريات، والذى لا يجعله يتحسس التحمس الأهوج لها (وكم تخسر النظريات المعاصرة من التحمس الأهوج للصديق الجاهل)، أقول إذا أضفنا ذلك تأكدت قيمة الكتاب وجدواه للقارئ العربى المتطلع إلى معرفة جديدة.

والواقع أن الكتاب كله ينطوى على دالتين مهمتين لا بد من تأكيدهما فيما يتصل بالمشهد النقدى المعاصر. أولى هاتين الدالتين هى التعقد البالغ لهذا المشهد، والتراكم المعرفى المذهل الذى يميزه، والتمازج الهائل بين الحقول المعرفية الذى يقطعه. إن الأيام القديمة السعيدة التى

كان الناقد يكتفى فيها بقشور من هنا أو هناك قد انتهت إلى الأبد. وناقد هذا العالم المعاصر بقدر ما يلهث وراء المعرفة ككلب يشم روائح صيد، (ومعذرة لهذا التشبيه المتزعزع من شعر صلاح عبدالصبور) يكاد يشعر بالعجز الإنساني أمام مئات الدوريات العامة، وعشرات الدوريات المتخصصة، ومئات الكتب المتدافعة، ومجالات المعارف الجديدة المتدفقة. وتسارع خطى «الأدب» الذى يعالجه هذا الناقد لا يقل عن تسارع خطى «النقد» الذى يمارسه؛ إذ بقدر ما يتسع هذا يتعمق ذلك، فهناك «نقد النقد» و«النقد الشارح» وعشرات المجالات التى لم تكن محل اهتمام من قبل. ولاشك أن هذه الخاصية تفرض تعقدا هائلا فى المصطلح النقدي، ووفرة لافتة فى مجالاته، وتنوعا متسارعا فى اتجاهاته، ومن ثم صعوبة أكبر فى ترجمته. وهذا وضع يجعل الناقد العربى الذى يسعى أحيانا إلى متابعة ما يحدث فى العالم الواقع على الضفة الأخرى من البحر يشعر بدوار المتابعة الذى لا يعصمه منه سوى «الوعى النقدي» الصارم، وتزايد مسؤوليته إزاء واقعه المتخلف بمؤسساته الثقافية التى تعجز - إلى الآن - عن إصدار مجلة واحدة «معاصرة» متخصصة فى النقد الأدبي.

أما الدلالة الثانية التى ينطوى عليها هذا الكتاب، فهى أن المشهد النقدي المعاصر، قد أخذ يتجاوز سجن «المركزية الأوربية»، ويفتح على أفق إنسانى أرحب. إن مؤلف هذا الكتاب ليس إنجليزيا، أو بريطانيا قبحا، وأعلام النقد المعاصر فى فرنسا من أصول غير فرنسية، ولنتذكر لوسيان جولدمان، وتزفان تودوروف، وجوليا كريستيفا. إن المشهد المعاصر مصب نصب فيه تيارات متدفقة من الاتحاد السوفيتى، ابتداءً من حلقة موسكو إلى مدرسة جامعة تارتو، ومن تشيكوسلوفاكيا، حيث دائرة براج التى من أعلامها

موكاروفسكى، ومن رومانيا، ومن جنيف حيث «نقاد الوعي»، ومن أمريكا اللاتينية. وأهم من ذلك أن هذا المشهد لم يعد من إنتاج سكان الشمال، العالم الأول المتقدم، فقد أخذ يسهم فى صنعه سكان الجنوب، الوافدون من العالم الثالث (والرابع... إلخ).

وليس أدل على ذلك من الإسهام العربى المعاصر فى المشهد النقدى المعاصر، إن كتابات إدوارد سعيد الفلسطينى قد أصبحت قسما من نسيج المشهد النقدى المعاصر فى العالم، ويجد القارئ اسمه إلى جوار كتابات فوكو، فى تيار ما بعد البنيوية داخل هذا الكتاب، وأنا شخصا لا أنسى ما شعرت به عندما كنت جالسا فى مكتبة جامعة وسكنسون - ماديسون بالولايات المتحدة فى يوم من أيام عام ١٩٧٦، وإذا بى أجد عددا - من أعداد واحدة من أخطر المجلات النقدية العالمية، وهى مجلة Diacritics التى تصدر عن جامعة كورنيل - مخصصا بأكمله لكتابات إدوارد سعيد، بعد صدور كتابه الفذ «بدايات: المقصد والمنهج» عام ١٩٧٥، وقبل صدور كتابه «الاستشراق» بسنوات. وسواء كنا نتحدث عن «بدايات» أو «الاستشراق» أو «النصر، العالم، الناقد» أو غيرها من الكتب النقدية التى أصدرها إدوارد فنحن نتحدث عن ناقد هو جزء من حركة النقد العالمى، وحسبنا الإشارة إلى هذه العبارة التى قالها ريتشارد برويرى: إن فهم كتاب بدايات لإدوارد سعيد يعنى فهم ما يقع الآن من تحولات بالغة الأهمية فى النظرية النقدية المعاصرة فى أمريكا وأوربا على السواء.

وما ينطبق على إدوارد سعيد الفلسطينى ينطبق على إيهاب حسن المصرى، فإسهامه هو الآخر فى تيارات ما بعد البنيوية، وكتاباته ما بعد الحداثة، يضعه فى مكانة مماثلة. إن كليهما - سعيد وحسن - نموذج للناقد العربى بخاصة، وناقد العالم الثالث بعامة، من حيث الإسهام فى المشهد

المعاصر، وما ينطوى عليه هذا المشهد من دلالة تؤكد أن دائرة منتحية لم تعد حكراً على دائرة تحددها نظريات المركزية الزوروية التقليدية.

وإذا كانت هذه الدلالة الأخيرة تنطوى على معنى، فإن معناها يقترن بالكيفية التي يكتب بها إدوارد سعيد على سبيل المثال، والوعى النقدي الذي يتعامل به مع حضارة الآخر التي ليست حضارته في آخر المطاف. وأحسب أن الدراسة التي كتبها بعنوان «النص، العالم، الناقد»، وجعلها عنواناً لأحد كتبه، تجيب عن كثير من الأسئلة التي ترتبط بما أشير إليه بعبارة «الوعى النقدي»، فالتعامل مع تراث الأنا وتراث الآخر وجاضره على السواء، والكيفية التي يتحاور بها ابن حزم - في هذه الدراسة - وبول ريكور، والإشارة إلى ابن جنى وابن مضاء القرطبي إلى جانب الإشارة إلى الثامن عشر من برومير وفوكو، كل ذلك يؤكد أن «الإبداع» ليس طريقه الاتباع، وأن الإسهام في إنتاج المشهد النقدي العالمي يبدأ بنقده وإعادة النظر في علاقاته والمشاركة الوثيقة (التي لا تنطوى على عقدة دونية) في الإضافة إليه.

هاتان الدالتان اللتان تحدثت عنهما لا يكشف عنهما هذا الكتاب إلا من حيث هو موضوع لتأويلي الخاص، ومن حيث هو مجال للتأمل بوصفه عينة من المشهد الذي يزدهم بالنظريات الأدبية المعاصرة. لكن الوجه الإيجابي لهاتين الدالتين لا ينبغي أن يلهينا عن سليات هذا الكتاب، مادامنا نتحدث عن الوعى النقدي، وهي قليلة بالفعل. وفي تقديري، أن النموذج النظري الذي طرحه المؤلف لتصنيف النظريات الأدبية يظل نموذجاً بنيوياً مفارقاً للوعى التاريخي، وهو العيب نفسه الذي يقع فيه النموذج الأصلي الموجود في اللغويات البنيوية. وكانت النتيجة أن النظريات الأدبية تظل معلقة في فضاء من علاقات مجردة، محايدة، متجاوزة، على نحو يطرح الأسئلة:

لماذا نشأت؟ ولماذا تغيرت؟ ولماذا تصارعت؟ وكيف تكونت؟. وبنوية هذا النموذج التصنيفي تذكر المتخصص بنموذج آخر شكلي، طرحه م. إبرامز صاحب الكتاب الشهير «المرأة والمصباح: النظرية الرومانسية والتراث النقدي»، من حيث إنها تبحث عن علة «محايدة» تبنى عليها النظريات الأدبية نفسها. ولكن النظريات الأدبية «كلام على كلام» في نهاية المطاف، فهي - بحكم طبيعتها - تطرحنا خارجها، وتفضي بنا إلى العالم الذي تولدت عنده والعالم الذي نحاول توليده، وليس سوى المنهج التاريخي بإنجازاته المتطورة، المعاصرة، ما يصلح لتحقيق الغاية الخاصة بعرض هذه النظريات..

ويمكن أن نضيف إلى هذا المأخذ النظري مأخذا آخر يرتبط بالهدف التعليمي، التويري، التثقيفي، الإيجازي، لهذا الكتاب، أعني أن حرص المؤلف على الاختصار والاقتصاد قد انتهى به إلى نوع من التبسيط وشئ من الغموض. إن التفاصيل الحميمة تختفي كلما تباعدنا عن المشهد، وأشكال الصراع والحوار، وعلاقات التناص بين الكتابات، والدرجات المعقدة من تباين المصطلحات، وخصوصية «القارئ المضمن» أو ما يسميه أحد النقاد المشار إليهم في الكتاب باسم «المروى عليه»، كل ذلك يختفي من التلخيص الموجز الموجود في الكتاب. مؤكداً أن الغاية التعليمية تبرر ذلك، على نحو ما اعترف المؤلف نفسه، ومؤكداً أن الإيجاز يبرر ذلك بالمثل، ولكن يبقى خطر أن يتوهم قارئ متسرع أنه قد تعرف المشهد النقدي المعاصر بعد أن يفرغ من قراءة هذا الكتاب. وإلى هذا القارئ ينبغى أن تتوجه بالتحذير، فنحن إزاء دليل، مجرد دليل، وقيمة الدليل - أنه يشير الرغبة في التعرف الحقيقي والقراءة الجادة لما هو موضوع الدليل. ولحسن الحظ، فقد أصبح من المتاح الآن بين أيدينا مجموعة طيبة من المترجمات التي تساعد، في

مجال واحد على الأقل هو مجال البنيوية أو ما بعدها بقليل . وقد لعبت دار
«توبقال» التي يسهم فيها محمد بنيس دورا حاسما في ذلك، ينبغي أن
نذكره لها بالتقدير.

أما عن الترجمة التي قمت بها، فقد كنت حريصا على أداء المعنى
قبل اللفظ، متبعا في ذلك تقاليد تراثية، أوجزها البهاء العاملي في كتابه
«الكشكول» عن الصلاح الصفدي، قال:

«وللترجمة في النقل طريقان أحدهما طريق يوحنا بن
اليطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما، وهو أن ينظر إلى
كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وماتدل عليه من
المعنى، فيأتي الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية.
ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل إلى
الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه، وهذه
الطريقة رديئة لوجهين: أحدهما أنه لا يوجد في الكلمات
العربية كلمات تقابل جميع الكلمات اليونانية، ولهذا وقع
خلال التعريب كثير من اليونانية على حالها. والثاني أن
خواص التركيب والنسب الإسنادية لا تطابق نظيرها من لغة
أخرى دائما. وأيضا يقع الخلل من جهة استعمال المجازات
وهي كثيرة في جميع اللغات. الطريق الثاني في التعريب
طريق حنين بن إسحق والجوهري وغيرهما، وهو أن يأتي
المترجم الجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة
الأخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الألفاظ أم خالفها.
وهذا الطريق أجود. ولهذا لم تحتج كتب حنين بن إسحق
إلى تهذيب إلا في العلوم الرياضية لأنه لم يكن قيما بها

بخلاف كتب الطب والطبيعى والإلهى، فإن الذى عربها منها
لم يحتج إلى إصلاح.

ولقد اتبعت فى الترجمة «هذا الطريق الأجود»، فحرصت على المعنى
وليس على التطابق الحرفى بين التراكيب. وكان ذلك مثار لخلافات متكررة
بينى والصدىق الكبير فؤاد زكريا حول أسلوب الترجمة. وأحسب أنه لم
يقتنع ببعض حججى الخاصة. ولكن المؤكد أن مراجعته الفصول: الأول
والثانى والرابع والمقدمة من هذا الكتاب قد أفادتنى كل الإفادة، فقد منحت
الترجمة مزيدا من الدقة، والسلاسة، فله عميق تقديرى وشكرى على
ما فعل. ولقد أضفت إلى الكتاب هوامش شارحة وعموما، فإن كل ما يجده
القارئ فى أسفل المتن من هوامش فهو للمترجم، فالكتاب الأصلى لا توجد
به هوامش، ولقد حرصت على عدم الإكثار منها حتى لا تتناقض والغاية
التحقيقية للكتاب، إلا فى المواضع التى فرضتها الضرورة.

وإذا كان لفؤاد زكريا الشكر على ما أضافه إلى الترجمة، فإن لطلابى
فى السنة النهائية من قسم اللغة العربية - آداب القاهرة - تقدير خاص، فلقد
قرأت معهم بعض فصول الكتاب فى دروس الترجمة، وكانت لتعليقاتهم
وأستلثهم وشكاواهم أثرها فى تبسيط أسلوب الترجمة، كى يصبح قريبا من
كل الأفهام. فإليهم أهدى هذا الكتاب أملا فى مستقبلهم، وأملا فى أن
ينفتحوا على آفاق النظريات المعاصرة وينفضوا عنهم مائراكم على أذهانهم
من صدا نظريات قديمة، لن تقودهم إلا إلى مزيد من التخلف.

جابر عصفور

الدقى - نوفمبر ١٩٩٠

مقدمة

لم يكن لدى القراء العاديين للأدب بل نقاده المحترفين إلى عهد قريب أى مبرر يدفعهم إلى الانشغال بتطورات النظرية الأدبية؛ فقد كانت النظرية تبدو مجالا تخصصيا أثيريا، لا يشغل سوى قلة من الدارسين فى أقسام الدراسات الأدبية، وكانت هذه القلة - فى واقع الأمر - تتألف من فلاسفة يدعون أنهم نقاد للأدب، وكانت المناقشات الأدبية تتجه إلى القارئ العام، سواء اتخذت شكل عروض للكتب فى الصحف أو المجالات الفنية التى تقدمها أجهزة الإذاعة والتليفزيون. وافترض أغلب النقاد ما افترضه الدكتور جونسون من أن الأدب العظيم كان عالميا دائما، يعبر عن حقائق عامة فى الحياة الإنسانية. ومن ثم، فإن القراء لا يحتاجون إلى معرفة مخصصة أو لغة نقدية متميزة. وظل النقاد يتحدثون حديثا عاما مريحا عن تجربة الكاتب الشخصية، والخلفية الاجتماعية التاريخية للعمل الأدبى، وعن الأهمية الإنسانية للأدب العظيم، و«عبقرية» الخيال والجمال الشعري فيه. بكلمات أخرى، كان النقد يتحدث عن الأدب دون أن يعكس صفو الصورة التى لدينا عن العالم، أو الصورة التى لدينا عن أنفسنا بوصفنا قراء، ولكن ذلك كله بدأ فى التغير منذ أواخر الستينيات.

فخلال السنوات الخمس عشرة الماضية تقريبا انشغل طلاب الأدب بما بدا أنه سلسلة من التحديات المستمرة لإجماع الرأي العام. ومما زاد الأمر سوءاً أن الضجة الغريبة التي صاحبت هذه التحديات كان أغلبها وافداً من الخارج، ولنا - نحن الإنجليز - خبرة خاصة في الاستخفاف بالمنتجات الفكرية الثقيلة التي يصدرها إلينا غيرنا من أقطار القارة الأوروبية، فنحن عادة نشكو من عسر فهم المنظرين الألمان، أو نشكو من العقلانية المستحكمة لأقرانهم الفرنسيين، وذلك بطريقة تدعم تعصبنا الثقافي وتضع الغزاة موضع الدفاع عن النفس.

وقد احتلت «البنوية» العناوين الرئيسية للأخبار عندما رفضت جامعة كمبردج عام ١٩٨٠ تعيين كولين ماك - كيب Colin Macabe في وظيفة ثابتة في سلك الهيئة التدريسية. ونبهت احتجاجات البنيويين ومن والاهم كتاب البحوث الأدبية في كمبردج إلى وجود دخيل تسلل إلى مخدع الدكتور ف. ر. ليفز في كليته الأم Alma Mater. ونشر الملحق الأدبي بصحيفة التيمز في حينه عدداً خاصاً عن القضية وخلفيتها الثقافية. ولا بد أن القراء العاديين قد ازدادوا حيرة حول «البنوية» بأكثر مما كانوا عليه قبل أن تتيح حادثة ماك - كيب الفرصة للمنظرين ليبسطوا آراءهم على الجمهور. ولم تؤد الآراء التي بسطت إلا إلى تأكيد الأهواء المتأصلة، فقليل بوجود مساحة ماركسية في بنوية ماك - كيب، وقيل إن مدخله البنيوي ليس سوى نقد للبنوية من منظور ما بعد البنوية، وإن التأثير الغالب على عمله مصدره بنوية التحليل النفسي التي رادها الفيلسوف الفرنسي جاك لاكان Jacques Lacan.

ولقد قررت النهوض بعبء المهمة الثقيلة لكتابة دليل للقارئ في هذا الموضوع؛ لأننى أومن - أساسا - أن الأسئلة التى طرحتها النظرية الأدبية الحديثة مهمة بالقدر الذى يبرر الجهد فى توضيحها، فالعديد من القراء قد أخذ يشعرون - الآن - أن ما ألفه من رفض للنظرية من منطلق الازدراء لم يعد مقنعا، وأخذ يرغب فى أن يتعرف على وجه الدقة هذا الذى يطلب منه رفضه، والمؤكد أن أية محاولة لتقديم خلاصة موجزة للمفاهيم المعقدة الشائكة لأية نظرية سوف تفقد النظرية نفسها الكثير من قوتها وحيويتها، وتتركها فريسة أضعف لأنياب الشكاكين، ولكنى افترضت أن رغبة القارئ فى تعرف الموضوع واهتمامه به ستجعله مستعدا لأن يدفع مقابلا عابرا، على سبيل التمهيد، لتذوق أعمق وأقوى للنظريات الأصلية. ولا بد لى من الاعتراف بأنى وقعت فى بعض التبسيط البالغ، من أجل أن أقول الكثير من الأفكار فى القليل من الصفحات، وآمل أن لا يضل القارئ طريقه فى الفهم بسبب الإيجاز الذى لم يكن منه مفر، أو بسبب التعميمات الشاملة. ولقد ألحقت بكل فصل قائمة إضافية متدرجة للقراءة، يتمكن معها القارئ من متابعة وجهات النظر المختلفة للموضوع بمستويات مختلفة من الصعوبة.

ولكن لماذا نؤرق أنفسنا بالنظرية الأدبية؟ ألا يمكن ببساطة أن نتنظر إلى أن تهدأ الضجة القائمة؟ إن الدلائل تشير إلى أن التحولات نحو الاهتمام بالنظرية قد آتت أكلها، وستظل باقية لاتمس فى المستقبل المنظور؛ فقد صدرت مجلات علمية جديدة ووضعت مقررات دراسية جديدة، وعقدت مؤتمرات عديدة تخصصت فى مناقشة القضايا النظرية، ولا ينبغي لنا أن ندهش إذا انعكس هذا الوعي النقدي الجديد على الجيل الجديد من مدرسى الأدب، أما كيف يؤثر ذلك كله فى تجربتنا وفهمنا للقراءة والكتابة

على السواء، فهذا مايتضح إذا لاحظنا - أولاً - أن التركيز على النظرية يتجه إلى تقويض مفهوم القراءة بوصفها نشاطاً «بريئاً»، فنحن لانعود قادرين على التقبل الساذج لـ «واقعية» الرواية أو «صدق» القصيدة، إذا طرحنا على أنفسنا أسئلة تتعلق بتركيب المعنى فى القصة أو حضور الإيديولوجيا فى الشعر. وقد يتعلق بعض القراء بأوهامهم ويتجنبون على ضياع البراءة. ولكن هؤلاء القراء لا يستطيعون - إذا كانوا جادين حقاً - تجاهل القضايا العميقة التى طرحها منظرو الأدب البارزون فى السنوات الأخيرة. ثانياً: إن الطرائق الجديدة فى النظر إلى الأدب يمكن أن تضيف حيوية جديدة على علاقتنا بالنصوص الأدبية، بدلاً من أن يكون لها تأثير على قراءتنا لها.

وبطبيعة الحال، فإن النقد الأدبى لن يقدم شيئاً ذا بال للقارئ إذا لم يكن هذا القارئ - أصلاً - راغباً فى تأمل الكيفية التى يقرأ بها. وإذا ظن قراء آخرون أن النظريات والمفاهيم لاتفعل شيئاً سوى القضاء على عفوية استجابتهم إلى الأعمال الأدبية، فإنهم يتناسون أن الخطاب «العفوى» عن الأدب يعتمد اعتماداً لاواعياً على التنظير الذى خلفته الأجيال السابقة، فحديثهم عن «الشعور» و«الخيال» و«العبقرية» و«الإخلاص» و«الواقع» حافل بالتنظير الجاف الذى ثبته الزمن فأصبح جزءاً من لغة الإدراك العادى. وإذا أردنا أن نكون مغامرين مكتشفين فى قراءتنا للأدب، فإن علينا أن نكون مغامرين بالقدر نفسه فى تفكيرنا عن الأدب.

والمرء يمكنه أن يفكر فى النظريات الأدبية المتنوعة من منظور ما تطرحه من أسئلة حول الأدب؛ إذ قد تطرح هذه النظريات أسئلتها من زاوية الكاتب، أو زاوية العمل الأدبى، أو زاوية القارئ، أو زاوية ماينطلق عليه عادة اسم «الواقع». وبالطبع، فإننا لن نجد منظوراً للأدب يعترف بتحييز منظوره،

وإنما يحاول أن يضع بقية وجهات النظر المغايرة في إطار المدخل الذي يختاره. ويمكن أن يساعدنا المخطط البياني^(١) التالي الذي وضعه رومان ياكوبسون Roman Jakobson لتحديد عناصر التوصيل اللغوي في التمييز بين وجهات النظر المتباينة:

سياق

رسالة

مخاطب ----- اتصال ----- مخاطب

شفرة

فعملية التوصيل اللغوي تقوم على مخاطب هو مرسل يرسل رسالة إلى المخاطب المستقبل للرسالة، وتستخدم الرسالة شفرة (هي عادة لغة يعرفها كل من المخاطب والمخاطب). وللرسالة سياق (أو مشار إليه)، كما أنها تتقل عبر اتصال (أو وسيط كالكلام الحي، أو التليفون، أو الكتابة). ويمكن لنا أن نحذف عنصر «الاتصال» من هذا المخطط عند مناقشة الأدب، لأن هذا العنصر ليست له أهمية خاصة عند منظري الأدب، فهو يحدث عادة بواسطة

(١) هذا المخطط صاغه ياكوبسون في دراسة شهيرة، أصبحت من أهم وثائق البنيوية، بعنوان: «تعقيب ختامي، اللغويات والشعرية»، وقد ألقاها في مؤتمر عقد في جامعة أوتديانا ١٧ - ١٩ أبريل ١٩٥٨، وذلك بوصفها تعقيباً من لغوي يناظر تعقيب ناقد أدبي، وكان رينيه ويليك، وقد نشر بحث ياكوبسون، لأول مرة، بالإنجليزية، ضمن أعمال المؤتمر، في كتاب بعنوان الأسلوب: في اللغة Style in Language من إعداد توماس سيببوك Tomas A. Sebeok عن مطبعة الـ M.I.T في الولايات المتحدة عام ١٩٦٠. وقد صدرت ترجمة عربية لهذا البحث، ضمن كتاب «قضايا الشعرية»، أعدها محمد الولي ومبارك حنون، ونشرتها دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب ١٩٨٨.

الكلمة المطبوعة (إلا في حالة المسرح)، وعندئذ يمكن صياغة مخطط
ياكوبسون في إطار النظرية الأدبية على النحو التالي:

سياق		
كاتب	كتابة	قارئ
	شفرة	

وقد خص ياكوبسون كل عنصر من عناصر المخطط بوظيفة لغوية على
هذا النحو:

إشارية		
انفعالية	شعرية	طلبية
	شارحة	

فإذا اتخذنا وجهة نظر المخاطب، تركز الانتباه لدينا على الاستخدام
الانفعالي للغة، أما إذا انطلقنا من زاوية السياق فإن الاهتمام سوف ينحصر
في الاستخدام الإشاري للغة.. إلخ. كذلك، فإن كل نظرية من النظريات
الأدبية تتجه بدورها إلى التركيز على وظيفة بعينها دون غيرها. وإذا ما تناولنا
النظريات الأساسية التي سنتناقشها، أمكننا أن نضعها يانبا على هذا النحو:

الماركسية		
الرومانسية	الشكلية	التركيز على القارئ
	البنوية	

ذلك لأن النظريات الرومانسية تركز على عقل «الكاتب» وحياته، ويركز
نقد القارئ (النقد الفينومينولوجي) على تجربة «القارئ»، أما النظريات
الشكلية فتركز على طبيعة الكتابة نفسها معزولة عن كل ما عداها، وينظر

النقد الماركسى إلى السياق الاجتماعى والتاريخى بوصفه شيئا أساسيا، وتلقى النظرية الأدبية للبنىوية بثقلها على الشفرات التى نستخدمها فى بناء المعنى. ومع هذا، فإن كل مدخل لايتجاهل - فى أحسن حالاته - بقية الأبعاد من عملية التوصيل الأدبى، فالنقد الماركسى - على سبيل المثال - يدرج الكاتب والمتلقى والنص معا ضمن منظور اجتماعى عام. أما النقد المرتكز على موقف الحركات التحررية النسائية (الذى عالجتة فى الفصل الأخير من هذا الكتاب) فلا محل له فى المخطط البيانى الذى طرحته، لأن هذا النقد ليس «مدخلا» بالمعنى المنهجى الذى ينطبق على الأنواع الأخرى من النظريات، وإنما هو نقد يحاول القيام بتفسير جديد شامل لكل المداخل من موقف ثورى متميز.

وأخيرا، فإنى لا أسعى فى هذا الكتاب إلى تقديم صورة شاملة للنظريات النقدية الحديثة، وإنما سعيت إلى أن أقدم دليلا يساعد فى تعرف أهم الاتجاهات البارزة المثيرة للتحدى، فلقد استبعدت على سبيل المثال نقد الأسطورة^(٢) الذى يقوم على تاريخ طويل متنوع، ويتضمن أعمال كتاب من أمثال جيلبرت مورى Gilbert Murray، وجيمس فريزر James Frazer ومود بودكين Maud Bodkin، كارل يونج Carl Jung ونورثروب فرى Northrop Frye، إذ يبدو لى أن نقد الأسطورة لم يقتحم التيار الأساسى للثقافة الجامعية (الأكاديمية) أو الشعبية ولم يتحد المسلمات القائمة بالدرجة نفسها من القوة التى تحدثها بها النظريات التى سوف نعرض لها.

(٢) يمكن للقارئ الذى لايعرف الإنجليزية، أن يتابع صورة من هذا النقد فى كتاب «الأسطورة والرمز» الذى ترجمه (ترجمة ممتازة) جبرا إبراهيم جبرا، وصدر عن وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧٣.

الفصل الأول

النزعة الشكلية الروسية

النزعة الشكلية الروسية(*)

قد لا يبدو النقد الذى خلفته الشكلية الروسية غريبا فى أعين طلاب الأدب الذين نشأوا فى ظل تيار النقد الجديد^(١) الأمريكى الإنجليزى، بتركيزه على «النقد العلمى» والوحدة العضوية للنص، فالنقد الجديد يشبه الشكلية الروسية فى السعى إلى استكشاف الخصوصية الأدبية للنصوص. وكلا النوعين من النقد يرفض النزعة الروحانية المترهلة التى غلبت على النظرية الأدبية الرومانسية فى أواخر أيامها، ويفضلان اتخاذ موقف تجريبى وتفصيلى من القراءة. ولكن الشكليين الروس كانوا أكثر اهتماما بالجوانب المنهجية، وأكثر انشغالا بوضع أساس «علمى» لنظرية الأدب. أما النقاد الجدد، فقد جمعوا إلى الاهتمام بالتنظيم اللغوى المتميز للنصوص تأكيدا

* هناك ترجمة متاحة لبعض نصوص هذه النزعة، بعنوان «نظرية المنهج الشكلى: نصوص الشكلانيين الروس» من إعداد إبراهيم الخطيب، وقد نشرت فى الرباط بالمغرب عام ١٩٨٢.

(١) تيار النقد الجديد New Criticism شاع فى الولايات المتحدة منذ منتصف العشرينيات وأخذ اسمه الاصطلاحي عام ١٩٤١ حين كتب جون كرو رانسوم كتابه «النقد الجديد» الذى يدرس فيه كتابات ريتشاردز وإمبسون وإليوت وونترز. ومن خصائص هذا التيار الاهتمام بالعمل الأدبى بوصفه كيانا مستقلا فى ذاته، لا يمت بصلة إلى شئ آخر. وقد كان كتاب «ما (هو) الأدب» الذى أصدره رشاد رشدى فى بداية الستينيات تلخيصا لأفكار هذا التيار.

للانفصال بين المعنى الأدبي والتصورات العقلية المنطقية، إذ إن التركيب المعقد القصيدة بمثابة تجسيد لاستجابة إبداعية إلى الحياة، استجابة لا يمكن اختزالها في عبارات منطقية أو تلخيصات نظرية. وقد ظل مدخل هؤلاء النقاد إلى الشعر مدخلا إنسانى النزعة فى المقام الأول على الرغم من تركيزهم على «القراءة الدقيقة المتعمقة» للنصوص الشعرية، فقد انتهى كلينت بروكس Cleanth Brooks - على سبيل المثال - إلى أن القصيدة تجسد «النزاهة والبصيرة والفكر بأوسع مجاليه، «شأنها فى ذلك شأن كل شعر عظيم». أما الشكليون الروس الأوائل فقد نظروا إلى «المضمون» الإنسانى (من انفعالات وأفكار و«واقع» بوجه عام) نظرة تسقط عنه أية أهمية أدبية، وتجعل منه مجرد سياق يتيح «لوسائل» الأدبية أن تؤدي عملها .

صحيح أن الشكليين المتأخرين عدلوا عن هذا الفصل الحاد بين الشكل والمضمون كما سنرى فيما بعد، ولكن يظل من الصحيح أن الشكليين بوجه لم يخلعوا على الشكل الجمالى تلك الدلالة الأخلاقية الثقافية التى خلعها عليه النقاد الجدد. لقد كان الشغل الشاغل للشكليين هو أن يحددوا (بروح علمية) نماذج تصورية وفرضيات تفسر الكيفية التى تنتج بها «الوسائل الأدبية» تأثيرات جمالية (إستيطيقية، والكيفية التى يتميز بها «الأدبى» عن «غير الأدبى» على الرغم من اتصاله به، وإذا كان النقاد الجدد قد نظروا إلى الأدب بوصفه شكلا من أشكال الفهم الإنسانى، فإن الشكليين فهموا الأدب بوصفه استخداما خاصا للغة.

التطور التاريخى للشكلية:

كانت الدراسات الشكلية قد رسخت دعائمها قبل ثورة ١٩١٧ بواسطة جماعتين، الجماعة الأولى حلقة موسكو اللغوية التى تأسست عام ١٩١٥،

والجماعة الثانية هي «أوبوياز» Opojaz (اختصار للعبارة الروسية «جمعية دراسة اللغة الشعرية») التي بدأت نشاطها عام ١٩١٦. وإذا كان رومان ياكوبسون Roman Jakobson (الذي أسهم بعد ذلك في تأسيس حلقة براغ اللغوية عام ١٩٢٦) هو الشخصية القيادية للمجموعة الأولى، فقد كان فيكتور شك洛夫سكى وبوريس إيكينباوم Boris-Eikenbaum أبرز الجماعة الثانية، أما قوة الدفع الأولى التي حركت هذه الجماعة وتلك فقد جاءت من مجموعة المستقلين «الذين اتجهت جهودهم الفنية قبل الحرب العالمية اتجاهها معاديا للثقافة البرجوازية «المتدهورة»، خصوصا ما اقترنت به هذه الثقافة من بحث روى منغل على الذات لدى الحركة الرمزية في الشعر والفنون البصرية على السواء. فلقد سخر المستقبليون من الوضع الصوفي المنطوي الذي انتهى إليه شعراء من أمثال بروسوف Brioucy الذي ألح على أن الشاعر «حامى حمى الأسرار الخفية»، وهكذا نجد مايكوفسكى Maya-Kovsky- الشاعر المستقبلي المنطلق- يؤكد أن موطن الشعر ليس «المطلق»، وإنما هو المادية الصاخبة لعصر الآلة. ولكن علينا أن نلاحظ أن المستقبليين كانوا لا يختلفون عن الرمزيين في موقفهم العدائى من «الواقعية»، فشعار «الكلمة المكفية بنفسها» الذى تبناه المستقبليون كان يعنى تركيز الانتباه على التنظيم الصوتى المستقل للكلمات، بوصفه شيئا يتميز بذاته عن قدرة الكلمات على الإشارة إلى الأشياء. ولقد اندفع المستقبليون وراء الثورة وأكدوا دور الفنان بوصفه منتجاً (ينتمى إلى الطبقة العاملة) لموضوعات مصنعة.. وأعلن دمترىف Dmitriev «أن الفنان قد أصبح الآن رجل بناء وتقنية، قائدا ورئيس عمال». ووصل «التشيديون» Constructivists بهذه الأفكار إلى مداها المنطقى، فدخلوا المصانع بالفعل ليضعوا نظريتهم فى «إنتاج الفن» موضع الممارسة العملية.

من هذه الخلفية، انطلق الشكليون فى إنتاج نظرية للأدب تهتم بالبراعة التقنية للكاتب ومهارته الحرفية. صحيح أنهم تجنبوا البلاغة الثورية (البروليتارية) للشعراء والفنانين، ولكنهم استبقوا نظرة آلية نوعاً إلى العملية الأدبية، ولم يكن شكوفسكى أقل حدة فى نزعتة المادية من ماياكوفسكى، بل إن تعريفه المشهور للأدب على أنه «حاصل جمع كل الوسائل الأسلوبية التى يستخدمها» يلخص أبلغ تلخيص هذه المرحلة الأولى من الشكلية.

ولم يواجه الشكليون أية مصاعب فى تطوير أعمالهم بحرية فى البداية، حين كان الاتحاد السوفيتى منشغلاً عنهم بالحرب الأهلية، والتدخلات الخارجية، وما ترتب عليها من أزمات اقتصادية واجتماعية. ولكن انتقادات تروتسكى Trotsky النافذة فى كتابه «الأدب والثورة» (١٩٢٤) كانت إيذاناً ببداية مرحلة دفاعية جديدة للشكلية الروسية، وهى مرحلة بلغت ذروتها فى أطروحات ياكوبسون - تنيانوف Jacobson - Tynyanov (١٩٢٨). وينظر بعض الدارسين إلى التطورات اللاحقة بوصفها مؤشراً على هزيمة الشكلية الخالصة وإذعاناً للأوامر الاجتماعية الشيوعية، ولكنى أعتقد أن ما شعر به الشكليون من ضرورة وضع البعد الاجتماعى فى الاعتبار قد أنتج - قبل أن تنتهى الحركة الشكلية حوالى عام ١٩٣٠ نتيجة الرفض الرسمى لتوجهاتها - بعضاً من أفضل أعمال هذه الفترة، خصوصاً كتابات مدرسة باختين Bakhtin التى وصلت بين التقاليد الشكلية والماركسية وصلاً مثمراً، مهد الطريق أمام التطورات اللاحقة؛ فقد انتقل نمطها الأقرب إلى البنيوية، أعنى النمط الذى استهله ياكوبسون وتنيانوف، إلى تشيكوسلوفاكيا، واستمر متصلاً فى «حلقة براغ اللغوية» بوجه خاص، إلى أن انقطع نشاط هذه الحلقة بسبب النازية. فهاجر بعض أعضائها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى رأسهم رينيه ويليك René Wellek ورومان ياكوبسون اللذان كان لهما أثرهما العميق فى تطورات «النقد الجديد» طوال الأربعينيات والخمسينيات.

الفن من حيث هو وسيلة^(٢) :

أدى تركيز الشكليين على التقنية إلى تناول الأدب على أنه استخدام خاص للغة، يحقق تميزه بالانحراف عن اللغة «العملية» وتشويهها، فاللغة العملية تستخدم استخداما يرتبط بأفعال التوصيل، أما اللغة الأدبية فليس لها أية وظيفة عملية، وإنما نجعلنا نرى بطريقة مختلفة فحسب. ويمكن للمرء أن يطبق هذه الفكرة في سر بالغ على شاعر مثل جيرار مانلي هوبكنز Ger-ard Manley Hopkins، فلغته «صعبة» على نحو تلفت به الانتباه إلى نفسها بوصفها لغة أدبية. ولقد اتجه الشكليون الأوائل إلى التوحيد بين صفة «الأدبية» وصفة «الشاعرية»، ولكن من السهل أن يكشف المرء عن عدم وجود لغة أدبية في جوهرها، فحين أفتح رواية توماس هاردي «تحت الشجرة الخضراء» بطريقة عشوائية، أقرأ: «كم ستمكث؟» «ليس طويلا، انتظر وتحدث إلي». وليس في هذه الكلمات بالقطع أي سبب لغوي يدفعنا إلى النظر إليها بوصفها كلمات «أدبية»، والسبب الوحيد الذي يجعلنا نقرأها على أنها أدبية، لا على أنها فعل من أفعال التوصيل، هو أننا نقرأها داخل مانعده عملا أدبيا. وسوف نرى أن تنيانوف Tynyanov وغيره من الشكليين قد طوروا فهما لصفة الأدبية أكثر مرونة من ذلك، يؤدي إلى تجنب هذه المشكلة.

إن ما يميز الأدب عن اللغة «العملية» Practical هو أنه حصيلة عملية «بناء» يقوم بها الأديب. ولقد عالَج الشكليون الشعر بوصفه الاستخدام

(٢) هناك ترجمة لبحث فيكتور شك洛夫سكى الذى تستعير هذه الفقرة عنوانه، وقد صدرت بعنوان «الفن باعتباره تكتيكا» ترجمة وتقديم عباس التونسى ومراجعة حسن البناء، مجلة «ألف»، القاهرة (العدد الثانى)، ربيع ١٩٨٢.

الأدبي الأمثل للغة؛ فالشعر «لغة منتظمة في كل نسيجها الصوتي»، والإيقاع أهم العوامل في بنائه، خذ مثلا هذا السطر من المقطوعة الثانية في قصيدة الشاعر جون دون Donne «معزوفة ليلية في عيد القديس لوسياس»: (For I am every dead thing)، إن أى تحليل شكلى سيلفت الانتباه إلى الدفقة الإيامبية Iambic Impulse الضمنية (المؤكددة في السطر المناظر من المقطوعة الأولى وهو (The Sunne is Spent and now his flask). وفي هذا السطر من المقطوعة الثانية فإن توقعنا الصوتى يحبطه المقطع المسقط مابين "dead" و "Thing"، فنذكر الانحراف عن المعيار، وذلك ما يحدث التأثير الجمالى للسطر. وسوف يلاحظ التحليل الشكلى - بالمثل - فوارق أكثر رهافة في الإيقاع، تنتجها الفوارق التركيبية بين السطرين (إذ يحتوى السطر الأول - على سبيل المثال - وقفة Caesura قوية تقطع سير الإيقاع بينما لا توجد وقفة في السطر الثانى)، فالشعر يمارس عنفا منضبطا على اللغة العملية، ومن ثم يحرفها بطريقة تجذب انتباهنا إلى طبيعتها التى يقوم الشاعر ببنائها.

ولقد كان فيكتور شك洛夫سكى أبرز الأصوات فى المرحلة الشكلية الأولى بتنظيراته الحيوية الجسورة المتأثرة بالحركة المستقبلية، وإذا كان الرمزيون قد نظروا إلى الشعر بوصفه تعبيراً عن اللامتناهى، أو عن نوع من الحقيقة غير المنظورة، فإن شك洛夫سكى تباعد عن هذه الشطحات، وازداد اقترباً من الواقع، ساعياً إلى تحديد التقنيات التى يستخدمها الكتاب لإحداث تأثيرات ملموسة.

ويستخدم شك洛夫سكى للتعبير عن واحد من أكثر مفاهيمه جذبا للانتباه مصطلح «التغريب» (بالروسية Ostranenie) ويذهب إلى أننا لانستطيع الحفاظ على نضارة إدراكاتنا للموضوعات، فمطالب الوجود «العادى» تحتم

على الإدراكات أن تصبح آلية الوقع automatised (مصطلح متأخر) إلى حد بعيد، أما رؤية وردزورث البريئة التي تحفظ للطبيعة «روعة الحلم ونضارته» فلا تمثل الوضع المعتاد للوعي الإنساني. ومهمة الفن، تحديدًا، هي أن يعيد إلينا الوعي بالأشياء التي أصبحت موضوعات مألوفة لوعينا اليومي المعتاد. ولكن من المهم أن نؤكد أن الشكليين يختلفون عن الشعراء الدرومانسيين في هذا الجانب، ذلك لأن الشكليين لم يكونوا معنيين بالإدراكات نفسها بقدر ما كانوا معنيين بالوسائل التي تنتج أثر «التغريب». ويوضح شك洛夫سكى ذلك في دراسته «الفن تقنية» (١٩١٧) بقوله:

«إن غرض الفن هو نقل الإحساس بالأشياء كما تدرك وليس كما تعرف، وتقنية الفن هي إسقاط الألفة عن الأشياء أو تغريبها، وجعل الأشكال صعبة، وزيادة صعوبة فعل الإدراك ومداه، لأن عملية الإدراك غاية جمالية في ذاتها ولا بد من إطالة أمدّها، فالفن طريقة لممارسة تجربة لنية الموضوع، أما الموضوع ذاته فليس له أهمية.» (التأكيد لشك洛夫سكى).

ولقد كان الشكليون شغوفين بالاستشهاد بكتابات اثنين من كتاب القرن الثامن عشر هما لورنس شتيرن Laurence Sterne وجوناثان سويفت Jona- than Swift. ويوضح توماشفسكى Tomashevsky كيفية استخدام وسائل التغريب في رواية «رحلات جلغر» لسويفت على النحو التالي:

«لكي يقدم جلغر صورة ساخرة للنظام السياسي الاجتماعي في أوروبا... فإنه يحدث سيده (الحصان) عن عادات الطبقة الحاكمة في المجتمع الإنساني. ولأنه مضطر لأن يقول كل شيء بأقصى درجة من الدقة، فإنه ينزع قشرة العبارات المزوقة والتقاليد الزائفة التي تبرر

أشياء كالحرب والنزاع الطبقي والتآمر البريطاني وغيره. وعندما تغدو هذه الموضوعات عارية من أى تبرير لفظي، ومن ثم يفارقها طابعها المألوف، فإنها تتجلى بكل بشاعتها. وهكذا فإن نقد النظام السياسي وهو مادة غير أدبية - يوجد فناً ويدمج تماماً في القص».

قد تبدو هذه العبارات للوهلة الأولى كأنها تركز على مضمون الإدراك نفسه («البشاعة في «الحرب»، «النزاع الطبقي»)، ولكن ما يهم توماشفسكى في حقيقة الأمر هو التحويل الفني للمادة غير الأدبية. فالتغريب يغير من استجابتنا إلى العالم، ولكنه لا يفعل ذلك إلا بإخضاع إدراكاتنا المعتادة لعمليات الشكل الفني.

ويلفت شكوفسكى الانتباه، في دراسته لرواية «ترسترام شاندى» للورنس ستيرن، إلى الطرائق التي يتم بها تغريب الأحداث المألوفة بواسطة الإبطاء والإطالة والقطع. ذلك لأن هذه التقنية في إرجاء الأحداث أو تطويلها تدفعنا إلى أن نوليها انتباهنا، فنكف عن إدراك المشاهد والحركات المألوفة إدراكاً آلياً وبذلك نسقط عنها الألفة، فحالة السيد «شاندى» الذى يستلقى قانطاً في سريره، بعد سماعه خبر تحطم أنف ابنه ترسترام، كان يمكن أن توصف وصفاً تقليدياً بقولنا: «انطرح حزينا في سريره». ولكن ستيرن اختار أن يزيل الطابع المألوف عن حالة السيد شاندى فقال:

«ارتدى على الفراش، وراحة يده اليمنى تتلقى جبينه وتغطي أغلب عينيه، وتغوص مع رأسه برفق (بينما تراجع مرفقه إلى الوراء) إلى أن لمس أنفه الدثار. وتدلّى ذراعه الأيسر جامداً إلى جانب السرير، وأصابعه متكئة على مقبض حوض الغرفة».

ولهذا المثال أهميته في أنه يوضح لنا كيف أن إزالة (إسقاط) الألفة لا تؤثر، في كثير من الأحيان، في الإدراك ذاته، وإنما يقتصر تأثيرها على

الطريقة التي يعرض بها هذا الإدراك، ذلك لأن مايقوم به ستيرن من إبطاء لوصف حالة شاندى، لا يأتينا باستبصار جديد لطبيعة الحزن ولا بإدراك جديد لحالة مألوفة، وإنما يكتفى بتقديم لغوى أشد حدة وتأثيرا، فما يشير إعجاب شك洛夫سكى - وهو يصف هذا التركيز على عملية التقديم اللغوى بأنه «إمالة اللثام» Lying bare عن تقنية الأديب - هو - على وجه التحديد - عدم اهتمام ستيرن بالإدراك بمعناه غير الأدبى .

وقد يجد العديد من القراء مايشير سخطهم فى رواية ستيرن، بسبب إشاراتها المستمرة إلى بنيتها الروائية. ولكن شك洛夫سكى يرى أن قيام رواية بإمالة اللثام عما تصطنعه من وسائل خاصة، هو أهم عمل «أدبى» تستطيع هذه الرواية أن تقوم به.

ولقد أحدثت فكرتا «التغريب» و«إمالة اللثام» أثرا مباشرا فى مفهوم برخت المشهور عن «فعل التغريب»، فشارك برخت الشكليين الروس موقفهم العدائى الصريح من المبدأ الكلاسى الذى كان ينادى بضرورة أن يخفى الفن عملياته الفنية («الفن هو أن تخفى الفن» ars celare artem)^(٣) ذلك لأن الأدب عندما يقدم على أنه وحدة متجانسة منسجمة من الخطاب، أو تمثيل طبيعى للواقع، فإنه يغدو فى نظر برخت عملية مخادعة ورجعية سياسية، فمن الممكن فى مسرح برخت أن تقوم ممثلة - على سبيل المثال - بأداء دور شخصية رجل، لكى تسقط الألفة عن الدور وتقضى على السمة الطبيعية فيه، فتدفع المشاهدين - بتغريبها للدور - إلى الانتباه اليقظ لنوعية الذكورة فى الدور. ولكن الاستخدامات السياسية الممكنة لمثل هذه الوسيلة

(٣) من أوقيد، بجماليون.

لم تكن تخطر ببال الشكليين الذين ظل اهتمامهم كله منصبا على التقنية في ذاتها.

القصة : Narrative

كان شعراء المأساة الإغريق يستقون مادتهم من القصص الماثورة التي تتكون من سلسلة من الأحداث، مما جعل أرسطو يعرف الحكبة Mythos في القسم السادس من «فن الشعر» بأنها «ترتيب الأحداث الواقعة». وتتميز الحكبة تميزا واضحا عن القصة التي يمكن أن تكون أساسا لها، فالحكبة هي التنظيم الفني للأحداث التي تصنع قصة. وكانت التراجيديات الإغريقية تبدأ عادة بعملية استرجاع، هو استعادة موجزة للأحداث التي وقعت من الحكاية قبل تلك الأحداث التي اختيرت من أجل الحكبة. أما في «إنيادة» فرجيل و«الفردوس المفقود» لميلتون فإننا نجد أنفسنا منغمسين مرة واحدة في معمة الأحداث in medias res، بينما تقدم الأحداث السابقة من القصة تقديمًا فنيا في مراحل متباينة من الحكبة في شكل قص استرجاعي غالبا، كأن يقص إنياس سقوط طروادة على ديدو في قرطاج، أو يحكي رافائيل عن الحرب التي حدثت في السماء لآدم وحواء في الفردوس.

ويحتل التمييز بين «الحكبة» و«الحكاية» مكانا متميزا في نظرية الشكليين الروس عن القص، فهم يؤكدون أن «الحكبة» (sjuzet) هي التي تنفرد وحدها بالخاصية الأدبية، أما القصة أو «الحكاية» fabula فهي مجرد مادة خام تنتظر يد الكاتب البارِع الذي ينظمها. ولكن مفهوم «الحكبة» لدى الشكليين كان أكثر ثورية من مفهومها الأرسطي، على نحو ما تكشف لنا دراسة شك洛夫سكي عن لورنس ستيرن. فالحكبة في «ترسترام شاندي»

ليست مجرد ترتيب لأحداث القصة، بل هي أيضا كل «الوسائل» المستخدمة للتدخل في مجرى القص وإبطائه، فالاستطرادات والحيل الطباعية وإحلال أجزاء من الكتاب محل غيرها (التقديم، الإهداء، إلخ)؛ والأوصاف المسهبة - كلها وسائل تركز انتباهنا على شكل الرواية. وهكذا فإن الحبكة في هذه الحالة هي، بمعنى معين، انتهاك الترتيب الشكلي المتوقع للأحداث. وعندما يقوم ستيرن بهذا الإحباط للترتيب المؤلف للحبكة، فإنه يلفت انتباهنا إلى «الحبك» نفسه من حيث هو موضوع أدبي، ولذلك فإن نظرة شك洛夫سكى إلى الحبكة هي نظرة مختلفة عن المفهوم الأرسطى تماما، ذلك لأن الحبكة الأرسطية المحكمة ينبغي أن تقدم لنا الحقائق الأساسية المألوفة في الحياة الإنسانية، مما يستلزم كونها ممكنة الحدوث في الواقع، وتتسم بنوع من الحتمية، أما عند الشكليين فكثيرا ما كانت نظرية الحبكة ترتبط بمفهوم «التغريب»، فالحبكة تمنعنا من النظر إلى الأحداث على أنها نمطية مألوفة.

التحفيز^(٤) Motivation

أطلق بوريس توماشفسكى Boris Tomashevsky على أصغر وحدة من الحبكة اسم «الحافز» Motif^(٥) الذى يمكن فهمه بوصفه عبارة مفردة أو

(٤) المصطلح يشير إلى نظام الأنساق الذى يرر إدراج حوافز معينة أو إدراج مجموعها.
 (٥) كلمة motif مصطلح موسيقى، وتعنى - بالتقريب - «اللحن المميز»، وقد استخدمها فاجنر بمعنى اللحن الموجه Leitmotiv [بالألمانية]، أى أن كل شخصية في الدراما الموسيقية لها لحن معين، يظهر مع هذه الشخصية ويدل على وجودها. وهي مستخدمة في المسرح والسينما عند الحديث عن «موتيف»، إلخ. ولكن معناها في هذا السياق أقرب إلى «الموضوع الموجه» أو «الوحدة الموجهة».

فعلا مفردا. وهو يميز بين الحافز «المقيد» والحافز «الحر». أما الأول فهو الحافز الذي تتطلبه الحكاية أو القصة، بينما الثانى هو حافز غير أساسى من وجهة نظر الحكاية أو القصة. ولكن إذا نظرنا إلى الأمر من المنظور الأدبى فإن الحوافز الحرة تغدو موضع تركيز الفن. وعلى سبيل المثال، فإن الوسيلة التى تجعل رفائيل يروى قصة الحرب فى السماء هى حافز حر، لأنها ليست جزءا من الحكاية المطروحة، ولكن هذا الحافز أكثر أهمية من الناحية الشكلية بالقياس إلى حكاية الحرب نفسها، ذلك لأنه حافز يتيح لميلتون إدماج الحكاية فى حيكته الشاملة بطريقة فنية.

هذه النظرة تقلب رأسا على عقب المفهوم التقليدى الذى يجعل الوسائل الشكلية خاضعة للمضمون، فمن الواضح أن الشكليين ينظرون، بطريقة معكوسة، إلى أفكار القصيدة وموضوعاتها وإشاراتها إلى الواقع على أنها مجرد ذريعة خارجية يلجأ إليها الكاتب لتبرير استخدامه الوسائل الشكلية، وهم يطلقون على هذا الاعتماد على عناصر خارجية غير أدبية اسم «التحفيز» Motivation. وفى رأى شكلوفسكى، فإن رواية «ترسترام شاندى» فريدة فى بابها لأنها خالية تماما من التحفيز، فالرواية مصنوعة صنعا كاملا من وسائل شكلية تميظ اللثام عن نفسها.

وأكثر أنماط «التحفيز» شيوعا هو مائدعوه باسم «الواقعية»، فمهما كانت الكيفية التى يتركب بها العمل من الناحية الشكلية فإننا نظل نتوقع منه، فى كثير من الأحيان، أن يمنحنا الإيهام «بالواقع» ونتوقع من الأدب أن يكون «مطابقا للحياة» وربما أزعجتنا الشخصيات أو الأوصاف التى لا تطابق توقعنا المعتاد لما يكون عليه العالم بالفعل. ومن هنا، فإننا حين

نلاحظ غياب التحفيز الخارجى، فإننا نطلق أحكاما مثل: «إن الرجل الذى يحب لا يسلك على هذا النحو» و«أبناء هذه الطبقة لا يمكن أن يتحدثوا بتلك الطريقة». ولكننا - من ناحية أخرى - يمكن أن نألف أمورا مستحيلة وممتعة من شتى الأنواع، كما أوضح توماشيفسكى. بمجرد أن نتعلم قبول مجموعة جديدة من الأعراف، فنحن لانلتفت - على سبيل المثال - إلى الطريقة المستحيلة التى يتم بها إنقاذ الأبطال من الموت وهم على وشك أن يقتلوا بأيدي الأشرار، فى قصص المغامرات.

ولقد أصبح موضوع «التحفيز» موضوعا بالغ الأهمية فى عدد كبير من النظريات الأدبية اللاحقة، وقد لخص جوناثان كوللر الموضوع كله تلخيصا بارعا بقوله:

«إن تمثل شئ أو تفسيره يعنى وضعه أو استحضاره داخل أطر النظام التى تتيحها الثقافة. وهذا يتم عادة بالحديث عن هذا الشئ بلون من ألوان الخطاب تقبله تلك الثقافة بوصفه خطابا طبيعيا».

ولا يتوقف إبداع البشر فى إيجاد طرائق لإضفاء معنى على أكثر ألوان الخطاب أو الكتابة عشوائية أو فوضوية، فنحن لانقبل أن يظل «النص» غريبا عنا أو نائيا عن أطرنا المرجعية، ونلج على «تطبيع» Naturalising هذا النص ومحو «نصيته»، وإذا واجهنا صفحة مليئة بصور أدبية واضحة العشوائية فإننا نؤثر القيام بتطبيع هذه الصور، فنعزوها إلى عقل مضطرب، أو ننظر إليها على أنها تعبير عن عالم مختل النظام، بدل أن نتقبل اختلال نظامها على أنه أمر غريب يتأبى على التفسير. ولا شك أن الشكليين قد استبقوا الفكر البنىوى وما بعد البنىوى، عن طريق الاهتمام بسمات النصوص التى تقاوم

عملية التطبيع المستمرة. فلقد رفض شكلوفسكى تفسير الاضطراب الغريب لرواية «ترسترام شاندى» بكونه تعبيرا عن عقل ترسترام الملتوى، ولفت الانتباه بدلا من ذلك إلى «الأدبية» Literariness الملحة للرواية، تلك الأدبية التى تقاوم التطبيع (ومع ذلك لا تستطيع أن تتوقاه فى آخر الأمر).

العنصر المهيمن The dominant

ولقد أدرك الشكليون - تدريجيا - أن الوسائل الأدبية ليست من قبيل القطع الثابتة الجاهزة التى يمكن للمرء أن يحركها كما يشاء داخل اللعبة الأدبية، ذلك لأن قيمة هذه الوسائل ومعناها يتغير بتغير الزمان والسياق. وما أن وصل الشكليون إلى هذا الإدراك حتى تراجع مفهوم «الوسيلة» Device بوصفه المفهوم الرئيسى. ولقد كان لهذا التحول أثر بعيد المدى؛ إذ لم يعد الشكليون يلزمون أنفسهم بالرفض المطلق للمضمون. بل أصبحوا قادرين على إدماج مبادئهم الرئيسى - مبدأ التغريب - فى صميم نظريتهم، أى أنهم بدلا من أن يضطروا إلى الحديث عما يقوم به الأدب من تغريب للواقع، أصبحوا قادرين على الإشارة إلى مايقوم به الأدب من تغريب لنفسه، العناصر «الداخلة» فى العمل الأدبى يمكن أن تصبح من قبيل الروتين الآلى، أو يمكن أن تغدو ذات وظيفة جمالية إيجابية. والوسيلة نفسها يمكن أن يكون لها وظائف جمالية مختلفة فى أعمال أدبية مختلفة، أو يمكن أن تغدو آلية تماما. مثال ذلك أن الألفاظ المهجورة أو الترتيب اللاتينى للكلمات، يمكن أن يؤدى وظيفة ساخرة فى أهجية، أو يغدو مبتذلا بوصفه من مألوف «اللغة الشعرية». وفى الحالة الأخيرة، لا يدرك القارئ الوسيلة من حيث هى عنصر وظيفى؛ إذ تنطمس ملامحها بالطريقة نفسها التى تغدو

بها الإدراكات الحسية المألوفة آلية تؤخذ مأخذ التسليم. وتعنى النظرية تناول الأعمال الأدبية من حيث هى أنساق متحركة، تبني عناصرها فى علاقات، بحيث يحتل بعضها موضع الصدارة وبعضها يصبح مجرد خلفية، فإذا «انطمس» عنصر من العناصر وتراجع إلى الراء (كالألفاظ العتيقة مثلا) فإن عناصر أخرى يمكن أن تبرز إلى الأمام، وتصبح عنصرا مهيمنًا (كالحبكة أو الإيقاع مثلا) فى نسق العمل الأدبى. ولقد توقف ياكوبسون عند مفهوم «العنصر المهيمن» عام ١٩٣٥ بوصفه مفهوما لدى المدرسة الشكلية، وحدده بأنه «العنصر الذى يحتل البؤرة من العمل الفنى: فهو الذى يحكم غيره من العناصر أو المكونات ويحددها ويحورها».

وأكد ياكوبسون - بحق - الطابع غير الآلى لهذه النظرية إلى التقنية الفنية، فالعنصر المهيمن هو الذى يمنح العمل بؤرة تبلوره، ويسر وحدته أو نظامه الكلى Gestalt، بل إن فكرة التغريب نفسها تتضمن معنى التغير والتطور التاريخى، إذ بدل أن يبحث الشكليون عن حقائق سرمدية تجمع الأدب العظيم كله فى قانون مفرد، اتجهوا إلى فهم تاريخ الأدب بوصفه ثورة دائمة واحدة، على نحو غدا مغف كل تطور جديد بمثابة محاولة لرفض الألفة الجامدة والاستجابة المعتادة. كذلك فإن هذا الفهم الحركى (الدينامى) للعنصر المهيمن أتاح للشكليين سبيلا نافعا لتفسير التاريخ الأدبى، على نحو غدت معه الأشكال الأدبية لا تتغير أو تتطور بطريقة عشوائية بل نتيجة تغير العنصر المهيمن نفسه، فثم تحول دائم فى العلاقات المتبادلة بين العناصر المختلفة للنسق الشعرى. وأضاف ياكوبسون إلى ذلك فكرة طريفة مؤداها أن النظرية الأدبية، فى عصور معينة، يمكن أن يحكمها عنصر مهيمن ينبع من نسق غير أدبى، فقد كان العنصر المهيمن على شعر

عصر النهضة الأوروبية نابعا من الفنون البصرية. وتوجه الشعر الرومانسى صوب الموسيقى، أما العنصر المهيمن فى الواقعية فكان فن القول. ولكن أيا كان العنصر المهيمن فإنه ينظم بقية العناصر فى العمل الفردى، فيقدم عناصر على غيرها فى الاهتمام الجمالى، أو يتراجع بعناصر ربما كانت من قبل فى المقدمة بوصفها مهيمنة فى أعمال أدبية تنتمى إلى عصور سابقة. وما يتغير - فى نهاية الأمر - ليس عناصر النسق (التركيب، الإيقاع، الحبكة، الألفاظ، إلخ) ولكن «وظيفة» عناصر بعينها أو مجموعات من العناصر، فعندما كتب الكسندر بوب - على سبيل المثال - الأبيات التالية فى التهكم على شخصية العاكف على الكتب القديمة، فقد كان يعول على هيمنة قيم الوضوح الثرى لتعينه على تحقيق غرضه^(٦):

«من هو، المحنى فى صومعته،

ذو الوجه الجهم، الذى تعلوه غيرة الكتب،

عيناي تتمليان العالم العلامة

الذى يقات مزق ورق الكتابة، ويدعى السيد دودة الكتب».

إن استخدام لغة تشوشر، ونظام الكلمات عنده، بطريقة عفى عليها الزمن، هو أمر يتقبله القارئ على الفور بوصفه تحذلقا فكاهيا. ولكن هذا الأسلوب نفسه كان يستخدمه إدموند سبنسر فى عصر سابق دون أن يوحى بأية نبرة ساخرة، أى أن تغير العنصر المهيمن لا يمارس تأثيره داخل نصوص أدبية بعينها فحسب بل داخل عصور أدبية معينة أيضا.

(٦) لا تظهر الترجمة - للأسف - الاستخدام اللغوى الذى يشجلى فى الأصل.

مدرسة باختين^(٧) :

فى الحقبة المتأخرة من الشكلية، ظهر مايسمى بمدرسة باختين التى جمعت جمعا مثمرا ما بين الشكلية و الماركسية. ولما كان التحقق من أسماء المؤلفين الحقيقيين لمجموعة من الكتب الأساسية فى هذه المدرسة مسألة محل خلاف، فليس أمامنا سوى أن نشير إلى الأسماء التى ظهرت على صفحات العناوين الأصلية لهذه الكتب كأسماء ميخائيل باختين Mi-Khail Bakhtin وبفل ميدفيدف Pavel Medvedev وفالنتين فولوشينوف Valentin Voloshinov. ولقد ظلت هذه المدرسة شكلية فى اهتمامها بالبنية اللغوية للأعمال الأدبية ولكنها تأثرت تأثرا عميقا بالماركسية فى إيمانها بأن اللغة - لا يمكن فصلها عن الإيديولوجيا. هذه الصلة الوثيقة بين اللغة والإيديولوجيا جذبت الأدب فورا إلى المجال الاجتماعى والاقتصادى - وهو موطن الإيديولوجيا. ولكن نظرة مدرسة باختين إلى الأدب تتباعد عن الفرضيات الماركسية التقليدية حول الإيديولوجيا، لأنها ترفض معالجة الإيديولوجيا بوصفها ظاهرة ذهنية خالصة، تنشأ انعكاسا للبنية التحتية المادية (الواقعية) الاجتماعية والاقتصادية، فالإيديولوجيا لا تنفصل عن وسيطها اللغة فى مدرسة باختين، أو كما يوضح فولوشينوف الأمر بقوله «إن الوعى نفسه لا ينشأ ويغدو حقيقة لها كيائها المستقل إلا فى التجسد المادى للعلامات». إن اللغة التى هى نسق علامات يبنى اجتماعيا هى نفسها واقع مادى.

(٧) هناك أكثر من ترجمة عربية متاحة لأعمال باختين، منها:
- قضايا الفن الإبداعى عند دوستوفيسكى، ترجمة جميل نصيف التيكريتى ومراجعة حياة شرارة، بغداد ١٩٨٦ - الخطاب الروائى، ترجمة منعم برادة، دار الفكر، القاهرة ١٩٨٧.

ولم تكن مدرسة باختين مهتمة باللغويات التجريدية التي أصبحت أساس
البنوية فيما بعد، بل كانت مهتمة باللغة - أو الخطاب - من حيث هي
ظاهرة اجتماعية. ولقد كان الاستبصار الأساسى الذى توصل إليه
فولوشينوف هو أن «الكلمات» علامات اجتماعية فعالة دينامية، قادرة على
تقبل معان ودلالات مختلفة، لدى الطبقات الاجتماعية المختلفة، فى المواقف
الاجتماعية والتاريخية المختلفة. وهاجم اللغويين الذين بحثوا اللغة بوصفها
موضوعا للبحث جامدا، محايدا، ساكنا (بما فيهم دى سوسير). ورفض
تماما الفكرة التى تسلم بوجود «تلفظ أحادى الجانب جاهز معزول،
مفصول عن سياقه اللغوى والفعلى، لا يقبل أى نوع ممكن من أنواع
الاستجابة الفعالة، وإنما يقبل الفهم السلبي فحسب». وقد تترجم اللفظة
Slovo بـ «الكلمة»، ولكن مدرسة باختين تستخدم هذه اللفظة بنبذة
اجتماعية قوية (تجعلها أقرب إلى التلفظ Utterance أو «الخطاب» Dis-
course فى المصطلح المعاصر)، فالعلامات اللغوية مضمار للصراع الطبقي
المستمر الذى تحاول فيه الطبقة الحاكمة - دائما - تضيق معانى الكلمات
وصنع علامات اجتماعية «أحادية النبذة». ولكن «تعدد النبذة»، الذى هو
سمة حيوية وأساسية للعلامات اللغوية، يغدو واضحا فى أوقات الاضطراب
الاجتماعى، عندما تتصادم المصالح المتباينة للطبقات وتتقاطع على أرض
اللغة.

ولقد كان ميخائيل باختين هو الذى قام بتطوير النتائج المترتبة على هذه
النظرية الدينامية إلى اللغة، وطبقها على النصوص الأدبية. ولكنه لم يعالج
الأدب بوصفه انعكاسا مباشرا للقوى الاجتماعية، كما قد يتوقع المرء، بل
أبقى على اهتمام شكلى الطابع بالبنية الأدبية، وكشف عن الكيفية التى تم

بها التعبير عن الطبيعة الدينامية للغة فى أنواع معينة من التراث الأدبى. ولم يركز اهتمامه على الطريقة التى تعكس بها النصوص الأدبية المجتمع أو المصالح الطبقية، بل على الطريقة التى تصاغ بها اللغة بحيث تقاوم السلطة وتحرر الأصوات المخالفة. وأنسب وصف لموقف باختين أنه لغة تحررية، فهو موقف يحتفى بأبلغ الاحتفاء بالكتاب الذين تتيح أعمالهم أقصى درجة من الحرية للأنساق المختلفة من القيمة، والذين لا يفرضون سلطتهم على البدائل المخالفة. ولقد كان باختين معاديا للنزعة الستالينية إلى حد بعيد. أما كتابه الممتاز فهو «مشكلات شعرية دوستوفيسكى»^(٨) (١٩٢٩) الذى قدم فيه مقارنة جريئة بين روايات تولستوى ورواياته دوستوفيسكى، فنلاحظ أننا لا نسمع الأصوات المتباينة فى روايات تولستوى إلا وهى خاضعة خضوعا صارما لهدف المؤلف المتحكم، على نحو لا نواجه فيه سوى حقيقة واحدة فحسب، هى الحقيقة التى يراها المؤلف. وأطلق باختين على هذا النمط من الروايات مصطلح النمط «الوحيد الصوت»، أو «المونولوجى» للرواية، وذلك فى مقابل النمط المضاد الذى يمثل شكلا جديدا «متعدد الأصوات»، أو «الديالوجى»، الذى طورته دوستوفيسكى بحيث لا توجد أية محاولة للتنسيق أو التوحيد بين وجهات النظر المتباينة التى تعبر عنها الشخصيات المختلفة، ولا يمتزج وعى هذه الشخصيات المختلفة بوعى المؤلف، أو تدعن الشخصيات لوجهة نظره، بل تظل محتفظة بتكاملها واستقلالها، فهى «ليست موضوعات لكلمة المؤلف فحسب بل ذوات فاعلة لها كلمتها المباشرة الدالة فى الوقت نفسه». ويستكشف باختين فى هذا الكتاب، وفى كتابه اللاحق

(٨) سبقت الإشارة إلى ترجمته بعنوان «مضايى الفن الإبداعى عند دوستوفيسكى» وهى ترجمة غير دقيقة لكلمة Poetics التى تقابل الفن الإبداعى فى الترجمة العربية.

عن رابليه، الاستخدام الباعث على التحرر، والمؤدى فى أحيان كثيرة إلى الثورة، لأشكال متعددة من «الديالوج» أو «الحوار» فى الثقافة القديمة والوسيلة وثقافة عصر النهضة.

وتؤدى مناقشة باختين لظاهرة «الكرنفال»^(٩) Carnival إلى تطبيقات مهمة على نصوص معينة، وكذلك على تاريخ الأنواع الأدبية، فالاحتفالات المرتبطة بالكرنفال احتفالات جماعية شعبية، ينقلب فيها التراتب الهرمى رأسا على عقب (فيغدو الحمقى عقلاء والملوك شحاذين)، وتختلط الأضداد (الحقيقة والوهم، النعيم والجحيم)، ويتهك المقدس وتعلن «نسبية» منتشبة، تبسط نفسها على كل الأشياء، فيتحطم كل ما هو سلطوى جامد أو جهم، ويتفكك، ويصبح موضوعا للهزؤ والسخرية. هذه الظاهرة الاجتماعية، الشعبية الداعية إلى التحرر والتحررة فى الوقت نفسه، كانت ذات أثر فعال فى آداب عصر متباينة، لكنها أصبحت عنصرا مهيمننا على نحو خاص فى عصر النهضة الأوروبية. ويستخدم باختين مصطلح «الكرنفالية» Carnivalisation لوصف أثر ظاهرة الكرنفال فى تشكيل الأنواع الأدبية. وتتمثل بواكير الأشكال الأدبية الكرنفالية فى «محاورات سقراط» و«الهجائيات المنيبة». أما «محاورات سقراط» فكانت فى أصلها أقرب إلى فورنة الحوار الشفاهى، حيث ينظر إلى كشف الحقيقة على أنه

(٩) ربما كانت أقرب لكلمة Carnival - الفرنسية الأصل - هى «المهرجان الاحتفالى». ولكنى

أثرت عدم الترجمة حفاظا على دلالتها الخاصة فى نقد باختين، حيث يفتن معناها بالاحتفاء بتعدد الأصوات، وانطلاقها الذى لا يجعل لصوت سلطانا على غيره من الأصوات، كائننا إزاء «مولد» ينقلب فيه التراتب الهرمى للعلاقات والطبقات والأعراف.

إماطة اللثام عنها، من خلال تبادل الآراء، لا على أنه مونولوج (حديث منفرد) متسلط. صحيح أن المحاورات السقراطية^(١٠) وصلتنا في أشكال أدبية مصقولة هذبها أفلاطون، ولكن بعض هذه «النسبية المنتشبة» للكرنفال ظلت باقية في الأعمال المكتوبة، يرغم بعض التخفيف الذي طرأ على سبمة البحث الجماعي، حيث تتصادم وجهات النظر، دون تراتب هرمي صارم للأضواء يفرضه المؤلف. ويلاحظ باختين أن صورة سقراط «المعلم» تبرز في المحاورات الأفلاطونية الأخيرة، وتحل محل الصورة الكرنفالية لسقراط المحرض الذي يستثير الحاجة، ويولد الحقيقة من الآخرين بدل أن يكون هو صاحب هذه الحقيقة.

أما في «الأهجية المنيبية» Menippean satire^(١١) فإن المستويات الثلاثة، وهي العالم العلوي (الأولمبي) والسفلي والأرضي، تعالج كلها تبعاً لمنطق الكرنفال، ففي العالم السفلي - على سبيل المثال - تتلاشى اللامساواة اليبائدية بين البشر على الأرض، ويفقد الأباطرة تيجانهم ويلتقون بالشحاذين لقاء الأنداد. ويستجمع دستوفسكي كل التقاليد المتعددة للأدب الكرنفالي،

(١٠) في الجزء الخاص بمنهج الحوار، في الدراسة التي كتبها فؤاد زكريا، عن جمهورية أفلاطون، ذكر شيئاً مشابهاً لهذا عندما حلل طبيعة الاختلاف بين الحوار السقراطي المباشر، المتكافئ، والحوار الأفلاطوني، المكتوب، الذي يعرض فيه المؤلف نفسه جميع وجهات نظر المتحاورين.

(١١) الأهجية المنيبية نسبة إلى الطراز الهجائي الساخر الذي ابتدعه الشاعر اليوناني مينيبوس Menippos في القرن الثالث قبل الميلاد، وطوره الشاعر الروماني ماركوس فارو Marcus Varro في القرن الأول قبل الميلاد، وذلك في أهاجيه التي أطلق عليها اسم الأهاجي المنيبية Saturae Menippeae التي تخلط النجد بالهزل، وتمزج الشعر بالنثر، والتي كانت بداية تقاليد انتهت بما عرف باسم «الأهجية المنيبية» La Satire Ménippée في فرنسا في العقد الأخير من القرن السادس عشر.

فحكايته العجيبة «يوبوك» (١٨٧٣) تكاد تكون أهجية مبنية خالصة، ففيها مشهد للمقبرة، يبلغ ذروته في تصوير غريب «لحياة قصيرة خارج الحياة»، يعيشها الموتى في المقبرة، حيث يتمتع الموتى - قبل أن يفقدوا وعيهم الدنيوى تماما - بفترة أشهر قليلة، يتحررون فيها من كل التزامات الحياة المعتادة وقوانينها، على نحو يستطيعون معه كشف ما فى داخلهم فى حرية صارخة لا قيد عليها. ويعلن البارون كلينفتش، «ملك» الجثث عن ذلك بقوله: «أريد منكم جميعا أن تقولوا الحقيقة.. وإذا كان من المستحيل أن يحيا الناس على الأرض دون كذب، لأن الحياة والكذب مترادفان، فإننا هنا سوف نقول الحقيقة على سبيل المزاح». هذا المشهد ينطوى على بذرة الرواية «متعددة» الأصوات التى تتحرر فيها الألسنة لتتطرق على نحو يقلب الأوضاع ويحدث فينا صدمة، دون أن يتدخل الكاتب بين الشخصية الروائية والقارئ.

ويشير باختين مجموعة من الموضوعات المحورية التى طورها المنظرون اللاحقون، فقد نظر الرومانسيون والشكليون - قبل باختين - إلى النصوص الأدبية بوصفها وحدات عضوية، أو أبنية متكاملة، يضم القارئ نهاياتها السائبة - آخر الأمر - فى وحدة جمالية. ولكن كشف باختين عن الخاصية الكرنفالية فى الأدب يخفف من حدة هذه النزعة العضوية التى سلم بها السابقون عليه، ويدعم الفكرة (اللاحقة) القائلة بأن الأعمال الأدبية الأساسية يمكن أن تكون متعددة المستويات مستعصية على الاتحاد. وذلك منظور يترك المؤلف فى وضع أقل هيمنة بكثير من حيث علاقته بكتاباتة، ويحول فكرة الهوية الفردية إلى فكرة إشكالية، على نحو تغدو معه الشخصية مراوغة، وهمية، ملتوية. ويشكل هذا رأى استباقا لأحد العناصر الرئيسية

التي يهتم بها النقد قريب العهد، القائم على التحليل النفسي، وإن كان على المرء أن لا يبالغ في ذلك، وينسى أن باختين حافظ بقوة على اعتقاده بأن القدرة الفنية للكاتب تظل هي المسيطرة، فعمله لا يتضمن التشكك الجذري في دور المؤلف على نحو ما نرى في عمل رولان بارت Roland Barthes أو غيره من البنيويين. ومع ذلك، فإن باختين يشبه بارت في «إثارة» الرواية متعددة الأصوات، ويشبهه في تفضيل الحرية و«اللذة» Pleasure على السلطة و«اللياقة» Decorum، بل إن هناك نزوعاً لدى النقاد قريبي العهد إلى تناول النص متعدد الأصوات، وغيره من ألوان النص «التعددي»، بوصفه النص القاعدة وليس النص الاستثناء، أعني أن هؤلاء النقاد يتناولون النصوص متعددة الأصوات على أنها أقرب إلى التعبير عن حقيقة الأدب من أنواع النصوص أحادية المعنى (المونولوجية). وقد يروق ذلك القراء المحلشين الذين نشأوا على قراءة جيمس جويس وصموئيل بيكيت، ولكن علينا ملاحظة أن باختين وبارت يطرحان تفاصيل تنبع من توجهاتهما الاجتماعية والإيديولوجية. ومع ذلك تبقى حقيقة أن باختين استهل خطاً مشعراً من التطور بتأكيد انفتاح النصوص الأدبية وعدم ثباتها.

الوظيفة الجمالية :

ناقشنا من قبل انتقال النزعة الشكلية من فكرة شكلوفسكي عن النص بوصفه مجموعة من الوسائل إلى فكرة تنيانوف عن النص بوصفه نسقاً وظيفياً، ويمكن أن نضيف أن ذروة هذا الانتقال تمثلت في البيان المعروف باسم أطروحات ياكوبسون - تنيانوف (١٩٢٨)، فقد كانت هذه الأطروحات رفضاً للشكلية الآلية، ومحاولة لتجاوز منظورها الأدبي الضيق

عن طريق محاولة تحديد العلاقة بين «المتتالية الأدبية» (النسق) وغيرها من أنواع «المتتالية التاريخية» Historical Series. وقد أكدت هذه الأطروحات أن الكيفية التي يتطور بها النسق الأدبي تاريخيا لا يمكن فهمها دون فهم الكيفية التي تؤثر بها الأنساق الأخرى في هذا النسق، وتحديد - جزئيا - مساره التطوري ومن جهة أخرى، ألحنت هذه الأطروحات على أن السبيل الأسلم لفهم الترابط بين الأنساق إنما يبدأ من ضرورة الاهتمام «بالقوانين الكامنة» للنسق الأدبي. وبرغم الطبيعة التجريدية الصارمة لهذه الأطروحات فإنها تطرح برنامجا للبحث يثير الإعجاب - برنامجا لم يتابعه الباحثون إلى الآن.

ولقد واصلت «حلقة براغ اللغوية» التي تأسست عام ١٩٢٦ المدخل البنيوي وعملت على تطويره، فأكد موكاروفسكى Mukarovsky - على سبيل المثال - أن من الحمق استبعاد العوامل غير الأدبية من التحليل النقدي، وتبنى نظرة تنيانوف الديناميكية إلى الأبنية الجمالية، فاهتم كل الاهتمام بالتوتر الدينامي بين الأدب والمجتمع في أي إنتاج فني وتتصل أكثر أفكار موكاروفسكى أهمية بما يسميه «الوظيفة الجمالية»، تلك الوظيفة التي يؤكد أنها ليست مقولة جامدة ثابتة، بل مقولة متحركة الأبعاد، دائمة التحول؛ ذلك لأن الموضوع الواحد يمكن أن تكون له وظائف متعددة فيما يقول موكاروفسكى، فالكنيسة - مثلا - يمكن أن تكون مكانا للعبادة وعملا من أعمال الفن في آن. والحجر يمكن أن يكون حاجزا لباب أو قذيفة أو مادة بناء أو موضوعا لتذوق فني. والأزياء علامات شديدة التعقيد يمكن أن تكون لها وظائف اجتماعية وسياسية وشهوية وجمالية. وفي وسعنا أن نلاحظ هذه القابلية للتشعب ذاتها في المنتجات الأدبية، فالخطبة السياسية،

والسيرة الذاتية، والرسالة، والكلمة الدعائية، يمكن أن تنطوى كلها - أو لا تنطوى - على قيمة جمالية في المجتمعات والعصور المتباينة. وهكذا فإن محيط دائرة «الفن» متغير على الدوام، ويرتبط ارتباطاً دينامياً ببنية المجتمع.

لقد تبنى نقاد ماركسيون، في الآونة الأخيرة، استبصار موكاروفسكى هذا لكى يثبتوا التأثيرات الاجتماعية للفن والأدب، فنحن لانستطيع أبداً أن نتحدث عن الأدب كما لو كان مجموعة ثابتة من الأعمال الأدبية، أو مجموعة متعينة من الوسائل، أو كمية ثابتة من الأشكال والأنواع، بل إن إضفاء شرف القيمة الفنية على موضوع أو نتاج، هو فعل اجتماعى، لا ينفصل فى آخر المطاف عن الإيديولوجيات السائدة. وآية ذلك أن التغيرات الاجتماعية الحديثة قد أنتجت موضوعات لم يكن لها من قبل وظائف فنية، ولكننا أصبحنا ننظر إليها بوصفها موضوعات فنية قبل كل شئ. وأمامنا الوظيفة الدينية. للآيقونات المسيحية، والوظيفة المنزلية للآنية الإغريقية، والوظيفة العسكرية للدروع - هذه الوظائف أصبحت ثانوية بالقياس إلى الوظيفة الجمالية الأساسية فى الأزمنة الحديثة. كذلك، فإن ما يختاره الناس على أنه فن «جاد» أو ثقافة «رفيعة» إنما هو أمر خاضع - بالمثل - للقيم المتغيرة، فموسيقى الجاز التى كانت فيما مضى مجرد موسيقى محصورة فى المواخير والحانات. قد أصبحت فناً جاداً، يرغم أن أصولها الاجتماعية «الدنيا» مازالت تثير الخلاف حول تقييمها. من هذا المنظور، لا يعود الفن والأدب من قبيل الحقائق السرمدية بل يقبل كلاهما دائماً تعريفات جديدة، فالطبقة المهيمنة فى كل حقبة تاريخية لها تأثيرها المهم فى تحديد الفن، وكلما نشأت اتجاهات جديدة حرصت هذه الطبقة عادة على إدماجها فى عالمها الإيديولوجى.

إن نظريات بساختين وأطروحات ياكوبسون وتيانوف وأعمال
موكاروفسكى كلها إنجازات تتجاوز الشكلية الروسية «الخالصة» التى
طرحها شكلوفسكى وتوماشفسكى وإيخنباوم، وتشكل تمهيدا جيدا
للفصل التالى عن النقد الماركسى، ذلك النقد الذى ترك تأثيره - على أية
حال - فى الاهتمام المتزايد للشكلين بالجوانب الاجتماعية من الفن.
صحيح أن العزلة التى فرضها الشكليون على النسق الأدبى تتنافر مع
اتجاه الماركسيين إلى إخضاع الأدب للمجتمع، لكننا سوف نكتشف أن
النقاد الماركسيين لم يكونوا جميعا يسيرون فى الخط الصارم للشكلية الذى
اتسم به التراث السوفيتى.

قراءات مختارة
نصوص أساسية

Bakhtin, Mikhail,

Problems of Dostoevsky's Poetics, Trans. R.W. Rotsel (Ardis, Ann Arbor, 1973).

Bann, Stephen and Bowlt, John E. (eds),

Russian Formalism (Scottish Academic Press, Edinburgh, 1973).

Lemon, Lee T. and Reis, Marion J. (eds),

Russian Formalist Criticism: Four Essays (Nebraska University Press, Lincoln, 1965). Contains classic essays, including Shklovsky's on Sterne.

Matejka, Ladislav and Pomorska, Krystyna, (eds),

Readings in Russian Poetics: Formalist and Structuralist Views (MIT Press, Cambridge, Mass, and London, 1971).

Medvedev, P.N. and Bakhtin, Mikhail,

The Formal Method in Literary Scholarship, Trans. A.J. Wehrle.

Mukarovsky, Jan,

(Johns Hopkins University Press, Baltimore and London, 1978).

Aesthetic Function, Norm and Value as Social Facts, Trans. M.E. Suino (Michigan University Press, Ann Arbor, 1979).

مقدمات

Bennett, Tony,

Formalism and Marxism (Methuen, London and New York, 1979).

Erlich, Victor,

Russian Formalism: History Doctrine (3rd edn, Yale University Press, new Haven and London, 1981). The classic introduction.

Jefferson, Ann,

"Russian Formalism" in *Modern Literary Theory, A Comparative Introduction*, Ann Jefferson and David Robey (eds), Batsford, London, 1982).

قراءات إضافية

Jameson, Fredric,

The Prison-House of Language: A Critical Account of Structuralism and Russian Formalism (Princeton University Press, Princeton, N.J. and London, 1972).

Pike, Christopher (ed),

The Futurists, the Formalists, and the Marxist Critique (Ink Links, London, 1979). An anthology.

Selden, R.,

Criticism and Objectivity (Allen & Unwin, London, Boston, Sydney, 1984), chap 4, 'Russian Formalism, Marxism and "Relative Autonomy".'

Thompson, E.M.,

Russian Formalism and Anglo-American New Criticism (Mouton, The Hague, 1971).

Trotsky, L.,

Literature and Revolution (Michigan University Press, Ann Arbor, 1960).

الفصل الثانى

النظريات الماركسية

النظريات الماركسية

للنقد الأدبي الماركسي تاريخ أطول من كل أنواع النقد المقدمة في هذا الكتاب، فقد طرح ماركس نفسه بعض الأفكار المهمة عن الثقافة والمجتمع في الأربعينيات من القرن التاسع عشر. ومع ذلك، فليس من الخطأ أن نعد النقد الماركسي ظاهرة من ظواهر القرن العشرين.

إن المعتقدات الأساسية للماركسية ليست أسهل في تلخيصها من المعتقدات Doctrines المسيحية، ولكن عبارتين شهيرتين لماركس تقدمان نقطة كافية للانطلاق:

«ظلت الفلسفة تفسر العالم بطرق مختلفة ولكن المهم تغييره»
«ليس وعى البشر هو الذى يحدد وجودهم، بل إن وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم».

لقد كانت كلتا العبارتين حديثة على نحو مقصود؛ ذلك لأن ماركس كان يحاول توجيه فكر الناس في اتجاه مضاد عن طريق مناقضة المعتقدات النظرية التي كانت من قبيل المسلمات في عصره، فأكد - أولاً - أن الفلسفة ظلت تأملاً محلقاً، وحان الوقت الذى ينبغي أن تنشغل فيه بالعالم الفعلى، وذهب ثانياً إلى أن هيجل وأتباعه في الفلسفة الألمانية قد أقنعونا بأن

العالم محكوم بالفكر، وأن مسيرة التاريخ هي تكشف جدلى تدريجى لقوانين العقل، وأن الوجود المادى تعبير عن ماهية روحية غير مادية مما دفع الناس إلى التسليم بأن أفكارهم وحياتهم الثقافية وأنظمتهم التشريعية ومعتقداتهم من إبداع عقل إنسانى، أو عقل يفوق الإنسان، وهو عقل ينبغى النظر إليه على أنه هو الدليل الذى لا يخيب للحياة الإنسانية. ولكن ماركس يقلب هذه الصيغة رأسا على عقب، فيذهب إلى أن كل الأنساق الفكرية (الإيديولوجية) نتاج للوجود الاجتماعى الفعلى، وأن المصالح المادية للطبقة الاجتماعية المسيطرة هي التى تحدد الكيفية التى ينظر بها الناس إلى الوجود على المستوى الفردى أو الجمعى، فالأنساق التشريعية - على سبيل المثال - ليست تجليات خالصة لعقل إنسانى أو فوق الإنسانى، وإنما هي - فى نهاية المطاف - انعكاس لمصالح الطبقة السائدة فى حقب تاريخية معينة.

وقد استعار ماركس لنظريته تعبيرين مجازيين من فن المعمار، فهناك «بناء» فوقى (هو الإيديولوجيا والسياسة) يرتكز على «أساس» (هو العلاقات الاجتماعية الاقتصادية). ولكن تعبير «يرتكز على» لا يساوى بالضبط تعبير «ينتج عن»، ذلك لأن ماركس كان يرى أن ما نسميه «ثقافة» ليس واقعا مستقلا بذاته، بل إن الثقافة لاتنفصل عن الأوضاع التاريخية التى يبدع بها البشر حياتهم المادية، كما كان يرى أن علاقات الهيمنة والتبعية (الاستغلال) التى تحكم النظام الاجتماعى الاقتصادى فى مرحلة معينة من مراحل التاريخ الإنسانى هي التى «تحدد» بمعنى ما (ولا «تسبب») الحياة الثقافية الكاملة للمجتمع.

ومن الواضح أن النظرية تبدو بالغة الآلية إذا صيغت بصورة مفرطة فى السذاجة. أعنى - مثلا - حين يتحدث ماركس وإنجلز فى «الإيديولوجيا الألمانية» (١٨٤٦) عن الأخلاق والعقيدة والفلسفة بوصفها «أشباحا

تشكل في أدمغة البشر؛ أشباحا ليست سوى «انعكاسات وأصداء» لـ «عمليات الحياة الفعلية». غير أن إنجلز يؤكد من ناحية أخرى، في سلسلة من الرسائل الشهيرة المكتوبة في تسعينيات القرن الماضي، أنه بينما كان هو وماركس ينظران دائما إلى الجانب الاقتصادي بوصفه العامل النهائي الذي يتحكم في غيره من الجوانب فإنهما كانا - في الوقت نفسه - ينظران إلى الفن والفلسفة وغيرهما من أشكال الوعي بوصفها أشكالا لها «استقلالها الذاتي النسبي» وقدرتها المستقلة على تغيير حياة البشر. ولنتساءل في هذا الصدد: هل هناك سبيل آخر سوى الخطاب السياسي يتوقع به الماركسيون تغيير وعي الناس؟ إننا لو كنا ماركسيين، وأردنا أن ندرس روايات القرن الثامن عشر أو فلسفة القرن السابع عشر في أوروبا، لأدركنا أن هذه الكتابات قد نشأت في مراحل محددة من تطور المجتمع الرأسمالي الباكر، فصراع الطبقات الاجتماعية هو الأساس الذي تقوم عليه الصراعات الإيديولوجية، وإذا كان الأدب والفن ينتميان إلى المجال الإيديولوجي، فإن علاقتهما بالإيديولوجيا أقل مباشرة من علاقة الأنساق الدينية والتشريعية والفلسفية.

ولقد اعترف ماركس بالوضع الخاص للأدب في فقرة شهيرة من كتابه «الأسس» Grundrisse، حيث يناقش مشكلة التضارب الظاهري بين التطور الفني والتطور الاقتصادي، فالتراجيديا اليونانية تغد ذروة للتطور الأدبي، ومع ذلك فقد عاصرت نظاما اجتماعيا وشكلا إيديولوجيا (الأسطورة اليونانية) لم يعد أحد يعترف بهما في المجتمع الحديث. وكانت المشكلة التي واجهها ماركس هي كيفية تفسير أن الفن والأدب الناجحين في تنظيم اجتماعي عفا عليه الزمن منذ عهد بعيد يمكن أن يظلا يمنحانا متعة جمالية، ويظلا في نظريتنا «معيارا ومثلا أعلى يستحيل بلوغه». ويبدو أن ماركس قد اضطر إلى أن يقبل على مضض التسليم بوجود نوع من

الخاصية الكلية و «اللازمية» فى الأدب والفن. وأقول «على مضض» لأن ذلك التسليم كان بمثابة إذعان منه لإحدى فرضيات الإيديولوجيا - البرجوازية، ولكن من الممكن الآن أن ننظر إلى ما فعله ماركس على أنه نوع من التقهقر إلى أساليب التفكير السابقة (الهيكلية) حول الأدب والفن، فلقد أوضحت مناقشتنا لوكاروفسكى فى الفصل السابق ما يمكن النظر إليه الآن بوصفه موقفاً ماركسياً، مؤداه أن قوانين الأدب العظيم تتوالد دائماً من خلال عمليات اجتماعية، فما نصفه بأنه «عظمة» التراخيديا اليونانية ليس حقيقة ثابتة الوجود، بل هو قيمة متغيرة، يعيد كل جيل من الأجيال المتعاقبة إنتاجها بطريقة.

ولكن حتى لو رفضنا المكانة المتميزة للأدب فسوف يبقى أمامنا السؤال: إلى أى مدى يستقل التطور التاريخى للأدب عن التطور التاريخى بوجه عام؟ لقد سلم تروتسكى Trotsky بأن للفن مبادئه وقواعده الخاصة، وذلك فى هجومه على الشكلية الروسية فى كتاب «الأدب والثورة»، فقد اعترف بأن «الإبداع الفنى تغيير وتحويل للواقع وفقاً لقوانين الفن الخاصة»، ولكن تروتسكى ظل يؤكد أن «الواقع» يبقى العامل الحاسم وليست الألعاب الشكلية التى يلهو بها الكتاب. ومنع ذلك، فإن ملاحظات تروتسكى كانت تمهد الطريق لجدل مازال محتدماً فى النقد الماركسى حول الأهمية النسبية للشكل الأدبى والمضمون الإيديولوجى فى الأعمال الأدبية.

الواقعية الاشتراكية السوفيتية :

يتميز النقد الماركسى المكتوب فى الغرب بأنه نقد جرىء متعش فى كثير من الأحيان وذلك فى مقابل الواقعية السوفيتية التى تبدو للقارئ الغربى رثة مسطحة من حيث هى «منهج فنى» رسمى شيوعى،

فالأطروحات التي قدمها اتحاد الكتاب السوفيت (١٩٣٢ — ١٩٣٤) كانت تقنيا لأفكار لينين السابقة على الثورة، ولكن على النحو الذي تم تفسيرها به خلال العشرينيات من هذا القرن. وقد طرحت تلك النظرية الأسئلة الأساسية عن تطور الأدب وما يعكسه من علاقات طبقية فضلا عن وظيفته في المجتمع.

لقد شجعت ثورة ١٩١٧ الشكليين الروس على المضي في تطوير نظرية ثورية عن الفن، كما رأينا، ولكن ظهرت في الوقت نفسه نظرة شيوعية متصلبة، ناصبت الشكلية العداء، ونظرت إلى تراث الواقعية الروسية في القرن التاسع عشر على أنه الأساس الوحيد الذي يصلح لعلم الجمال في المجتمع الشيوعي الجديد، وأخذ النقاد السوفيت ينظرون إلى الثورات التي تدافعت في الفن (التشكيلي) والموسيقى والأدب في أوروبا منذ عام ١٩١٠ على وجه التقريب (أعمال بيكاسو Picasso وسترافنسكي Stravinsky وشوينبرج Schoenberg وت. س. إليوت T.S. Eliot) بوصفها نتاجا متدهورا للمجتمع الرأسمالي المتأخر، يضاف إلى ذلك أن رفض «نزعة الحداثة» للواقعية التقليدية لم يترك إلا «الواقعية الاشتراكية» بوصفها الحارس القويم على علم الجمال البرجوازي! ومن هنا قال الشاعر الدادائي تزارا Tzara - في «صور سافرة» لستوبارد Stoppard - «إن الشيء الغريب في الثورة أنه كلما تطرف بك الموقف السياسي نحو اليسار طولبت بأن يكون فنك أكثر برجوازية». وظل المزيج الجامع بين جماليات القرن التاسع والثورية السياسية هو السمة الأساسية للنظرية السوفيتية.

ولقد نبع مبدأ الولاء للحزب Partinost (الالتزام بقضية حزب الطبقة العاملة) من مقالة لينين عن «تنظيم الحزب وأدب الحزب» (١٩٠٥)، ولكنني أشك في سلامة تفسير مقاصد لينين في هذه المقالة عندما أعلن أن

الكتاب أحرار في كتابة ما يريدون، ولكن عليهم أن لا يتوقعوا من الحزب أن ينشر لهم في مجلاته إلا إذا كانوا ملتزمين بخط الحزب السياسى، فقد كان هذا القول مطلباً معقولاً فى الظروف المضطربة لعام ١٩٠٥، غير أنه اتخذ دلالة استبدادية بعد الثورة، عندما تحكم الحزب فى النشر.

إن خاصية «الشعبية» Narodnost خاصية أساسية مطلوبة فى الجماليات والسياسة معاً، ويحقق العمل الفنى المنتمى إلى أية فترة هذه الخاصية حين يعبر عن مستوى عال من الوعى الاجتماعى بالأوضاع والأحاسيس الاجتماعية السائدة فى عصر معين. وينبغى أيضاً أن يتضمن منظورا «تقديميا» يلمح تطورات المستقبل فى أساليب الحاضر، ويقدم إلى القارئ إحساساً بالإمكانات المثالية للتقدم الاجتماعى من وجهة نظر جماهير الشعب العاملة. وكان ماركس قد ذهب عام ١٨٤٤ — فى «مخطوطات باريس» — إلى أن التقسيم الرأسمالى للعمل قد دمر حقبة سابقة من التاريخ الإنسانى، كانت فيها الحياة الفنية والروحية متكاملة غير منفصلة عن عمليات الوجود المادى، وكان الحرفيون لا يزالون يعملون بإحساس جمالى، فجاء الفصل بين العمل الفكرى والعمل اليدوى ليقضى على الوحدة العضوية للأنشطة الروحية والمادية، ويدفع الجماهير دفعا إلى إنتاج السلع دون متعة الالتزام الخلاق بالعمل. ولم ينبج سوى الفن الشعبى الذى عاش بوصفه فن الجماهير، فى الوقت الذى تحول فيه تذوق الفن الراقى إلى احتراف يسيطر عليه اقتصاد السوق، ويقتصر على قطاع متميز من الطبقة الحاكمة، ويذهب النقاد السوفيت إلى أن الفن «الشعبى» الحق للمجتمعات الاشتراكية سيكون متاحاً للجماهير، وسوف يعينها على استعادة وجودها المتكامل من بعد ضياع.

أما فكرة الطبيعة التطبيقية للفن فهى فكرة معقدة، فهناك إلحاح

مزدوج، فى كتابات ماركس وإنجلز والتراث السوفيتى، على التزام الكاتب أو المصالح الطبقيّة من ناحية، وعلى الواقعيّة الاشتراكية فى عمله من ناحية ثانية، ولا ينظر إلى الطبيعة الطبقيّة للفن على أنها مسألة تتعلق مباشرة بولاء الكاتب صراحة لطبقته إلا فى الأشكال الفجة من الواقعيّة الاشتراكية، فقد امتدح إنجلز مارجريت هاركنيس - فى خطابه لها عام ١٨٨٨ - لأن روايتها «فتاة المدينة» ليست رواية اشتراكية مباشرة. وأوضح ذلك بقوله إن بلزاك، المؤيد الرجعى لأسرة البوربون الملكية، هو الذى صور المجتمع الفرنسى بكل تفاصيله الاقتصادية على نحو أكثر عمقا من «كل المؤرخين والاقتصاديين والأخصائيين المتضلعين فى هذه الفترة مجتمعين»، وكان إحساس بلزاك العميق بانتهاء طبقة النبلاء وصعود البرجوازية دافعا له إلى «أن يمشى فى اتجاه يخالف ميوله الطبقيّة وتحيزاته السياسية»، فالواقعيّة تتجاوز الميول الطبقيّة، وتلك فكرة لم يكن لها تأثير قوى على نظرية الواقعيّة الاشتراكية فحسب بل على النقد الماركسى المتأخر بالمثل.

ومادام الكتاب البرجوازيون لا يُحكم عليهم بناء على أصولهم الطبقيّة أو التزامهم السياسى الصريح، بل بمدى ماتكشف عنه كتاباتهم من إدراك عميق للتطورات الاجتماعية فى عصرهم، فمن الممكن النظر إلى الواقعيّة الاشتراكية نفسها بوصفها استمرارا للواقعيّة البرجوازية وتطويرا لها. وفى هذا الإطار يمكننا أن نفهم على نحو أفضل العداء السوفيتى لروايات نزعة الحداثة، ففي مؤتمر الكتاب السوفيت - عام ١٩٣٤ - كانت ورقة كارل رادك Karl Radeke تطرح الاختيار بين «جيمس جويس أو الواقعيّة الاشتراكية». ووجه رادك هجومه الحاد - خلال النقاش - إلى مندوب شيوعى آخر هو «هرزفيلد» Herzfelde الذى كان قد دافع عن جويس بوصفه كاتباً عظيماً. فقد نظر رادك إلى تقنية جويس التجريبية وإلى

مضمونه «البرجوازي الصغير» على أنهما شيء واحد، ورأى أن انشغال چويس بالحياة الداخلية الخسية لفرد تافه يكشف عن الغياب الكامل لوعيه بالقوى الاجتماعية الأوسع الفاعلة في العصر الحديث، فالعالم كله — عند چويس — ينحصر ما بين خزانة لكتب العصور الوسطى وماخور وحانة. ويتنهي رادك إلى القبول بأنه «لو كان لى أن أكتب روايات، لتعلمت كتابتها من تولستوى وبلزاك، لا من چويس».

هذا الإعجاب بواقعية القرن السابع عشر إعجاب مفهوم، ويرجع إلى أن بلزاك وديكنز وجورج إليوت وستندال وغيرهم قد طوروا إلى أقصى درجة شكلا أدبيا، يستكشف انغماس الفرد في الشبكة الكاملة للعلاقات الاجتماعية. أما كتاب نزع الحداثة فقد تخلوا عن هذا المشروع، وأخذوا يعكسون صورة أكثر تجزئاً للعالم، صورة متشائمة في كثير من الأحيان، ولا يمكن تصور ما هو أبعد من ذلك بالقياس إلى «الرومانسية الثورية» التي نادت بها المدرسة السوفيتية حين أرادت إبراز «صور بطولية». ولذلك، فإن أندريه جدانوف Andrey Zhdanov الذى ألقى الكلمة الرئيسية في مؤتمر عام ١٩٢٤، قد ذكر الكتاب بأن ستالين دعاهم إلى أن يكونوا «مهندسى الروح الإنسانى». وهكذا، أصبحت المطالب السياسية ملحاحة في فرض نفسها على الكتاب، وبعد أن كان إنجلز Engels يشك في قيمة الكتابة المفرطة في الالتزام، أخذ جدانوف يرفض هذا الشك قائلاً: «نعم، الأدب السوفيتى منحاز، لأنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد — في عصور الصراع الطبقي — سوى أدب طبقي وأدب هادف وأدب سياسى».

چورج لوكاش:

ومن الملائم أن نتوقف الآن عند أول ناقد ماركسى بارز؛ وهو چورج لوكاش، لأن عمله لا ينفصل عن الواقعية الاشتراكية الصارمة، قد يقال إن

لو كاش استبق بعض النظريات السوفيتية، ولكنه طور النظرة الواقعية إلى الأذب تطورا ينطوى على قدر كبير من العمق، وكان يميل إلى الجانب الهيجلى من الفكر الماركسى؛ إذ نظر إلى الأعمال بوصفها انعكاسا لنسق يتكشف تدريجيا، وذهب إلى أن العمل الأدبى الواقعى لا بد أن يكشف عن نمط التناقضات الذى يكمن من وراء اجتماعى معين، وظلت نظريته ماركسية فى إلحاحها على الطبيعة المادية والتاريخية لبنية المجتمع.

ويستخدم لو كاش مصطلح «الانعكاس» Reflection استخداما متميزا ١ يبين عن عمله كله، فقد رفض «النزعة الطبيعية» Naturalism العملية التى كانت نزعة جديدة آنذاك فى الرواية الأوروبية، وعاد إلى النظرية الواقعية القديمة التى ترى الرواية انعكاسا للواقع، لا بمعنى أنها تقتصر على وصف المظهر السطحى للواقع، بل بمعنى أنها تقدم انعكاسا أكثر صدقا وحيوية وفعالية للواقع، فالانعكاس معناه «تشكيل بنية ذهنية» تصاغ فى كلمات، وعادة ما يكون لدى الناس انعكاس للواقع، أعنى وعيا لا يقتصر على الموضوعات الخارجية، بل يشمل الطبيعة الإنسانية والعلاقات الاجتماعية، ويقول لو كاش إن الانعكاس يمكن أن يكون عينيا بدرجات متفاوتة، فالرواية يفكر أن تقود القارئ نحو استبصار أكثر عينية بالواقع، يتجاوز الإدراك العادى الشائع للأشياء، فالعمل الأدبى لا يعكس الظواهر الفردية المنعزلة بل يعكس «العملية المتكاملة للحياة»، ومع ذلك يظل القارئ دائما على وعى بأن العمل الأدبى ليس الواقع نفسه، ولكن «شكل خاص من أشكال انعكاسه».

ومعنى ذلك أن الانعكاس «الصحيح» للواقع يتضمن أكثر من مجرد وصف المظاهر الخارجية، فيما يرى لو كاش. وتلك نظرة تلفت انتباهنا بما تنطوى عليه من هدم لأسس النزعة الطبيعية ونزعة الحدائث فى الوقت نفسه،

ذلك لأنه إذا كان لدينا تعاقب من الصور المقدمة بطريقة عشوائية، فمن الممكن تفسيره: إما بوصفه انعكاسا موضوعيا محايدا للواقع (كما أكد زولا وأقطاب النزعة الطبيعية) أو بوصفه انطباعا ذاتيا خالصا عن الواقع (على نحو مايكشف جويس وفرجينيا وولف). فمن الممكن النظر إلى العشوائية على أنها صفة للواقع أو صفة لطريقتنا في إدراكه. وفي كلتا الحالتين، يرفض لوكاش مثل هذا التمثيل «الفوتوغرافي» البحث، ويقدم - بدلا من ذلك - وصفا للعمل الفني الصحيح الذي يمنحنا الإحساس بالضرورة الفنية للصور التي يقدمها. فهذه الصور تتسم «بوحدة شاملة مكثفة» توازي «الوحدة الشاملة الممتدة» للعالم نفسه، فليس الواقع مجرد تدفق أو تصادم آلي للجزئيات، بل إن له «نظام» ينقله الروائي في شكل «مكثف»، والكاتب لا يفرض نظاما على العالم، ولكنه يزود القارئ بصورة لثراء الحياة وتعقدها، صورة ينبثق منها إحساس بالنظام الذي ينطوي عليه تعقد التجربة المعيشة وتعدد جوانبها. ولن يتحقق هذا العمل إلا إذا تحققت للعمل وحدة شكلية كلية تضم جوانب التناقض والتوتر في الوجود الاجتماعي كافة.

والسبب الذي أتاح للوكاش أن يؤكد مبدأ النظام والبنية اللذين ينطوي عليهما العمل الفني، هو أن التراث الماركسي الذي يعتمد عليه استعار من هيجل نظريته «الجدلية» إلى التاريخ، على نحو لم يعد معه التطور التاريخي عشوائيا أو فوضويا، أو مسارا مستقيما يسلك طريقا واحدا، بل تقدما جدليا، فالطراز السائد للإنتاج - في كل تنظيم اجتماعي - يؤدي إلى تناقضات داخلية يعبر عنها الصراع الطبقي. وقد تطوّر نمط الإنتاج الرأسمالي بتدمير النمط الإقطاعي (الحرفي) وأحل محله نمط إنتاج جماعي غير فردي رفع كفاءة الإنتاجية (إنتاج السلع). ولكن في الوقت

الذى أصبح فيه نمط الإنتاج جماعيا فإن ملكية أدوات الإنتاج قد أصبحت فردية، وفقد العمال أموالهم وأدواتهم التى كانوا يملكونها من قبل، ولم يعد لديهم — فى النهاية — شئ يبيعونه سوى عملهم. هذا التناقض الكامن يعبر عنه تضارب المصالح بين الرأسمالى والعامل. ومع ذلك، فإن التراكم الفردى لرأس المال كان الأساس فى عمل المصنع. ومن ثم فإن التناقض (فردية الملكية/ جماعية نمط الإنتاج) هو الوحدة الضرورية الملازمة لطبيعة نمط الإنتاج الرأسمالى، والحل «الجدلى» للتناقض متضمن دائما فى التناقض نفسه: فإذا أراد الناس استعادة السيطرة على قوة العمل وجب تحويل ملكية وسائل الإنتاج إلى ملكية جماعية. هذا الشرح الموجز مقصود به إظهار الكيفية التى تشكلت بها نظرة لوكاش إلى الواقعية من خلال ميراث الماركسية فى القرن التاسع عشر.

ويهذب لوكاش المعتقدات النظرية التقليدية للواقعية الاشتراكية ويوسع آفاقها فى سلسلة من الكتب الرائعة، مثل «الرواية التاريخية» (١٩٣٧) و«دراسات فى الواقعية الأوروبية» (١٩٥٠)، ومع ذلك فإنه، فى كتابه «معنى الواقعية المعاصرة» (١٩٥٧)، يمضى خطوات أبعد فى الهجوم الشيوعى على نزعة الحداثة. ويقدر مايرفض أن ينكر على جويس مكانته بوصفه فنانا أصيلا، فإنه يطلب منا أن نرفض نظراته إلى التاريخ، خصوصا الطريقة التى تنعكس بها نظرة جويس «الساكنة» للأحداث فى بنية ملحمة هى نفسها ساكنة فى الأساس. ويرى لوكاش أن هذا الفشل فى إدراك الوجود الإنسانى من حيث هو جزء من مناخ تاريخى متحرك هو الداء المتفشى فى نزعة الحداثة المعاصرة كلها، كما تتجلى فى أعمال كتاب مثل كافكا وبيكيت وفوكنر وأشباههم، فهؤلاء الأدباء شغلوا أنفسهم بالتجريب

الشكلي، أى بالمونتاج والتكنولوجيا الداخلى وتقنية «تيار الوعى» واستخدام
الريبورتاج واليوميات، إلى آخر كل ألوان البراعة الفنية الشكلية التى كانت
نتيجة اهتمام ضيق بالانطباعات الذاتية؛ اهتمام ناتج - بدوره - عن النزعة
الفردية المفرطة للرأسمالية المتأخرة، وبدل أن يقدم هؤلاء الأدباء واقعية
موضوعية فإنهم قدموا رؤية قلقة عصابية عن العالم، واختزلوا اكتمال
التاريخ وعملياته فى تاريخ داخلى مقبض لوجود عبثى. وفى ذلك كله
إجذاب للإحساس بالواقع، يتضاد مع النظرة الحيوية التطورية إلى المجتمع،
تلك النظرة التى كانت موجودة فى القرن التاسع عشر عند رواد الواقعية
الاشتراكية، ممن يحققون مايسميه «بالواقعية النقدية».

ويرى لوكاش أن أديب نزعة الحداثة، يعزله الفرد عن العالم الخارجى
للواقع الموضوعى، يضطر إلى أن يرى الحياة الداخلية للشخصيات بوصفها
صيورة متقلبة لاتقبل التفسير، تتخذ - بدورها - فى النهاية طابع الخاصية
اللازمية الثابتة. ومن الواضح أن لوكاش لم يستطع تقبل فكرة أن بعض
أدباء الحداثة يحققون نوعا خاصا من الواقعية أو على الأقل يطورون أشكالا
أدبية وتقنيات جديدة تتجاوب مع الواقع الحديث، من خلال تعبيرهم عن
الوجود المغترب والمجذب للذات الإنسانية الحديثة. لقد ألح على الطبيعة
الرجعية لإيديولوجيا الحداثة، ورفض الاعتراف بالإمكانات الأدبية للمكتابة
الحداثية، أى أن اعتقاده بأن «مضمون» نزعة الحداثة رجعى، قد أدى به إلى
رفض شكلها بدوره. وهكذا فإنه، خلال إقامته القصيرة فى برلين فى أوائل
الثلاثينيات، أخذ يهاجم استخدام تقنيات المونتاج والريبورتاج، التى ظهر
فيها اتجاه نزعة الحداثة، فى أعمال رفاقه الراديكاليين، ومنهم الكاتب
المسرحى اللامع برتولت برخت.

برتولت برخت:

كانت مسرحيات برخت الأولى راديكالية، فوضوية، معادية للبرجوازية، غير أنها لم تكن معادية للرأسمالية. ولكن التمرد العنيف لمرحلة الشباب تحول إلى التزام سياسى واسع، بعد قراءته ماركس حوالى غام ١٩٢٦، ذلك على الرغم من أن برخت ظل مستقلا دائما ولم يكن رجل حزب قط. وحوالى عام ١٩٣٠ كان يكتب مايسمى بالمسرحيات التعليمية Lehrstucke وهى مسرحيات كان يكتبها لإرشاد جمهور الطبقة العاملة، ولكنه اضطر إلى ترك ألمانيا مع سيطرة النازية عام ١٩٣٣. وكتب مسرحياته الأساسية فى المنفى، خصوصا الدول الاسكندنافية، ثم الولايات المتحدة الأمريكية التى واجه فيها لجنة ماكارثى للنشاط المعادى لأمريكا، واستقر أخيرا فى ألمانيا الشرقية عام ١٩٤٩، حيث لم تخل حياته من المشاكل مع السلطات الستالينية التى كانت تحكم ألمانيا الديمقراطية والتى نظرت إليه بوصفه محلا للشك من ناحية وثروة وطنية من ناحية ثانية.

ومن المؤكد أن معارضته للواقعية الاشتراكية قد أزعجت المسؤولين فى ألمانيا الشرقية، كما أفاد فى أشهر وسائله المسرحية - أثر التغريب - من مفهوم نزع الألفة عند الشكليين الروس، وسخر مما تتضمنه الواقعية الاشتراكية من تشجيع للوهم الواقعى والوحدة الشكلية والأبطال «الإيجابيين». وأطلق على نظريته الخاصة فى الواقعية اسم «اللاأرسطية»، وهى طريقة مستترة لمهاجمة نظرية خصومه، فقد أكد أرسطو شمولية الفعل التراجيدى ووحده، كما أكد الاتحاد الوجدانى للمشاهد مع البطل فى تعاطف ينتج «تطهير» الانفعالات. أما برخت فقد رفض تقاليد المسرح «الأرسطى» برمته، وأكد ضرورة تخلى الكاتب المسرحى عن الحبكة المصقولة المتلاحمة، وأن يتجنب إثارة أى إحساس بالحتمية أو الشمول، لأن حقائق الظلم الاجتماعى تستلزم تقديمها بطريقة تبدو معها هذه الحقائق

غير طبيعية على الإطلاق ومثيرة للدهشة التامة، فما أسهل النظر إلى «ثمن الخبز والبطالة وإعلان الحرب بوصفها ظواهر للطبيعة كالزلازل أو الفيضانات».

ولا بد من تخطيط الإيهام بالواقع عن طريق استخدام أثر التغريب، وذلك لتجنب هدهدة المشاهد بحيث يقع في حالة من حالات القبول السلبي. أما الممثلون فمن الضروري أن لا تستغرقهم الأدوار التي يؤدونها، أو يسعوا إلى تشجيع التقمص الوجداني لدى المشاهد المتعاطف. إن عليهم تقديم الدور إلى المشاهد بوصفه دورا يمكن تعرفه، ويكون في الوقت ذاته غير مألوف بحيث يتسنى تشجيع عملية الوعي النقدي للمشاهد. ويجب فهم موقف الشخصيات وانفعالاتها ومعضلاتها من خارجها، وتقديمها على أنها غريبة وإشكالية. ولا يعنى ذلك أن على الممثلين تجنب استخدام الانفعال، بل عليهم اللجوء إلى الاتحاد الوجداني، ويتحقق ذلك عن طريق «تعرية الأداة» إذا استخدمنا هذا المصطلح المتسمى إلى المدرسة الشكلية، ولا شك أن استخدام الإيماءة سبيل مهم للتعبير خارجيا عن انفعالات الشخصية، ولكن الإيماءة - أو الفعل - لا بد من دراستهما والتدرب عليهما بوصفهما وسيلة إلى توصيل المعنى الاجتماعي المحدد للدور بطريقة واضحة. ويمكن للمرء أن يقابل مقابلة التضاد بين هذا المنهج البرختي و«منهج التمثيل» عند ستانيسلافسكى الذى يشجع الاتحاد الوجداني الكامل بين الممثل والدور، حيث يحل الارتجال بدل الإعداد الدقيق، لخلق الإحساس بالعفوية والتفرد. ولكن هذا التركيز على الحياة الداخلية للشخصية يؤدي إلى تبخر المعنى الاجتماعي من المنظور البرختي، فإيماءات مارلون براندو وجيمس دين - على سبيل المثال - إيماءات شخصية شديدة الخصوصية، في مقابل الممثل البرختي الذى يؤدي دوره

(كما يفعل بيتزلور Peter Lorre وشارلس لوتن Charles Laughton على سبيل المثال) بطريقة أشبه بطريقة المهرج أو المقلد الإيمائي الذي يقوم بإيماءات بيانية تشير أكثر مما تكشف. ومهما يكن من أمر، فإن مسرحيات برخت لا تشجع عبادة الشخصية، فأبطالها عاديون خشنون لا يلينون أمام ضمائرهم في الغالب، كالأم شجاعة وأزدك Asdak وشفيك Swiek، هذه الشخصيات التي يرسمها برخت رسما جريئا على لوحة «ملحمية»، وعلى نحو تغدو معه الشخصيات كائنات اجتماعية ديناميكية بشكل لافت، ولكن دون حياة داخلية يتم التركيز عليها.

وقد رفض برخت نوع الوحدة الذي أثار إعجاب لوكاش. أولا: لأن مسرحه الملحمي لا يشبه المسرح التراجيدي الأرسطي، فهو مسرح يقوم على أحداث لا يوجد بينها إلا ترابط فضفاض من النوع الذي يوجد في مسرحيات شكسبير التاريخية وروايات الشطار (البيكارسك) التي تنتمي إلى القرن الثامن عشر، وفي مسرحه هذا لا توجد قيود مصطنعة للزمان والمكان أو حيكات «محكمات»، ولقد أفاد برخت من الفنون المعاصرة، خصوصا السينما في أعمال شارلي شابلن وبستر كيتون Buster Keaton وإيزنشتين Eisenstein ورواية الحداثة (عند جويس Joyce ودروس باسوس Dos Passos).

وثانيا: لأن برخت آمن بعدم وجود نموذج للشكل الجيد يظل صالحا إلى مالا نهاية، فليس هناك «قوانين جمالية أبدية فيما يقول، إذ ينبغي على الكاتب، لكي يسيطر على القوة الحية للواقع، أن يكون مستعدا للإفادة من كل وسيلة شكلية ممكنة، جديدة أو قديمة. ولذلك اتخذ برخت من الواقعية الاشتراكية موقفا واضحا كل الوضوح: «يجب أن نأخذ حذرنا فلا نعزو الواقعية إلى شكل تاريخي بعينه؛ لرواية تنتمي إلى حقبة بعينها، كرواية بلزاك أو تولستوى على سبيل المثال، لكي نصوغ معايير شكلية وأدبية خالصة

«للا واقعية». ونظر برخت إلى رغبة لوكاش فى إضفاء القداسة على شكل أدبى بعينه بوصفه النموذج الوحيد الصحيح للا واقعية على أنها نوع خطر من النزعة الشكلية. ولقد كان برخت خليقا بأن يكون أول من يقر بأن مفهومه عن «الأثر التجريبي» يغدو مفهوما بلا فاعلية أو تأثير، لو أصبح صيغة نهائية للا واقعية، لأننا لن نغدو واقعيين بمجرد أن نحاكى مناهج غيرنا من الواقعيين. ذلك لأن:

«المناهج تبلى. والمثيرات تفشل، وتظهر مشكلات جديدة تستلزم تقنيات جديدة. ومادام الواقع يتغير فإن تصوره يقتضى ضرورة تغيير الوسائل التى نصوره بها».

هذه الملاحظات تعبر تعبيرا واضحا عن موقف برخت التجريبي المتحرر إزاء النظرية. ولكن ليس هناك شئ «ليبرالى» البتة فى رفض برخت للجمود والتزمت، ذلك لأن الدافع الذى كان يحركه فى بحثه الذى لا يهدأ عن طرائق جديدة لإيقاظ المشاهدين من سلبيتهم الراضية ونقلهم إلى حالة الالتزام الإيجابى، هو الالتزام السياسى العميق بضرورة تعرية كل قناع جديد يرتديه النظام الرأسمالى الذى لا يكف عن المراوغة.

مدرسة فرانكفورت وبنيامين:

إذا كان برخت ولوكاش قد تمسكا بنظرتين معارضتين إلى الواقعية، فإن مدرسة فرانكفورت فى علم الجمال الماركسى قد رفضت الواقعية بأسرها. وقد اقترنت هذه المدرسة «بمعهد فرانكفورت للبحث الاجتماعى» الذى مارس ما أطلق عليه اسم «النظرية النقدية»، وهى شكل أرحب من التحليل الاجتماعى، يتضمن عناصر ماركسية وفرويدية، وكان أبرز

شخصيات هذه المدرسة فى الفلسفة وعلم الجمال هم ماكس هوركهايمر Max Horkheimer وتيودور أدورنو Theodor Adorno وهربرت ماركوز Herbert Marcuse. وقد أغلق معهد البحث الاجتماعى عام ١٩٣٣ وانتقل إلى نيويورك التى استقر فيها إلى أن عاد إلى فرانكفورت عام ١٩٥٠، بإشراف أدورنو وهوركهايمر. وقد نظر أعضاء هذه المدرسة إلى النسق الاجتماعى من منظور هيكلى، بوصفه وحدة شاملة ينعكس جوهرها الواحد فى كل جوانبها المختلفة. وكان تحليلهم للثقافة الحديثة متأثرا بتجربة الفاشية التى هيمنت تماما على كل مستويات الوجود الاجتماعى فى ألمانيا، وبما لاحظوه فى أمريكا من سيطرة خاصة «البعد الواحد» على ثقافة الجماهير وتغلغل النزعة التجارية فى كل جوانب الحياة.

ويحتل الفن والأدب مكانة متميزة فى النظرية الاجتماعية لمدرسة فرانكفورت، ذلك لأن الفن والأدب هما المجال الوحيد الذى يمكن فيه مقاومة هيمنة المجتمع الشمولى. ويرفض أدورنو نظرة لو كاش إلى الواقعية مؤكدا أن الأدب لا يتصل اتصالا مباشرا بالواقع على نحو ما يفعل العقل، فتباعد الفن عن الواقع هو الذى يكسبه قوته ودلالته الخاصة. وإذا كانت كتابات الحدائث بوجه خاص تتباعد عن الواقع الذى تشير إليه، فإن هذا التباعد هو ما يمنح هذه الكتابات قوتها فى نقد الواقع. وعلى حين أن أشكال الفن الجماهيرى مضطرة إلى التوافق مع النسق الاقتصادى الذى يشكلها، فإن الأعمال الطليعية تتميز بقدرتها على «نقى» الواقع الذى تشير إليه. ولقد هاجم لو كاش الأعمال التى أنتجها أدباء الحدائث لأنها تعكس الحياة الداخلية المغترية للأفراد، ورأى فيها تجسيدا «متدهورا» للمجتمع الرأسمالى المتأخر، ودليلا على عجز كتابها عن تجاوز العوالم الجزئية المفتتة

التي يضطرون إلى العيش فيها. أما أدورنو فيذهب إلى أن الفن لا يمكن أن يكون انعكاسا للنسق الاجتماعي، بل يؤدي دوره داخل هذا النسق بوصفه مشيراً ينتج نوعاً غير مباشر من المعرفة، فالفن «هو المعرفة النافية للعالم الفعلي». ويحقق الفن هذا الدور - في رأيه - بكتابة نصوص تجريبية «صعبة» وليس بكتابة أعمال نقدية أو خلافية. ويذهب هوركهايمر إلى أن الجماهير ترفض أدب الطليعة لأنه يعكس من صفو إذعانها الغافل، الآلى، لوضع الاستغلال الذي يمارسه عليها النسق الاجتماعي، «فالعمل الفني، إذ يتيح للبشر المسحوقين صدمة الوعي بوضعهم اليائس، ينادي بتلك الحرية التي تجعلهم يستشيطنون غضباً».

وليس الشكل الأدبي مجرد انعكاس موحد ومكثف للشكل السائد في المجتمع، على نحو ما كان يذهب لوكاش، وإنما هو وسيلة خاصة لتجاوز الواقع، وللحيلولة دون عودة الاستبصارات الجديدة إلى الاندماج بسهولة في القوالب المألوفة المستهلكة. وما يقوم به كتاب الحداثة هو تمزيق صورة الحياة الحديثة وتفتيتها بدلاً من السيطرة على آلياتها اللاإنسانية. ولكن لوكاش لا يستطيع إلا أن يرى أعراض التدهور في هذا النوع من الفن، دون أن يدرك قوته على الكشف، فاستخدام مارسيل بروست للمونولوج الداخلي لا يعكس نزعة فردية مغترية فحسب بل ينفذ - في الوقت نفسه - إلى «حقيقة» عن المجتمع الحديث (هي اغتراب الفرد)، ويساعدنا على رؤية الاغتراب بوصفه جزءاً من واقع اجتماعي موضوعي، ويتوقف أدورنو عند الطرائق التي يستخدم بها صموئيل بيكيت الشكل ليصور خواء الثقافة الحديثة، وليكشف لنا عن أننا - رغم كوارث تاريخ القرن العشرين وانحلاله - نصرّ على التصرف كما لو كان شيئاً لم يتغير، فنحن نلح على إيماننا الأحق

بالمسلمات القديمة عن وحدة الفرد وجوهريته أو وجود معنى فى اللغة. ولذلك تقدم مسرحية بيكيت شخصيات لا تملك إلا القشور الجوفاء للفردية، والقوالب المفتتة للغة. ومن هنا، فإن الانقطاعات اللامعقولة فى الخطاب والتشخيص المختزل والافتقار إلى الحكمة - كل ذلك يسهم فى تحقيق التأثير الجمالى المؤدى إلى تباعد الواقع الذى تشير إليه المسرحية، وبذلك تقدم إلينا معرفة «نافية» للوجود الحديث.

لقد اعتقد ماركس أنه انتزع «النواة العقلانية» من «القوقعة الصوفية» للجدل الهيكلى، مبقيا على المنهج الجدلى فى فهم العمليات الفعلية للتاريخ الإنسانى. أما جهد مدرسة فرانكفورت فينطوى على الكثير من الدقة والعمق الهيكلين الأصليين فى الفكر الجدلى. ويمكن تلخيص معنى الجدل فى التراث الهيكلى بأنه «التطور - النمر الذى ينشأ عن حل التناقضات الكامنة فى جانب بعينه من الواقع». وكتاب أدورنو عن «فلسفة الموسيقى الحديثة» - على سبيل المثال - يقدم عرضا جدليا للموسيقار شونبرج، فالثورة «اللانغمية» لهذا الموسيقار نشأت فى سياق تاريخى، يؤدى فيه الاصطباغ المفرط للثقافة بالصنفة التجارية إلى القضاء على قدرة المستمع على تقدير الوحدة الشكلية للعمل الكلاسى، ولذا فإن الاستغلال التجارى للتقنيات الفنية للسينما والإعلانات والموسيقى الجماهيرية.. إلخ، تدفع المؤلف الموسيقى إلى إنتاج موسيقى مبعثرة مجزأة تنكر للقواعد الأساسية للغة الموسيقية (النغمية) نفسها، فأصبح كل صوت فردى مفصولا عن غيره، لا يكتسب معنى من السياق المحيط به. ويصف أدورنو مضمون هذه الموسيقى «اللانغمية» بلغة التحليل النفسى، فالتنغمات المعزولة بقسوة تعبر عن النزوات الجسدية الصادرة عن اللاوعى، ويرتبط الشكل الجديد

بافتقاد الفرد التحكم الواعى فى المجتمع الحديث، وتروغ موسيقى شونبرج من الرقيب، أعنى من العقل، إذ تسمح بالتعبير عن البواعث اللاواعية العنيفة. ومع ذلك، فإن هذه «اللانغمية الجذرية» تنطوى ضمناً على بذور تطور جديد هو «السلم الاثنى عشرى النغمات»، كما يوضح التلخيص الممتاز الذى قدمه جيمسون، ذلك لأنه مهما كانت قوة النزوع إلى الحرية التامة لدى الموسيقار اللانغمى، فإنه يظل يؤلف موسيقاه فى عالم من النغمية الراسخة، ولا بد له من أن يكون حذراً فى تعامله مع الماضى، فلا بد له - على سبيل المثال - من أن يتجنب ذلك النوع من التآلف أو التجمع النغمى الذى يمكن أن يوقظ عادات الاستماع القديمة، وأن يعيد تنظيم موسيقاه بحيث تقوم على الأصوات المتنافرة أو النشاز. ولكن هذا الخطر ذاته يكفى لكى يبعث فى قلب اللانغمية المبدأ الأول لقانون أو نظام جديد، ذلك لأن تحريم الحذر من الوقوع بالصدفة فى التوافقات النغمية المتآلفة يلزم عنه ضرورة أن يتجنب الموسيقار أى تكرار مبالغ فيه لأية نغمة فردية، مخافة أن يؤدي هذا التكرار فى النهاية إلى قيام نوع جديد من المركز النغمى بالنسبة إلى الأذن. ومن هنا لم يكن يلزم إلا طرح مشكلة تجنب هذا التكرار بطريقة أكثر شكلية، لكى يلوح النظام الاثنا عشرى «النغمة» بأسره فى الأفق.

ويكتمل الجدل عندما يرتبط هذا النسق بالتنظيم الشمولى الجديد للإمبريالية الرأسمالية المتأخرة، حيث يضيع الاستقلال الذاتى للفرد فى النسق الهائل موحد الاتجاه لنظام السوق، مما يعنى القول بأن هذه الموسيقى هى تمرد على مجتمع البعد الواحد، وهى فى الوقت ذاته عرض من أعراض الضياع المحتوم للحرية.

ولا يمكن أن نترك مدرسة فرانكفورت دون أن تعرض لثالث بنيامين Walter Benjamin الذى ارتبط بأدورنو لفترة قصيرة مما يبرر إدراجه فى هذا

السياق، رغم أن الماركسية الخاصة به ماركسية شخصية إلى حد بعيد. ففى أشهر مقالاته، وهى «الفن فى عصر الاستنساخ الآلى»، نراه ينظر إلى الثقافة الحديثة نظرة مناقضة لنظرة أدورنو، فيذهب إلى أن الاختراعات التقنية الحديثة (السينما والإذاعة والأسطوانات) قد أسهمت بعمق فى تغيير مكانة «العمل الفنى». ففىما مضى كان للعمل الفنى «هالة» تنبع من تفرد، حين كانت الأعمال الفنية وقفا على الصفوة المتميزة من البرجوازية. وكان ذلك يصدق بوجه خاص على الفنون البصرية، وإن ظلت هذه «الهالة» ملازمة للأدب بدوره. ولكن وسائط الاتصال الحديثة قضت قضاء تاماً على هذا الشعور شبه المقدس بالفنون، وتركت أعمق الأثر على موقف الفنان من الإنتاج، ذلك لأن «استنساخ» الأعمال الفنية (بأدوات التصوير وأجهزة الإرسال الإذاعى وغيرها) كان يعنى - على نحو متزايد - أن هذه الأعمال قد صممت بالفعل لكى تكون قابلة للاستنساخ. وإذا كان أدورنو قد رأى فى ذلك انتقاصاً من قدر الفن نتيجة معاملته معاملة السلعة التجارية، فإن بنيامين يذهب إلى أن وسائل الاتصال الحديثة قد قامت بفصل الفن - نهائياً - عن مجال «الطقوس المقدسة»، وفتحت أبوابه على السياسة. ورغم أنه ليس لدينا ما يثبت تماماً صواب أحد الرأيين، فإن رأى أدورنو يبدو أقرب إلى التنبؤ الصادق.

إن التكنولوجيا الجديدة (الفيلم والمطبعة وما أشبه) يمكن أن يكون لها تأثيرها الثورى على الفن. ولكن بنيامين كان يعلم أنه ليس هناك ما يضمن ذلك، فأكد ضرورة أن يتحول الفنانون والكتاب الاشتراكيون إلى منتجين فى مجالهم الفنى الخاص لكى ينتزعوا أنفسهم من قبضة البرجوازية. ولقد كانت أفكار بنيامين عن طبيعة الفن فى ذاته قريبة من

أفكار برخت، بل إنه صاغ أوضح هذه الأفكار وفي ذهنه مسرحيات برخت على وجه التحديد. فقد رفض الفكرة التي تقول إن الفن الثوري يتحقق بالتركيز على الموضوع المناسب، ولم يشغل نفسه بوضع العمل الفني داخل العلاقات الاجتماعية الاقتصادية لعصره، بل طرح السؤال البديل: «ما وظيفة العمل الفني داخل علاقات الإنتاج الأدبي لعصره؟». وهو سؤال يؤكد حاجة الفنان إلى توير القوى الفنية للإنتاج في عصره، وتلك مسألة تتعلق بالتقنية في المقام الأول. غير أن التقنية الصحيحة تنشأ استجابة لوضع تاريخي معقد ترابط فيه مجموعة من التغيرات الاجتماعية والتقنية. فمدينة باريس في عهد الإمبراطورية الثانية - بضخامتها وضياح الهوية فيها - هي موضوع كتابات بودلير وإدجار آلان بو، ومن هنا كانت إبداعاتهما التقنية استجابة مباشرة لأوضاع الحياة في المدينة، بما فيها من تفتت وتدمير للطابع الاجتماعي، ولقد كان المضمون الاجتماعي الأصيل للقصة البوليسية هو طمس آثار الفرد في زحمة المدينة الكبيرة. لذلك كتب بنيامين عن إحدى قصائد بودلير قائلاً: «إن الشكل الداخلي لهذه الأبيات يتكشف في كوننا لانعرف الحب ذاته فيها إلا موسوما بميسم المدينة الكبيرة».

الماركسية البنيوية:

سادت البنيوية الحياة الثقافية الأوروبية في الستينيات، ولم يفلت النقد الماركسي من التأثير بهذا المناخ الثقافي. وساعد على ذلك أن البنيوية تشارك الماركسية التسليم بأن الأفراد لا يمكن فهمهم بمعزل عن وجودهم الاجتماعي، فالماركسيون يؤمنون أن الأفراد «حاملون» لأوضاع في النسق الاجتماعي وليسوا فاعلين أحراراً، والبنيويون يؤمنون بأن الأفعال والأقوال الفردية لا تكتسب معناها إلا من الأنساق الدالة التي تتجها. ولكن البنيويين

ينظرون إلى هذه الأبنية الشاملة على أنها أنساق لازمانية منتظمة ذاتيا، في حين أن الماركسيين ينظرون إليها على أنها أنساق تاريخية متغيرة مشحونة بالتناقضات.

وقد رفض الناقد الرومانى لوسيان جولدمان^(١) Lucien Goldmann الفكرة التى ترى فى النصوص الأدبية إبداعات لعبقرية فردية. وذهب إلى أن هذه النصوص تقوم على «أبنية عقلية تتجاوز الفرد» وتنتمى إلى جماعات (أو طبقات) محددة. هذه الأبنية العقلية (رؤى العالم) تبنىها الجماعات الاجتماعية وتهدمها بلا انقطاع، خلال عملية التعديل التى تدخلها على صورتها العقلية للعالم، استجابة للواقع المتغير من حولها. وتظل هذه الصور مفتقرة إلى التحديد والتحقق الكاملين فى وعى الجماعة أو الطبقة الاجتماعية إلى أن يظهر الكتاب العظام القادرون على بلورتها فى «رؤية للعالم» محددة متلاحمة الشكل.

ويكشف كتاب جولدمان الشهير «الإله الخفى» عن وجود علاقات تصل بين تراجمديات راسين وفلسفة باسكال والحركة الدينية الفرنسية المسماة بالجنسينية Jansenism والمجموعة الاجتماعية المسماة بـ«نبلاء الرداء» Noblesse de la Robe، فنظرة الحركة الجنسينية إلى العالم مأساوية، إذ إن الإنسان، كما تراه، منقسم بين عالم آثم لا أمل منه وإله غائب عن

(١) يطلق على مذهب جولدمان اسم «البنوية التوليدية» تمييزا لها عن البنوية اللغوية أو الشكلية التى سيأتى ذكرها فى الفصل القادم. والبنوية التوليدية منهج جدلى فى دراسة الظواهر الثقافية، يقوم على أن أى تأمل فى العلوم الإنسانية لابد أن ينطلق من داخل المجتمع، وأن هذا التأمل يغير الحياة الاجتماعية بما يحزره من تقدم فى علاقته الجدلية بها، وأن الظواهر الثقافية أبنية تتولد عن أبنية أوسع. ومن أهم الكتب التى صدرت عن هذا المنهج باللغة العربية، كتاب جمال شحيد، بعنوان «فى البنوية التركيبية» عن دار ابن رشد، بيروت ١٩٨٢.

هذا العالم: إله تخلى عن العالم ولكنه ظل يفرض سلطته المطلقة على الإنسان المؤمن به، الذى لا يجد أمامه من سبيل سوى الغوص فى قرارة العزلة المأسوية. وتعتبر بنية العلاقات الكامنة من وراء تراجميات راسين عن هذا المأزق الجنسيني^(٢) - الذى يرتبط - بدوره - بانهيـار «نبالة الرداء»، أى طبقة موظفى البلاط الذين تزايد إحساسهم بالعزلة وضيق القوة بتزايد تخلى الملكية المطلقة عن دعمها المالى لهم. قد يبدو المحتوى «الظاهر» للتراجيديات الراسينية بعيد الصلة عن النظرة الجنسينية إلى العالم. ولكنه على مستوى البنية الأعمق يشترك معها فى الشكل نفسه، حيث «البطل التراجيـدى - المتباعد عن الإله والعالم فى آن - وحيد وحدة مطلقة». لقد آمن جولدمان بأن اكتشافه «التمائلات» البنيوية (المشابهات على مستوى الشكل) بين عناصر متباينة من النظام الاجتماعى هو الذى يميز الجانب الماركسي من نظريته الاجتماعية، ويميز النظرية فى الوقت نفسه عن مقابلها البرجوازي الذى أسرف فى تقسيم الوحدة الشاملة للممارسات الاجتماعية إلى مجالات للتطور، ينطوى كل منها على ذاته، ويمكن التعامل معه وحده. وفى ذلك كان جولدمان استمرارا للماركسية الهيجلية عند لوكاش.

أما أعمال جولدمان اللاحقة، خصوصا «نحو علم اجتماع للرواية» (١٩٦٤) فتبدو أقرب إلى مدرسة فرانكفورت، من حيث التركيز على

(٢) الجنسينية مذهب دينى خاص باتباع جنسين (١٥٨٥ - ١٦٣٨) أسقف (إيريس) الذى آمن بالجبر وأنكر الإرادة الحرة للإنسان وقد تأثر الفيلسوف باسكال (١٦٢٢ - ١٦٦٢) بهذا المذهب وصار مشايعا له. وقد وجد جولدمان صلة بين أفكار باسكال ورؤية العالم التى ينطوى عليها هذا المذهب من ناحية، ورؤية العالم التى تنطوى عليها مآسى جان راسين (١٦٣٩ - ١٦٩٩) من ناحية ثانية، التى تجد أساسها الاجتماعى فى نبلاء الرداء من ناحية ثالثة. وذلك هو موضوع كتاب «الإله الخفى».

«التماثل» بين بنية الرواية الحديثة وبنية اقتصاد السوق، فهو يذهب إلى أن التحول من العصر «البطولي» للرأسمالية الليبرالية إلى المرحلة الإمبريالية كان قد وطد أقدامه بحلول عام ١٩١٠ على وجه التقريب، وأن هذا التحول قد ترتب عليه اختزال أهمية الفرد في الحياة الاقتصادية إلى أبعد حد. وأخيراً، أدى تنظيم الأنساق الاقتصادية وإدارتها بواسطة الدولة والشركات، في فترة ما بعد ١٩٤٥، إلى اكتمال نمو هذه النزعة التي تطلق عليها الماركسية اسم «التشيؤ». (الذي يشير إلى انحصار القيمة في قيمة السلعة وحدها، وسيطرة عالم الأشياء على العالم الإنساني). وبعد أن لم تكن للموضوعات دلالة - في الرواية الكلاسيكية - إلا من حيث علاقتها بالأفراد، أخذ عالم الموضوعات يحل محل الفرد في روايات سارتر وكافكا وروب جرييه. هذه المرحلة الأخيرة من كتابات جولدمان اعتمدت على نموذج مبسط نوعاً من «البنية الفوقية» - «الأساس». وهو نموذج تصور معه جولدمان أن «البنية الأدبية» تناظر البنية الاقتصادية بطريقة بسيطة مباشرة، وبهذا يتجنب هذا النموذج التشاؤم القائم لمدرسة فرانكفورت، وإن كان يفتقر إلى استبصاراتها الجدلية العميقة.

ولقد ترك الفيلسوف الفرنسي الماركسي لوى ألتوسير - Louis Althusser - تأثيراً بارزاً في النظرية الأدبية الماركسية، خصوصاً في فرنسا وبريطانيا، وذلك بإنجازه الفكري الذي يرتبط ارتباطاً واضحاً بالبنوية وما بعد البنوية. ويرفض ألتوسير بحركة الإحياء الهيجلي داخل الفلسفة الماركسية، مؤكداً أن الإسهام الحقيقي لماركس في المعرفة يتبع من «انقطاعه» عن هيجل. ويرفض ألتوسير تصور الوحدة الشاملة عند هيجل، هذا التصور الذي يجعل ماهية الكل تعبر عن نفسها في جميع أجزائه. وهو يتجنب استخدام مصطلحات من مثل «النسق الاجتماعي» و«النظام» لأنها توحي ببنية ذات مركز يحدد

شكل كل تجلياتها، ويؤثر الحديث عن «التشكل الاجتماعي» الذي يراه بنية بلا مركز. هذه البنية هي نقيض الكائن الحي؛ إذ لا تتضمن مبدأ يحكمها، أو بذرة مولدة لها، أو وحدة كلية. وتترتب على هذه النظرية نتائج لافتة للانتباه، فالعناصر المتباينة (أو «المستويات») داخل التشكل الاجتماعي لا يعالجها التوسير بوصفها انعكاسا لمستوى أساسي واحد (هو المستوى الاقتصادي عند الماركسيين)، بل إن لكل مستوى من المستويات «استقلاله الذاتي النسبي» الذي لا يتحدد بالمستوى الاقتصادي إلا في التحليل الأخير فحسب (وتلك صيغة مركبة مستمدة من إنجلز). ومعنى ذلك أن التشكل الاجتماعي بنية تتضمن مستويات متباينة تدخل في علاقات معقدة من التناقض الداخلي والصراع المتبادل. هذه البنية التي تقوم على المتناقضات يمكن أن يهيمن عليها في أية مرحلة من مراحلها مستوى من مستوياتها، ولكن تحديد المستوى المهيمن يتوقف، في نهاية المطاف، على المستوى الاقتصادي. ففي التشكلات الاجتماعية الإقطاعية، على سبيل المثال، يغدو الدين مهيمنًا من الناحية البنيوية، ولكن ذلك لا يعني أن الدين هو جوهر البنية أو مركزها، فدوره القائد - نفسه - يحدده المستوى الاقتصادي ولكن بطريقة غير مباشرة.

وبالمثل، تتباعد آراء التوسير في الأدب والفن تباعدا ملحوظا عن الموقف الماركسي التقليدي، فهو يرفض معالجة الفن بوصفه شكلا من أشكال الإيديولوجيا، ويضع الفن - في ما كتبه بعنوان «رسالة في الفن»^(٣) - في مكان يتوسط ما بين الإيديولوجيا والمعرفة العلمية، فالعمل الأدبي العظيم لا يزودنا بفهم ذهني عن الواقع، ولكنه في الوقت ذاته ليس مجرد تعبير عن إيديولوجية طبقة من الطبقات. ويستخدم التوسير الفكرة التي

(٣) هناك ترجمة عربية وتقديم لهذه الرسالة من إميلاد فريال غزول، في العدد العاشر من مجلة «ألف» (١٩٩٠) بعنوان «توسير والتوسير: رسالتان في معرفة الفن».

طرحها إنجلز في حديثه عن بلزاك ليؤكد أن الفن «يجعلنا نرى» من بعيد «الإيديولوجيا التي يولد منها، والتي ينعكس فيها، والتي ينفصل عنها بوصفه فنا، والتي يلصق إليها». ويعرف التوسير الإيديولوجيا بأنها «تصوير العلاقة الخيالية التي تربط الأفراد بالأوضاع الفعلية لوجودهم». فالوعى الخيالي يساعدها على أن تضيء على العالم معنى، ولكنه يحجب علاقتنا الفعلية ويكبتها. ، فإيديولوجيا «الحرية» - على سبيل المثال تشجع الإيمان بحرية كل البشر بما فيهم العمال، ولكنها تحجب علاقتهم الفعلية بالاقتصاد الرأسمالي الليبرالي. وهكذا، فإن الطبقات المستغلة (بفتح الغين)، تقبل النسق المهيمن للإيديولوجيا بوصفه الوضع الطبيعي للأمور، مما يؤدي إلى تأمين مصالح الطبقة المستغلة (بكسر الغين). أما الفن فإنه يحقق نوعا من «التراجع» (التباعد الخيالي) عن الإيديولوجيا نفسها التي تغذيه، مما يجعل العمل الأدبي العظيم قادرا على تجاوز إيديولوجيا الكاتب الذي كتبه.

ولكتاب بيير ماشرى Pierre Macherey «نظرية في الإنتاج الأدبي» (١٩٦٦) أثره في مناقشة التوسير للفن والإيديولوجيا، فالكتاب يبدأ بتبني نموذج ماركسي واضح في الكتابة، وبدل أن يعالج النص على أنه «خلق» أو كيان مصنوع مكتف بذاته، ينظر إلى النص بوصفه «إنتاجا» يستخدم عددا من المواد المنفصلة التي تتغير في عملية الاستخدام. وليست المواد المستخدمة في هذه العملية «أدوات حرة» تستخدم بوعى لخلق نص محكم موحد، فالنص - في عمله على المواد المعطاة سلفا - «لا يعي أبدا مايفعل»، بل إن له «لاوعيا» خاصا به - إن جاز القول. وعندما تدخل إلى النص هذه الحالة من الوعى التي نسميها الإيديولوجيا، فإنها تتخذ شكلا مختلفا، ذلك لأن الإيديولوجيا تعيش في الظروف العادية كما لو كانت شيئا طبيعيا

تماماً، وكما لو كان خطابها الخيالي السلس يزودنا بتفسير محكم موحد للواقع. ولكنها بمجرد أن تتحول إلى نص فإن كل ثغراتها وتناقضاتها تتعري وتتكشف. ورغم أن الكاتب الواقعي يقصد إلى توحيد كل العناصر في النص، فإن مايجرى في العملية النصية يفضى بالضرورة إلى ثغرات وانقطاعات تناظر عدم اتساق الخطاب الإيديولوجي الذي تستخدمه. ذلك لأنك «إذا أردت أن تقول شيئاً فلا بد من أن تصمت عن أشياء غيره». وليست مهمة الناقد الأدبي إظهار الكيفية التي تتماسك بها كل أجزاء العمل، أو إحداث التناغم الذي يخفى أى تناقض واضح في النص، بل إن مهمته أشبه بمهمة المحلل النفسي، إذ إن عليه أن يركز اهتمامه على «الاشعور» النص - أى على ما لا يقال وما هو مكبوت بالضرورة.

كيف يتناول هذا المدخل الأعمال الأدبية؟ تأمل رواية ديفو Defoe «مول فلاندرز» - على سبيل المثال - ستجد أن الإيديولوجيا البرجوازية في أوائل القرن الثامن عشر كانت تحاول تخفيف التناقض بين المتطلبات الأخلاقية والمتطلبات الاقتصادية، أعنى بين نظرة تؤمن بأثر العناية الإلهية في الحياة الإنسانية، وتفضل الثواب الآجل على الربح العاجل؛ ونظرة أخرى تقوم على النزعة الفردية الاقتصادية، وتفرغ العلاقات الإنسانية من كل قيمة لها، لتصبح القيمة خالصة للسلعة وحدها. هذا الخطاب الإيديولوجي يتكشف عن تناقضه الحاد عندما يخضع للممارسة الأدبية التي تنتج «مول فلاندرز». فحين يطبق الشكل الأدبي على الإيديولوجيا، يكشف بوضوح عن عدم الاتساق هذا، بل إن الاستخدام الأدبي لبطل الرواية «مول» بوصفها «راوية» يتضمن منظورا مزدوجا، ذلك لأن مول تروى قصتها بنظرة متطلعة إلى المستقبل ومستعيدة الماضي في آن: فهي مشاركة في الأحداث،

استطابت حياة الأثرة بوصفها لصة وعاهرة. وهي أيضا واعظة تروى حكاية حياتها الآثمة لتكون عبرة للآخرين. ويمتزج كلا الجانبين امتزاجا رمزيا في واقعة المضاربة المالية الناجحة التي خاضتها مول في فرجينيا، حيث أقامت مشروعها التجارى على الربح الحرام الذى ظلت تحتفظ به وهي سجينة في سجن نيوجيت. هذا النجاح الاقتصادى هو أيضا مكافأة مول على توبتها عن حياتها الآثمة. وهكذا، «يجمد» الشكل الأدبى الخطاب السىال للإيديولوجيا، ويرز النص جوانب التصدع والتناقض فى الإيديولوجيا التى يستخدمها بما يمنحه لها من كيان شكلى. ولا يقصد الكاتب قصدا واهيا إلى هذا الأثر، لأن الأثر نفسه ينتج «لا شعوريا»، إذا جاز القول، بواسطة النص.

وقد تبنى ماشرى - فى الآونة الأخيرة - اتجاهها يركز بصورة متزايدة على علم الاجتماع، وأخذ يبدى مزيدا من الاهتمام بالنظام التعليمى بوصفه المصدر الرئيسى للقيمة الأدبية، ولم يعد يؤمن بالمكانة المتميزة التى نسبها جولدمان وألتوسير إلى الأدب والفن.

التطورات الأخيرة: إيجلتون وچيمسون:

غلب الميراث الهيكلى لمدرسة فرانكفورت على النظرة الماركسية فى الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك بسبب المناخ الإيديولوجى العدائى الذى لم يكن يسمح بالوجود إلا للكتابات الفلسفية المخففة لمفكرين من أمثال أدورنو وهوركهايمر (وكانت مجلة Telos - أو «الغاية» - هى الأئموذج الذى حمل لواء هذا الميراث). أما فى إنجلترا، فقد ازدهر النقد الأدبى الماركسى (بعد انحداره المتلاحق منذ الثلاثينيات فى هذا القرن) بسبب

«اضطرابات» ١٩٦٨ وماتبعها من تدفق الأفكار الوافدة من أقطار القارة الأوروبية (وكانت مجلة اليسار الجديد The New Left Review قناة مهمة لتدفق هذه الأفكار). ونتيجة ذلك ظهر فى كل من إنجلترا والولايات المتحدة منظر يارز، تأثر بالأوضاع السائدة فى كلا البلدين. ففى أمريكا ظهر فريدريك جيمستون Fredric Jameson بكتابه «الماركسية والشكل» (١٩٧١) و«سجن اللغة» (١٩٧٢)، وهما كتابان يكشفان عن قدرات جدلية جديدة بفيلسوف ماركسى هيجلى، أما فى إنجلترا فقد برز تيرى إيجلتون Terry Eagleton بكتابه: «النقد والإيديولوجيا»^(٤) (١٩٧٦)، وهو كتاب يتبنى أفكار التيار الماركسى المضاد للنزعة الهيجلية (عند التوسير وماشرى)، وي طرح نقدا عميقا لتراث النقد الإنجليزى، وفى الوقت نفسه تقييما جذريا جديدا لتطور الرواية الإنجليزية. وقد أصدر جيمستون منذ سنوات قليلة كتابه «اللاوعى السياسى» (١٩٨١)، كما أصدر إيجلتون - فى العام نفسه - كتابه «قالت بنيامين أو نحو نقد ثورى»، وكلا الكتابين يستجيب بطريقة خلاقة لتحدى حركة ما بعد البنيوية، ويكشف عن مرونة ملحوظة واستعداد لتعديل مواقفهما السابقة.

ويبدأ إيجلتون كتابه «النقد والإيديولوجيا» بتقصى الأثر الذى خلفه كل من ف. ر. ليفز F.R. Leavis وريموند وليامز Raymond Williams فى كيان النقد الأدبى الإنجليزى. أما وليامز، الذى هو بلا جدال أكثر النقاد الماركسيين تنوعا فى مواهبه، فإنه لم يعلن انتماءه الماركسى إلا فى المرحلة

(٤) قام مترجم هذا الكتاب بتقديم ترجمة لكتاب إيجلتون «الماركسية والنقد الأدبى»، وقد صدرت فى العدد الخاص بالأدب والإيديولوجيا. مجلة «فصول» ١٩٨٥، وصدرت كتابا عن منشورات عيون، الدار البيضاء ١٩٨٦. وهو مدخل جيد إلى النقد الماركسى الذى عالجه المؤلف فى هذا الفصل معالجة متسعة، وربما كان ذلك بسبب طبيعة كتابه التعليمى بوصفه دليلا للقارئ.

الأخيرة من عمله فحسب. وقد حاولت كتبه الأولى - خصوصا «الثقافة والمجتمع من ١٧٨٠ إلى ١٩٥٠» (١٩٥٨) و«الثورة الطويلة» (١٩٦١) - دراسة الأبعاد الاشتراكية الإنسانية الكامنة فى الارتباطات السابقة بالمجتمع الصناعى. وتقسيم الأدب والنقد الاجتماعى السابق من منظور التجربة الخاصة بوليامز نفسه بوصفه ابنا لعامل من عمال السكك الحديدية فى ويلز. وكان وليامز يؤمن - آنذاك - بأن صيغة ماركس عن العلاقة بين البنية الفوقية والأساس هى صيغة مجردة أضيق من أن تتسع للنسيج المتشابك لما أسماه «التجربة الحية». ويواجه إيجلتون هذا المنظور مستعينا بأفكار التوسير المعادية للزعة «التجريبية» (أى التعويل على التجربة المباشرة وحدها) ليؤكد فشل وليامز فى القيام بعملية «انقطاع» حقيقية فى النظرية الماركسية، وذلك لما تنطوى عليه أفكاره الرئيسية عن «الطريق الشامل فى الحياة» و«بنية الشعور» من عجز عن التمييز النظرى بين التجربة الذاتية والظروف الاجتماعية الموضوعية لهذه التجربة.

ويذهب إيجلتون إلى ماذهب إليه التوسير من أن النقد لا بد له من أن ينقطع عن «المرحلة الإيديولوجية التى تمثل ما قبل تاريخه» ويصبح «علما». ولكن المشكلة الأساسية هى تحديد العلاقة بين الأدب والإيديولوجيا، ذلك لأن النصوص الأدبية لا تعكس الواقع التاريخى، فيما يرى إيجلتون، بل تمارس عملها على الإيديولوجيا لتتج أثرا بهذا الواقع. قد يبدو النص حرا فى علاقته بالواقع (فيخترع شخصيات ومواقف على هواه) ولكنه لا يتمتع بهذه الحرية فيما يتصل باستخدامه للإيديولوجيا. ولا تشير الإيديولوجيا - فى هذا السياق - إلى النظريات السياسية الواعية، بل إلى كل الأنساق الذهنية (الجمالية والدينية والتشريعية، وغيرها) التى تتشكل منها الصورة

العقلية للتجربة الحية عند الفرد. ويعنى ذلك أن المعانى والإدراكات التى ينتجها النص الأدبى هى إعادة صنع لما صنعتها الإيديولوجيا بالواقع، مما يعنى أن النص يمارس عمله وهو متباعد تباعدا مزدوجا عن الواقع. ويمضى إيجلتون فى تعميق أطروحته بدراسة الطبقات المركبة للإيديولوجيا، ابتداء من أكثر أشكالها السابقة على النص عمومية وانتهاء بإيديولوجيا النص نفسه. ويقدر ما يرفض فكرة التوسير التى ترى أن الأدب يستطيع أن يتباعد عن الإيديولوجيا، فإنه يؤكد أن الأدب إعادة صنع معقدة للخطابات الإيديولوجية الموجودة بالفعل. ومع ذلك، فإن الناتج الأدبى ليس مجرد انعكاس لخطابات إيديولوجية أخرى سابقة عليه، بل هو إنتاج متميز للإيديولوجيا. ولهذا السبب، لا يهتم النقد بقوانين الشكل الأدبى وحدها أو بالنظرية الإيديولوجية، بل يهتم بما يسميه إيجلتون «قوانين إنتاج الخطابات الإيديولوجية من حيث هى أدب».

ويدرس إيجلتون مسار الرواية الإنجليزية من جورج إليوت إلى د. ه. لورنس ليوضح العلاقات المتبادلة بين الإيديولوجيا والشكل الأدبى؛ فيرى أن الإيديولوجيا البرجوازية فى القرن التاسع عشر مزجت نزعة نفعية جذباء بسلسلة من المفاهيم ذات الصبغة «العضوية» عن المجتمع (مأخوذة أساسا من التراث الرومانسى الإنسانى)؛ فمع ازدياد الطابع الجماعى فى رأسمالية العصر الفيكتورى، شعرت بالحاجة إلى أن تدعم موقفها بما فى هذا التراث من نزعة عضوية جمالية واجتماعية متعاطفة. ويقوم إيجلتون بدراسة للموقف الإيديولوجى لكل كاتب، ويحلل التناقضات التى تنمو فى تفكيرهم وما حاولوه من تقديم حلول لهذه التناقضات فى كتاباتهم، فيذهب إلى أن د. ه. لورنس - على سبيل المثال - تأثر بالنزعة الإنسانية

للرومانسية في إيمانه بأن الرواية تعكس التدفق الرحب للحياة، وإيمانه بأن المجتمع بدوره هو، من الوجهة المثالية، نظام عضوي في مقابل المجتمع الرأسمالي المغترب لإنجلترا الحديثة. ولكن بعد انهيار النزعة الإنسانية الليبرالية في الحرب العالمية الأولى ابتدع لورنس نموذجا ثنائيا لمبدأي «الذكورة» و«الأنوثة». وقد نما هذا التضاد (بين الذكورة والأنوثة) وعدل في المراحل المتباينة من روايات لورنس، إلى أن انحل أخيرا في تصويره شخصية ميللورز (عشيق الليدي تشاترلي) الذي جمع بين قوة «الذكر» والأشخصية ورقة «الأنثى». هذا الجمع بين النقيضين، الذي يتخذ أشكالا.

ولقد أحدثت أفكار مابعد البنيوية تغيرا جذريا فيما كتبه إيجلتون منذ نهاية السبعينيات، فقد انصرف عن الاتجاه «العلمي» لألتوسير إلى الفكر الثوري عند برنخت وبنيامين، مما أدى به إلى العودة إلى النظرية الثورية الماركسية القديمة في كتاب «أطروحات عن فويرباخ» (١٨٤٥)؛ حيث يقول ماركس: «إن السؤال عما إذا كان من الممكن أن تتسبب الحقيقة الموضوعية إلى التفكير الإنساني ليس سؤالا نظريا بل سؤال عملي.... فالفلاسفة لم يفعلوا حتى الآن شيئا سوى تفسير العالم بطرائق متعددة، ولكن المهم تغيير العالم».

ورغم أن إيجلتون يؤمن بأن نظريات «التفكيك» deconstructive theories التي طورها ديريدا Derrida وبول دي مان Paul de Man وغيرهما (انظر الفصل الرابع) يمكن استخدامها لتقويض كل المسلمات والأشكال الثابتة المطلقة للمعرفة، فإنه ينتقد ما تنطوي عليه نظريات «التفكيك» من نزوع برحوازي صغير إلى إنكار الموضوعية والمصالح المادية (خصوصا المصالح الطبقية). هذا الموقف المتناقض يمكن تفسيره إذا لاحظنا أن إيجلتون قد

أصبح يتبنى مفهوم لينين - وليس التوسير - عن النظرية. هذا المفهوم الذى يذهب إلى أن النظرية الصحيحة «لاتأخذ شكلها النهائى» إلا فى علاقة وثيقة بالنشاط العملى لجماهير حقيقية وحركة ثورية فعلية. وهذا يعنى أن المهام المطروحة على النقد الماركسى تنطلق الآن من السياسة. لا من الفلسفة: فعلى الناقد أن يهمل الأفكار الموروثة عن الأدب، ويكشف عن دورها الإيديولوجى فى تشكيل ذاتية القراء. ومن الضرورى لهذا الناقد - بوصفه اشتراكيا - «أن يوضح تلك الأعمال البلاغية التى تحدث بها الأعمال غير الاشتراكية آثارا غير مرغوب فيها سياسيا»، و«أن يفسر مثل هذه الأعمال، فى الحالات الممكنة، تفسيرا مضادا لاتجاهها الأصلى، بحيث تغدو هذه الأعمال فى خدمة الاشتراكية».

والكتاب البارز لإيجلتون فى هذه المرحلة هو «فالتر بنيامين أو نحو نقد ثورى» (١٩٨١)، حيث يقرأ إيجلتون الصوفية المادية الشاذة لبنيامين قراءة مضادة لاتجاهها ليستخلص منها نقدا ثوريا. ذلك لأن نظرة بنيامين إلى التاريخ تنطوى على انتزاع عنيف لمعنى تاريخى من ماض تهادده وتحجبه دائما ذاكرة رجعية قمعية وحين تأتى اللحظة الملائمة (سياسيا)، يمكن الإمساك بصوت من أصوات الماضى، وتوجيه هذا الصوت لأداء مقصده «الصحيح»، وهذا ماتصنعه مسرحيات برخت التى أعجب بها بنيامين، والتى تعيد فى أحيان كثيرة قراءة التاريخ «قراءة مضادة» لاتجاهه، فتقضى بذلك على الروايات الصارمة وتفتح بوابة الماضى لكى يعاد نقشها من جديد. ومن أمثلة ذلك ما فعله برخت بمسرحية كوريلانولس التى كتبها شكسبير و «أوبرا الشحاذ» التى كتبها جاي Gay، حيث أعاد كتابة كل من العاملين للكشف عن معانيهما الاشتراكية الكامنة. (وقد ألح برخت إلحاحا لافتا

على ضرورة أن نتجاوز مجرد الاتحاد مع «بطل» مسرحية شكسبير المهتم بمصالحه الذاتية، وأن لانمنح تقديرنا لمأساة كوريلايوس وحدها بل لمأساة «العامة على وجه التخصيص».

ويستحسن إيجلتون النظرة الراديكالية العملية لبرخت إلى معنى الأعمال الأدبية، خصوصا حين يقول: «إن العمل يمكن أن يكون واقعا في شهر يونيو وغير واقعي في شهر ديسمبر». ويشير إيجلتون على نحو متكرر إلى كتاب يرى أندرسون Perry Anderson «ملاحظات على الماركسية الغربية» (١٩٧٦) الذي يوضح كيف تنعكس الحالة التي يمر بها صراع الطبقة العاملة دائما على تطور النظرية الماركسية. فهو يرى - على سبيل المثال - أن النقد شديد السلبية الذي وجهته إلى الثقافة الحديثة كان في البداية رد فعل على الهيمنة الفاشية على أوروبا، ثم على الهيمنة الرأسمالية المنتشرة في الولايات المتحدة بعد ذلك، ولكن هذا النقد السلبي كان في الوقت نفسه نتيجة لانفصال المدرسة نظريا وعمليا عن حركة الطبقة العاملة. ولكن مايجعل «النقد الثوري» الذي يطرحه إيجلتون نقدا «حديثا» هو قدرته التكتيكية على عرض النظريات الفرويدية عند لا كان La-can وفلسفة «التفكيك» القوية عند جاك ديريدا (انظر الفصل الرابع).

أما في أمريكا، حيث دب الفساد جزئيا في الحركة العمالية، وأصبحت مستبعدة تماما من السلطة السياسية، فإن ظهور منظر ماركسي بارز يعد حدثا مهما. ومن جهة أخرى، إذا وضعنا في اعتبارنا رأى إيجلتون في مدرسة فرانكفورت، من حيث علاقتها بالمجتمع الأمريكي، لاتضح لنا دلالة التأثير العميق الذي مارسه هذه المدرسة على فردريك جيمسون. ففي كتاب «الماركسية والشكل» (١٩٧١) يستكشف جيمسون الجانب الجدلي في النظريات الماركسية للأدب، وبعد مجموعة من الدراسات الممتازة (عن

أدورنو ونيامين وماركوز وبلوخ ولوكاش وسارتر)، يطرح الكتاب تخطيطا لما
أسماء جيمسون «بالنقد الجدلي».

يؤمن جيمسون بأن النوع الوحيد من الماركسية الذى يمكن أن يكون
له تأثير على الموقف فى العالم بعد الصناعى للرأسمالية الاحتكارية هو تلك
الماركسية التى تستكشف المحاور الكبرى لفلسفة هيجل، أى العلاقة بين
الجزء والكل، والتضاد بين العينى والمجرد، ومفهوم الوحدة الشاملة، وجدل
المظهر والجوهر، والتفاعل بين الذات والموضوع، فليس هناك - من منظور
الفكر الجدلي - «موضوعات» ثابتة غير متغيرة، بل إن الموضوع الواحد
يرتبط ارتباطا لا ينفصم بكل أكبر منه، ويرتبط - فى الوقت نفسه - بعقل
مفكر هو بدوره جزء من موقف تاريخى. ومعنى ذلك أن النقد الجدلي
لا يعزل الأعمال الفردية الأدبية ليحللها، لأن الفرد دائما جزء من بنية أكبر
(تقاليد أو حركة) أو جزء من موقف تاريخى. وليس لدى الناقد الجدلي
مقولات جاهزة سلفا للتطبيق على الأدب؛ إذ تؤكد فكرته عن «المؤلف
المضمرة». وذلك الدفاع يعكس حينا إلى زمن كانت فيه الطبقة الوسطى
تتمتع بمزيد من الاستقرار فى نسق طبقي منتظم. أما النقد الجدلي
الماركسى، فإنه يميز دائما الأصول التاريخية لمفاهيمه الخاصة دون أن
يسمح قط لهذه المفاهيم أن تتحجر أو تمتنع عن الاستجابة لضغط الواقع.
وإذا كنا لانستطيع أبدا تجاوز وجودنا الذاتى فى الزمن، فإننا نستطيع كسر
القشرة الصلدة لأفكارنا، والانتقال إلى «إدراك أكثر حيوية للواقع نفسه».

إن النقد الجدلي يسمى إلى تعرية الشكل الداخلى لنوع أدبى أو
مجموعة من النصوص. ويعمل منطلقا من سطح العمل إلى داخله، حيث
المستوى الذى يتصل فيه الشكل الأدبى اتصالا عميقا بالعينى الملموس.
ويتوقف جيمسون عند هيمنجواى متخذا منه نموذجا، فيرى أن «مقولة

التجربة المهيمنة، في رواياته هي عملية الكتابة نفسها. لقد اكتشف هيمنجواي أنه يستطيع إنتاج نوع بعينه من الجملة العارية التي تؤدي شيئين على السواء: تسجيل الحركة في الطبيعة (الأشياء) والإيحاء بتوتر السخط بين الناس. وترتبط مهارة الكتابة التي يكتسبها، على المستوى الذهني، بمهارات إنسانية أخرى يتم التعبير عنها من حيث علاقتها بالعالم الطبيعي (خصوصا الرياضة الدموية)^(٥). وتعكس عبادة هيمنجواي للفحولة -Machis-mo^(٦) المثل الأمريكي الأعلى للمهارة التقنية، ولكنها ترفض أوضاع الاغتراب في المجتمع الصناعي بما تقوم به من تحويل المهارة الإنسانية إلى مجال من مجالات القراع. ولما كانت جمل هيمنجواي العارية (من الزخارف اللفظية) لا تستطيع أن تنفذ إلى النسيج المعقد للمجتمع الأمريكي، فإن رواياته تتجه إلى الواقع الضامر للثقافات الأجنبية، حيث يبرز الأفراد مرتبططين «بنظافة الأشياء»، ومن ثم يمكن أن تحتويهم جمل هيمنجواي. وبهذه الطريقة، يوضح جيمسون كيف ينغمس الشكل الأدبي انغماسا عميقا في واقع عيني ملموس.

أما في كتابه «اللاوعي السياسي» (١٩٨١) فإنه يحافظ على المفهوم الجدلي السابق للنظرية. ولكنه يتسع بالمفهوم ليستوعب تيارات فكرية متصارعة (البنوية، وما بعد البنوية، وفرويد، وألتوسير، وأدورنو) في مركب synthesis يدعو إلى الإعجاب، ويظل ماركسيا بصورة لا تخطئها العين ويذهب جيمسون إلى أن الوضع المتجزئ المفترق للمجتمع الإنساني يدل ضمنا على وضع أصلي من الشيوعية البدائية، كانت فيها الحياة متكاملة

(٥) كالصيد ومصارعة الثيران وما أشبه ذلك.

(٦) الفحولة. والكلمة إسبانية من أصل لاتيني Masculus. شاعت للدلالة على الذكورة الحيوانية.

مع الإدراك فى مركب «جمعى»، ولكن الحواس الإنسانية نفسها أوجدت مجالات منفصلة من التخصص، عندما عانت الإنسانية نوعا من السقوط شبيها بالسقوط الذى تحدث عنه وليم بليك، فأخذ الرسام يعالج الإبصار على أنه حاسة متخصصة، وأصبحت لوحاته عرضا من أعراض الاغتراب، وفى الوقت نفسه، تعويضاً عن فقدان عالم الاكتمال الأسمى، إذ تضيف لوحاته لونا على عالم لا لون له.

إن كل الإيديولوجيات هى «استراتيجيات كبت» تسمح للمجتمع بأن يفسر نفسه تفسيراً يكبت التناقضات الكامنة فى التاريخ، والتاريخ نفسه (الواقع القاسى الصارم للضرورة الاقتصادية) هو الذى يفرض استراتيجية الكبت هذه. والنصوص الأدبية تعمل بالطريقة نفسها، فالحلول التى تقدمها هى مجرد أعراض للقمع الذى يمارسه التاريخ. وهنا، يستخدم جيمسون استخداماً ذكياً نظرية أ. جريماس A.J. Greimas «البنوية عن المستطيل السيميوطيقى» Semiotic Rectangle بوصفها أداة تحليل تعينه فيما يريد فتحلز الاستراتيجيات النصية للكبت أنماطاً شكلية. ويقدم نسق جريماس البنىوى قائمة كاملة بالعلاقات الإنسانية الممكنة (جنسية وتشريعية.. إلخ) تتيح للمحلل - عند تطبيقها على استراتيجيات النص - اكتشاف الإمكانيات التى «لاتقال»؛ هذه الإمكانيات التى لاتقال هى التاريخ المكبوت.

ويطور جيمسون فكرة قوية أخرى عن القص والتفسير، فيرى. أن القص ليس مجرد شكل أو طراز أدبى، وإنما «مقولة معرفية» أساسية، لأن الواقع لا يتجلى للعقل الإنسانى إلا فى شكل قصصى، وحتى النظرية العملية نفسها هى شكل من أشكال القصة. أضف إلى ذلك أن كل القصص يتطلب تفسيراً، وهنا، يرد جيمسون على الحجة الشائعة لدى حركة «ما بعد البنىوية»، والمضادة للتفسير «القوى». ذلك لأن ديلوز Deleuze وجوتارى

Guattari (في «نقيض أوديب» The Anti-Oedipus)^(٧) يهاجمان كل ألوان التفسير «المتجاوز للنص»، متقبلين فحسب التفسير «المحايت»^(٨) السدى يتجنب فرض «معنى» قوى على النص، بحجة أن التفسير المتجاوز يحاول السيطرة على النص إلى الدرجة التي تفقده تعقده الأصلي، ولكن جيمسون يتخذ من «النقد الجديد» مثالا تطبيقيا، فيثبت أن النقد الجديد (الذي يؤكد أصحابه صراحة أنه نقد محايت) هو - في حقيقة الأمر - نقد متعال، لأن قاعدته الأساسية هي النزعة الإنسانية. ولكن جيمسون ينتهي إلى أن كل

(٧) لا يفهم هذا المصطلح إلا بفهم المعنى المعاصر للعملية الأوديية oedipization في التحليل النفسي عند لاكان، حيث يشير إلى العملية النفسية التي تتحل بها عقدة أوديب، حيث يكتب الطفل القدرة على استخدام الرموز مع هيمنة اللغة التي تمثل المجتمع عليه، وإذعانه إلى أنظمتها التي هي أنظمة المجتمع وقيوده، وذلك على نحو تغدو معه هذه العملية تنبئة اجتماعية يندمج بها الطفل في نظام اجتماعي متدرج، يقع فيه «اسم الأب» موقع السلطة العليا أو رمزا لها. هذه العملية يمكن النظر إليها بوصفها نواة أولى، أو بنية، تتكرر في عمليات الكبت السياسي والاجتماعي، حيث تمارس ديكتاتورية الرموز عملها. ولا يمكن تحرير الفرد من أسر هذه الديكتاتورية إلا بتدمير هذه العملية التي ينصاع فيها الابن إلى الأب، ويتم ذلك بتأكيد نموذج مناقض لأوديب أو نقيض أوديب، الذي يستبقى العقيدة الأولى للمرحلة قبل الأوديية، ويدمر سجن أوديب الغارق في برودة النسق. وتلك هي الفكرة الأساسية التي يقوم عليها كتاب «نقيض أوديب: الرأس مالية والفصام» الذي أحدث ضجة عند صدوره عام ١٩٧٢ في باريس، بعد أن كتبه جيل ديلاز (فيلسوف) وفيلكس جوتاري (محلل نفسي) نتيجة تأثرهما بأحداث ثورة الطلاب في فرنسا (مايو - يونيو ١٩٦٨) وتمردهما على أستاذهما لاكان الذي يمثل «اسم الأب» وتوجههما إلى دراسة «الكلام» والرغبة في الثورة.

(٨) من المحايثة immanence بمعنى الاهتمام بالشيء «من حيث» هو ذاته وفي ذاته، فالتفسير المحايث هو التفسير الذي ينظر إلى الأشياء في ذاتها، ومن حيث هي موضوعات تحكمها قوانين تتبع من داخلها وليس خارجها.

تفسير هو بالضرورة متجاوز وإيديولوجي، فنحن لانستطيع - آخر الأمر - إلا أن نستخدم المفاهيم الإيديولوجية بوصفها وسيلة لتجاوز الإيديولوجيات.

أما فكرة «اللاوعي السياسي» - فتستعير من فرويد مفهومه الأساسي عن «الكبت»، ولكنها ترفعه من المستوى الفردي إلى المستوى الجمعي، فتغدو وظيفة الإيديولوجيا هي «كبت» الثورة. ويضيف جيمسون أن «اللاوعي السياسي» لا يحتاج إليه من يمارسون الكبت وحدهم بل يحتاج إليه - بالمثل - من يقع عليهم الكبت، أولئك الذين يجدون أن وجودهم لا يحتمل لو لم يتم كبت الثورة. وإذا أردنا تحليل رواية - من هذا المنظور - فإننا نحتاج إلى إيجاد علة غائبة (هي اللاثورة). ويقترح جيمسون منهجا يقوم على ثلاثة آفاق (مستوى للتحليل المحايث، يستند إلى جريمان على سبيل المثال، ومستوى لتحليل الخطاب الاجتماعي، ومستوى حقيقي للقراءة التاريخية). ويرتكز المستوى الثالث للقراءة (أو الأفق) على المراجعة المعقدة التي قام بها جيمسون لمفهوم النماذج الماركسية للمجتمع. وبوجه عام، فهو يقبل فكرة التوسير عن الوحدة الاجتماعية الشاملة من حيث هي «بنية بلا مركز» تنمو فيها مستويات متباينة، بطريقة تنطوي على «استقلال ذاتي نسبي»، وتمارس عملها من مستويات زمنية مختلفة (تعايش المستويين الزمنيين للإقطاع والرأسمالية على سبيل المثال). هذه البنية المعقدة التي تجمع بين أنماط الإنتاج المتصارعة والمتنافرة هي التاريخ متغاير الخواص الذي ينعكس في نصوص متغايرة الخواص. وهنا، يرد جيمسون على أفكار «مابعد البنيويين» الذين يطلون التمايز بين النص والواقع بمعالجتهم الواقع نفسه على أنه نص أكبر فحسب، فيوضح أن التغاير النصي لا يمكن فهمه إلا بقدر ما يرتبط بتغاير اجتماعي وثقافي «خارج» النص. وبذلك يحتفظ جيمسون بمكان للتحليل الماركسي.

أشرنا في سياق هذا الفصل إلى الماركسية «البنوية» وذلك من منطلق أن الكتابات الاقتصادية لكارل ماركس كانت هي ذاتها تعد من الكتابات البنوية أساساً. ولكن من المهم - قبل أن تنتقل إلى البنوية نفسها - تأكيد أن أوجه الخلاف بين النظريات الماركسية والنظريات البنوية الخالصة أكبر بكثير من أوجه الشبه، فالأساس النهائي للنظريات، عند الماركسية، هو الوجود المادي التاريخي للمجتمعات الإنسانية، أما عند البنوية فإن الأساس الوطيد هو طبيعة اللغة. وإذا كانت النظريات الماركسية تدور حول التغيرات التاريخية وأوجه الصراع التي تنشأ في المجتمع، وتظهر بشكل غير مباشر في شكل أدبي، فإن البنوية تدرس التفاعل الداخلي لأنساق منفصلة عن وجودها التاريخي.

Jameson, Fredric,

Marxism and Form (Princeton University Press, Princeton 1971).

Jameson, Fredric (ed.),

Aesthetics and Politics (New Left Books, London, 1997).

Jameson, Fredric,

The political Unconscious: Narrative as a Socially Symbolic Act (Cornell University Press, Ithaca, 1981).

Lukács, Georg,

The Historical Novel (Merlin Press, London, 1962).

Lukács, Georg,

The Meaning of Contemporary Realism (Merlin Press, London, 1963).

Lukács, Georg,

Writer and Critic and Other Essays (Merlin Press, London, 1970).

Lukács, Georg

Studies in European Realism (Merlin Press, London, 1972).

Macherey, Pierre,

A Theory of Literary Production, trans. G. Wall (Routledge & Kegan Paul, London, Henley and Boston, 1978).

قراءات مختارة
نصوص أساسية

Adorno, Theodor W.,
Prisms (Neville Spearman, London, 1967).

Adorno, Theodor W., and Horkheimer, Max.
Dialectic of Enlightenment (Allen Lane, London, 1972).

Baxandall, Lee, and Morawski, Stefan,
Art (International General, N.Y., 1973).

Benjamin, Walter,
Illuminations (Schocken, New York. Cape, London, 1970).

Benjamin, Walter,
Charles Baudelaire: A Lyric Poet in the Era of High Capitalism, trans. H. Zohn (New Left Books, London, 1973).

Benjamin, Walter,
Understanding Brecht, trans. A. Bostock (New Left Books, Craig, David (ed.)
Marxists on Literature (Harmondsworth, Penguin, 1975).

Eagleton, Terry,
Criticism and Ideology (New Left Books, London, 1976).

Eagleton, Terry,
Walter Benjamin or Towards a Revolutionary Criticism (New Left Books, London, 1981).

Goldmann, Lucien,
The Hidden God (Routledge & Kegan Paul, London, 1964).

Laing, Dave,

The Marxist Theory of Art: An Introductory Survey (Harvester Press, Hassocks, Sussex, 1978).

Lifshitz, Mikhail,

The Philosophy of Art of Karl Marx, trans. R.B. Winn (Pluto Press, London, 1973; Russian edn, 1933).

قراءات إضافية

James, C.Vaughan,

Soviet Socialist Realism: Origins and Theory (Macmillan, London and Basingstoke, 1973).

Jay, Martin,

The Dialectical Imagination: A History of the Frankfurt School (Heinemann, London, 1973).

Slaughter, Cliff,

Marxism, Ideology and Literature (Macmillan, London and Basingstoke, 1980).

Williams, Raymond,

Marxism and Literature (Oxford University Press, Oxford, 1977).

Wolff, Janet,

The Social Production of Art (Macmillan, London and Basingstoke, 1981).

Marcuse, Herbert,

One-Dimensional Man (Beacon, Boston; Sphere, London, 1964).

Sartre, Jean-Paul,

What is Literature? (Philosophical Library, New York, 1949).

Willett, John (ed.),

Brecht on theatre (Methuen, London, 1964).

Williams, Raymond,

Problems in Materialism and Culture (New Left Books, London, 1980).

مقدمات

Arvon, Henri,

Marxist Aesthetics, trans. H. Lane (Cornell University Press, Ithaca and London, 1973).

Belsey, Catherine,

Critical Practice (Methuen, London, 1980).

Dowling, William, C.,

Jameson, Althusser, Marx: an Introduction to the Political Unconscious (Methuen, London, and Cornell University Press, Ithaca, 1984).

Eagleton, Terry,

Marxism and Literary Criticism (Methuen, London, 1976).

Forgacs, David,

"Marxist Literary Theories", in A. Jefferson and D. Robey (eds), *Modern Literary Theory* (Batsford, London, 1982).

الفصل الثالث

النظريات البنوية

النظريات البنيوية

غالباً ما تستثير الأفكار الجديدة ردود الأفعال المحافظة على القديم والمعادية للترعة العقلية، وهذا أمر ينطبق على الطريقة التي استقبلت بها النظريات التي يجمعها اسم «البنيوية» بوجه خاص، ذلك لأن المناهج البنيوية في دراسة الأدب تتحدى بعضاً من أهم المعتقدات الراسخة عند القارئ العادي. فمنذ عهد بعيد وهذا القارئ يؤمن أن العمل الأدبي وليد الحياة الإبداعية لمؤلفه، وأن النص الأدبي تعبير عن ذات صاحبه، ونقطة لقاء حميم على المستوى الروحي والإنساني بينه - بوصفه قارئاً - وأفكار المؤلف ومشاعره، أضف إلى ذلك ما تؤمن به عادة من أن العمل الأدبي الجيد هو العمل الذي يخبرنا بالحقيقة عن الحياة الإنسانية، وأن الروايات والمسرحيات تحاول أن تخبرنا بالكيفية التي تكون عليها الأشياء.

ولكن أنصار البنيوية يحاولون إقناعنا أن المؤلف «ميت»، وأن النص الأدبي خطاب لا تتضمن وظيفته الإخبار بالحقيقة، وذلك هو ما يرفضه جون بايلي John Bayley الذي تحدث بلسان المعادين للبنيوية عندما قال - في عرض له لأحد كتب جوناثان كوللر Jonthan Culler: «إن خطيئة السميوطيقا تتمثل في محاولتها تدمير إحساسنا بالحقيقة في القصص... مع أن هذه الحقيقة تسبق القص في القصة الجيدة وتظل منفصلة عنه». وقد

حدد رولان بارت^(١) Roland Barthes النظرية البنيوية تحديدا حاسما عندما ذهب - في مقال له عام ١٩٦٨ - إلى أن الكتاب ليس لديهم من شيء سوى القدرة على مزج كتابات موجودة سلفا، وإعادة تشكيل الكتابات وتجميعها، وأنهم لا يستخدمون الكتابة كي «يعبروا» عن أنفسهم بل ليعتمدوا على المعجم الهائل للغة والثقافة الذي هو معجم «مكتوب دائما من قبل» (إذا استخدمنا عبارة بارت الأثيرية). ولن نخلط الأمور لو وصفنا روح البنيوية بأنها نزعة مضادة للنزعة الإنسانية، فقد استخدم البنيويون أنفسهم هذه الصفة «ضد إنسانية» لتأكيد معارضتهم لكل أشكال النقد الأدبي التي تجعل من الذات الإنسانية مصدر المعنى الأدبي وأصله.

المهاد اللغوي:

هناك فكرتان أساسيتان عند دي سوسير de Saussure^(٢) تطرحان إجابة جديدة عن السؤالين: «موضوع البحث اللغوي؟» و«ما العلاقة بين

-
- (١) أصبح رولان بارت أكثر البنيويين ترجمة إلى اللغة العربية، ومن أهم أعماله المترجمة:
- الكتابة في درجة الصفر، ترجمة نعيم الحمصي، دمشق ١٩٧٠. الدرجة الصفر للكتابة، ترجمة محمد يرادة، الرباط، ١٩٨٠.
 - النقد والحقيقة، ترجمة إبراهيم الخطيب، مراجعة محمد يرادة، الرباط ١٩٨٥.
 - دروس السميولوجيا، ترجمة عبدالسلام بن عبد العالي، الدار البيضاء، ١٩٨٥.
 - مبادئ علم الأدلة، تعريب محمد بكري، الدار البيضاء، ١٩٨٦.
 - انشد البنيوي للحكاية، ترجمة أنطون أبوزيد، بيروت ١٩٨٨.
 - لذة النص، ترجمة فؤاد صفا والحسين سبحان، الدار البيضاء ١٩٨٨.
- (٢) لحسن الحظ، أصبح كتاب دي سوسير «دروس في علم اللغة العام» متاحا في أكثر من ترجمة عربية أهمها:
- علم اللغة العام، ترجمة يوثيل يوسف عزيز ومراجعة مالك المطلبى، بغداد ١٩٨٥.
 - دروس في الألسنية العامة، تعريب صالح الفرماوى ومحمد الشاوش ومحمد عجينة، تونس ١٩٨٥.
 - محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة عبدالقادر قينى ومراجعة أحمد حبيبي، الدار البيضاء، ١٩٨٧.

الكلمات والأشياء؟» وانطلاقاً من هاتين الفكرتين، قام دي سوسير بتقديم تمييز أساسي بين ما أسماه «اللغة» *Langue* وما أسماه «الكلام» *Parole*، أى بين نسق اللغة الذى هو سابق فى وجوده على استخدام الكلمات، والممارسة الفعلية التى هى تلفظ فردى. أما اللغة، فهى الجانب الاجتماعى أو النسق المشترك الذى نعول عليه (لا شعورياً) بوصفنا متكلمين. والكلام هو التحقق الفردى لهذا النسق فى الحالات الفعلية من اللغة. هذا التمييز هو المهاد الذى تنطلق منه كل النظريات البنيوية اللاحقة، بمعنى أنه إذا كان الموضوع الحق للدراسة اللغوية هو النسق الكامن وراء أية ممارسة إنسانية دالة وليس التلفظ الفردى، فإن الموضوع الحق للدراسة فى العلوم الإنسانية هو اكتشاف النسق الكامن من القواعد - أو «الأجرومية» - المستخدمة فى القصائد أو الأساطير أو الممارسات الاقتصادية. فالكائنات الإنسانية - رغم كل شئ - تستخدم الكلام بطريقة مختلفة تماماً عن الببغاوات، وما يميز الإنسان - تحديداً - عن الببغاء أن الإنسان يمتلك نسقا من القواعد يعينه على إنتاج عدد لانهائى من الجمل المحكمات.

ولقد رفض سوسير الفكرة التى ترى فى اللغة كومة من الكلمات التى تتراكم تدريجياً - عبر الزمن - لتؤدى وظيفة أولية، هى الإشارة إلى الأشياء فى العالم، فالكلمات ليست رموزاً تتجاوب مع ماتشير إليه - عند سوسير - بل علامات ^(٣) *Signs* مركبة من طرفين متصلين (اتصال وجهى الورقة

(٣) العلامة هى الإشارة التى تدل على شئ آخر غيرها بالنسبة إلى من يستعملها أو يتلقاها، علم، نحو تقوم العلامة فى ذاتها على صلة دال ومدلول فى علاقة تنتج دلالة. وإذا كان الدال قرين البعد الحسى الذى يصافح سمعنا عند تلفظ الكلمات فإن المدلول هو البعد التصورى أو المفهوم الذى نعقله من هذا الدال، ويقدر ما يفهم دي سوسير العلامة بوصفها الكل الذى يتركب منه الدال والمدلول، وبوصفها تآلف المفهوم والصورة الصوتية فإنه يؤكد طبيعتها الاعتبارية أو الاختيارية فى الوقت الذى يؤكد طابعها الخطئى القائم على تعاقب النطق فى الزمن.

الواحدة). أما الطرف الأول فهو إشارة - مكتوبة أو منطوقة - هي «الدال» Signifier والطرف الثانى هو المدلول Signified أو المفهوم الذى نعقله من هذه الإشارة. ويمكن تمثيل الفكرة التى يرفضها سوسير على النحو التالى:

الرمز = الشئ

وذلك فى مقابل الفكرة التى يؤكددها وهى:

دال

العلامة =

مدلول

ولامكان «للأشياء» فى النموذج الذى تقوم عليه فكرة سوسير، فعناصر اللغة لا تكتسب معناها نتيجة الصلة بين الكلمات والأشياء بل نتيجة كونها أجزاء فى «نسق» system من «العلاقات» تأمل - مثلاً - نسق علامة أضواء المرور:

أحمر - يرتقالى - أخضر

دال (أحمر)

مدلول (توقف)

نجد أن «العلامة» sign ليس لها دلالة إلا بعلاقاتها داخل النسق: (أحمر = توقف / أخضر = انطلق / يرتقالى = استعد للأحمر أو للأخضر). أما العلاقة بين الدال والمدلول على حدة فهى علاقة اعتباطية، بمعنى أنه لا توجد صلة «طبيعية» بين اللون «الأحمر» و«التوقف»، مهما كان الشعور طبيعياً بهذه العلاقة (ومنذ أن انضمت إنجلترا إلى السوق الأوروبية المشتركة - على سبيل المثال - تقبل البريطانيون شفرة لونية كهربائية يمكن أن تبدو

غير طبيعية لهم، فصار البنى وليس الأحمر = حى، والأزرق وليس الأسود = محايد). أضيف إلى ذلك أن كل لون فى نسق المرور لا يؤدى دلالة عن طريق تأكيد معنى موجب وحيد الجانب بل عن طريق إشارته إلى اختلاف Difference يميزه عن غيره، داخل نسق من تعارضات وتقابلات، فالضوء الأحمر للمرور هو «أحمر» لأنه ليس «أخضر» على وجه التحديد، والأخضر «أخضر» لأنه ليس «أحمر».

واللغة نسق من أنساق متعددة للعلامة (البعض يؤمن أنها النسق الأساسى). والعلم الذى يدرس هذه الأنساق هو «علم العلامة» - السميوطيقا Semiotics أو «السميولوجيا»^(٤) Semiology. ومن المؤلفين النظر إلى «البنىوية» وعلم العلامة على أنهما ينتميان إلى مجال نظرى واحد، ولكن البنىوية تهتم - فى الأغلب - بالأنساق التى لاتستخدم العلامات من حيث هى علامات فى ذاتها بل الأنساق التى يمكن

(٤) السميوطيقا/ السميولوجيا (علم العلامات). يرجع مصطلح السميولوجيا إلى تقاليد دى سوسير (١٨٥٧ - ١٩١٣) الذى قال: «من الممكن تصور قيام علم يدرس حياة العلامات داخل المجتمع، ويغزو جزءا من علم النفس الاجتماعى ومن علم النفس العام. وسأسمى هذا العلم باسم السميولوجيا - من الكلمة اليونانية التى تعنى علامة. ويكشف هذا العلم عن ما يشكل العلامات وعن القوانين التى تحكمها». أما مصطلح السميوطيقا فيرجع إلى تقاليد الفيلسوف الأمريكى شارلزييرس (١٨٣٩ - ١٩١٤) الذى قال: «ليس المنطق بأوسع معانيه سوى مجرد اسم آخر للسميوطيقا.. أو نظرية العلامات»، وتتجارب تقاليد دى سوسير وبيرس فى أعمال دارسين متعاقبين، وتتطور، إلى أن تصل إلى فبراير ١٩٦٩، فى باريس، حيث قررت لجنة دولية تبنى استخدام مصطلح السميوطيقا (بيرس) وتأسيس الرابطة الدولية للدراسات السميوطيقية، وقد أصدر جريماس Greimas A.J. وكورتيس J.Courtes أهم معجم تحليلى - إلى الآن - عن «السميوطيقا واللغة» عام ١٩٧٩ عن دار هاشيت فى فرنسا.

معالجتها بطريقة أنساق العلامة فحسب (كعلاقات القرابة على سبيل المثال). وقد وضع الفيلسوف الأمريكى ش.س. بيرس Peirce تمييزاً مفيداً بين ثلاثة أنماط من العلامة، هى: النمط التصويرى (الإيقونى) Iconic (حيث تشبه العلامة مرجعها، مثل صورة السفينة أو إشارة مرور عن صخور متساقطة) ونمط المؤشر Indexical (حيث تترابط العلامة مع مرجعها برباط يمكن أن يكون رباط السببية، كالدخان من حيث هو علامة على النار، أو السحاب من حيث هو علامة على المطر) والرمزى Symbolic (حيث تغدو علاقة العلامة بمرجعها علاقة اعتباطية، كما يحدث فى اللغة). وأبرز علماء العلامة من المحدثين يورى لوتمان Yuri Lotman فى الاتحاد السوفيتى.

ولقد اعتمدت التطورات الأولى البارزة من الدراسة البنيوية على ما أحرزه اللغويون من تقدم فى دراسة الفونيمات Phonemes التى هى عناصر المستوى الأدنى من نسق اللغة. والفونيم^(٥) هو الصوت الدال الذى يدركه من يستخدم اللغة أو يميز معناه، لايحكم وقعه فى ذاته بل بحكم اختلافه عن غيره من الأصوات. ويلفت بارت Barthes الانتباه إلى هذا المبدأ فى عنوان أشهر كتبه، أى كتاب (S/Z)، حيث يلتقط حرفين صافرين فى قصة بلزاك Sarrasine (Sarrazine) وهما حرفان يتميزان - من حيث هما فونيمان - بأن أولهما مهموس (S) وثانيهما مجهور (Z). ومن ناحية أخرى، هناك اختلافات للصوت الصرف لاتتميز على المستوى الصوتى (وليس الفونيمى)، كما يحدث فى اللغة الإنجليزية من وجود اختلاف واضح بين صوت الحرف /P/ فى كل من الكلمتين "Spin"، "Pin"، ولكنه اختلاف

(٥) يترجم البعض الفونيم بكلمة «الصوت» والمورفيم الكلمة «المعنى». ومن الأفضل الاحتفاظ بالصيغة المعربة مادام لا يوجد لها مقابل، وإذا كان الفونيم يعنى أصغر الوحدات الصوتية الدالة فإن المورفيم يعنى أصغر الوحدات الدالية.

لا يلاحظ المتكلم باللغة الإنجليزية، فهو اختلاف غير مدرك من حيث إنه لا يقوم بتصنيف المعنى بين الكلمات في اللغة، وحتى لو قلنا Sbin فمن المحتمل أن نسمعها على أنها "Spin". والنقطة الأساسية في هذه النظرة أن وراء استخدامنا للغة يكمن «نسق» أو نموذج من أزواج متقابلة أو «ثنائيات متعارضة» تتحكم في هذا الاستخدام. هذه التعارضات تتضمن - على مستوى الفونيم - الأنقى / غير الأنقى، والجمهور / المهموس، والشديد / اللين. وبمعنى من المعاني، يتمثل المتكلمون مجموعة من القواعد تتجلى في قدرتهم الواضحة على استخدام الجملة.

ويمكن ملاحظة تأثير هذا النمط من البنيوية في الأنثروبولوجيا عندما تدرس ماري دوجلاس Mary Douglas - على سبيل المثال - المحرم من المأكولات عند طائفة «اللاوية»، حيث تغدو لحوم بعض الحيوانات طاهرة وبعضها الآخر غير طاهر بلا سبب واضح. وتحل ماري دوجلاس المشكل بإقامة نموذج من التعارضات يكافئ نموذج التحليل الفونيمي (الصوتي)، فتظهر قاعدتان بارزتان: (١) لحم الحيوان المشقوق الظلف والماضغ وذو الحافر هو أنموذج النوع الطاهر من مأكّل الراعى، أما لحم الحيوان شبه المطيع (كالخنزير والأرنب إلخ) فهو غير طاهر. (٢) هناك قاعدة ثانية تكمل الأولى مؤداها أن الحيوان الطاهر اللحم لا بد أن يكون عنصرا قابلا للتهيئة، فالسمكة التي بلا زعانف - مثلا - غير طاهرة.. إلخ. وهناك مستوى أكثر تعقيدا من التحليل الفونيمي نجده عند كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss^(٦) الذي طور هذا النموذج

-
- (٦) صدرت ترجمات متعددة لأعمال كلود ليفي شتراوس أهمها :
- الأنثروبولوجيا البنيوية، ترجمة مصطفى صالح، دمشق ١٩٧٧.
- مقالات في الأناسة، اختارها ونقلها إلى العربية حسن قبيسي، بيروت ١٩٨٣.
- الفكر البري، نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه نظير جاهل، بيروت ١٩٨٤.
- الأسطورة والمعنى، ترجمة وتقديم شاكّر عبد الحميد، بغداد ١٩٨٦.

فيما يتصل بدراسة الأساطير والشعائر وأبنية القرابة، فالمهم في هذا النمط من البنيوية ليس طرح الأسئلة المألوفة عن علل التحريم أو أصول الأساطير والشعائر بل البحث عن نسق الاختلافات الذي يكمن وراء الممارسة الإنسانية المتعينة.

والواضح من الأمثلة الأنثروبولوجية لهذا النمط من التحليل البنيوي أن البنيويين يحاولون الكشف عن «أجرومية»، أو «تركيب»، أو نموذج «فونيمي» للأنساق الإنسانية من المعنى، سواء كانت هذه الأنساق أنساق قرابة أو أزياء أو طهو أو خطاب أدبي أو قصصي أو أساطير أو طواطم، وأكثر أمثلة هذا التحليل حيوية نجدها في الكتابات الأولى لرولان بارت، خصوصا في كتابيه الشهيرين «أسطوريات» (١٩٥٧) و«نسق الزى»، (١٩٦٧) حيث يطبق نظريته التي بسطها في كتابه «مبادئ السميولوجيا»، (١٩٦٤).

والمبدأ الأساسي الذي تنطلق منه كل هذه الكتب لبارت هو أن كل أشكال الأداء الإنساني تستلزم نسقا متمثلا من علاقات الاختلاف. هذا المبدأ يطبقه بارت على كل ألوان الممارسات الاجتماعية التي يفسرها على أنها أنساق علامة تعمل بالطريقة التي يعمل بها النسق اللغوي، بالمعنى الذي يجعل أي «كلام» Parole فعلى يستلزم نسقا (لغة) من الاستخدام. ويدرك بارت أن نسق «اللغة قابل للتغير، وأن تغيره يقع في «الكلام»، ولكنه يؤكد أن دراسة الكلام في أي لحظة من لحظاته لا بد أن تكشف عن نسق فاعل، هو مجموعة القواعد التي تصدر عنها كل ألوان «الكلام»، مثل ذلك دراسة بارت لارتداء الملابس في دراسته عن الزى، حيث لا يرى عناصر اللبس بوصفها أمر تعبير شخصي أو أسلوب فردي بل أمر «نسق لباسي»، يعمل بالطريقة التي تعمل بها اللغة. ومن ثم يقسم «لغة» الملابس إلى قسمين «نسق»، و«كلام» (تشكيلة).

النسق

التشكيلة

(مجموعة من قطع، أجزاء، أو تفاصيل لا يمكن ارتداؤها في وقت واحد على الجزء نفسه من الجسم، ويستجيب تنوعها إلى التغير في معنى طريقة اللبس: بخنق، قلنسوة، لفاعة.. إلخ).

مجاورة لعناصر مختلفة في نمط الثوب نفسه: تنورة - بلوزة - جاكيت.

إننا نختار طاقما بعينه (تشكيلة) من قطع يمكن استبدال كل منها بغيرها لكي نصنع «كلام» الثوب، على نحو يغدو معه الطاقم (الذي قد يتكون - مثلا - من جاكيت رياضي / بنطال فلانيلة رمادي / قميص أبيض مفتوح الرقبة) مكافئا للجملة التي ينطقها الفرد لأداء غرض من الأغراض، فعناصر الطاقم - كعناصر للجملة - تتناسب معا لتحقيق نوعا من الأداء وتستحضر معنى أو أسلوبا. ونحن لا نؤدى النسق نفسه بالفعل، ولكن اختيارنا للعناصر التي تتكون منها أطقم الثياب هي التي تجعل النسق يعبر عن قدرتنا على استخدامه. وفيما يلي تمثيل لمثال مطبخي يقدمه بارت:

نسق

تشكيلة

«عدد من المواد الغذائية تتضمن مشابهاة ومخالفات؛ يختار المرء منها طبقه بالنظر إلى معنى بعينه: أنواع المداخل، المشويات أو الحلوى»

سلسلة الأطباق الفعلية المختارة في الوجبة، قائمة الطعام.

(فى المطاعم التى تقدم وجبات a la carte فإن القائمة تتضمن كلا المستويين: المداخل والأنواع).

النظرية البنيوية للقص:

عندما نطبق نموذج التحليل اللغوى على الأدب نبدو كالذى يرسل الفحم إلى نيو كاسل، ذلك لأنه إذا كان الأدب لغة - آخر المطاف - فما القصد من دراسته فى ضوء النموذج اللغوى؟ الحق أنه من الخطأ التوحيد بين «الأدب» و«اللغة». صحيح أن الأدب يستخدم اللغة أداة له، ولكن ذلك لايعنى اتحادا بين بنية الأدب وبنية اللغة، فالعناصر ليست متطابقة بين كلتا البنيتين. ومعنى ذلك أنه عندما يطالب تودوروف Todorov بنظرية أدبية جديدة تؤسس «أجرومية» عامة للأدب فإنه يطالب بنظرية تكشف عن القواعد الكامنة التى تحكم الممارسة الأدبية. ولكن البنيويين - من ناحية أخرى - يذهبون إلى وجود علاقة خاصة بين الأدب واللغة، فالأدب - عندهم - يلفت انتباهنا إلى طبيعة اللغة نفسها وخصائصها النوعية، فنظريتهم الأدبية البنيوية وثيقة الصلة بالشكلية فى هذا الجانب.

وتنطلق النظرية البنيوية للقص من التماثلات التى تصل الأدب باللغة، بالمعنى الذى يجعل من «النحو» Grammer (قواعد بناء الجملة) النموذج الأساسى لقواعد القص، حين يتحدث تودوروف وغيره عن نحو للقص. هذا «النحو» يبدأ من التركيب الأولى للجملة نفسها، من حيث انقسامها إلى «مسند» ومسند إليه. خذ مثلا الجملة: «الفارس (مسند) ذبح التنين بسيفه (مسند إليه)». من الواضح أن هذه الجملة يمكن أن تكون نواة لحادثة أو حكاية بأكملها. وإذا استبدلنا بالفارس اسما مثل لانسيلوت Lancelot أو

جوين Gawain ، وبالفأس السيف، ظلت البنية الأساسية على حالها. ولقد توصل فلاديمير بروب Vladimir Propp إلى نظريته عن الحكايات الروسية الخرافية بمتابعة هذه المماثلة بين بنية الجملة وبنية القص إلى نهايتها.

ويمكن فهم منهج بروب^(٧) إذا مثلنا الشخصيات النمطية (البطل، الشرير.. إلخ) في الحكايات بالمسند في الجملة، ومثلنا الأحداث النمطية بالمسند إليه. وإذا كانت الحكايات تتضمن وفرة وفيرة من التفاصيل فإن مادة الحكايات نفسها تتشكل على أساس من عدد ثابت من «الوظائف»، هي إحدى وثلاثون وظيفة. والوظيفة هي الوحدة الأساسية للغة (نسق) القص، وتشير إلى الأحداث ذات المغزى التي تشكل القص، والتي تتبع مساقا منطقيا. ورغم أنه لا توجد حكاية تتضمن كل الوظائف مجتمعة، فإن للوظائف مسارا ثابتا في كل حكاية. والمجموعة الأخيرة من الوظائف - عند بروب - كالتالي:

٢٥ - اقتراح مهمة صعبة على البطل.

٢٦ - إنجاز المهمة.

٢٧ - الاعتراف بمكانة البطل.

٢٨ - افتضاح أمر البطل الزائف أو الشخصية الشريرة.

٢٩ - اتخاذ البطل الزائف مظهرا جديدا.

٣٠ - عقاب الشرير

٣١ - زواج البطل وارتقاؤه العرش.

(٧) توجد ترجمة عربية جيدة لكتاب بروب، مورفولوجية الخرافة، من إعداد وتقديم إبراهيم الخطيب، وقد صدرت عن الشركة المغربية للناسرين المتحدين، الدار البيضاء ١٩٨٦.

وليس من الصعب أن نلاحظ أن هذه الوظائف لا توجد فى الحكايات الخرافية الروسية أو غير الروسية فحسب، فهى موجودة بالمثل فى الكوميديات والأساطير والملاحم والمغازى وبالقسط فى القصص بوجه عام، ولكن وظائف بروب بسيطة فى نمطيتها إلى درجة تستلزم تطويرها إذا أردنا تطبيقها على نصوص أكثر تعقيدا. وفى أسطورة أوديب - على سبيل المثال - نجد أن أوديب يشرع فى مهمة حل لغز أبى الهول، وينجز المهمة، ويتم تقديره من حيث هو بطل، ويتزوج ويرتقى العرش، ولكن أوديب فى الوقت نفسه بطل زائف وشرير، ويفتضح أمره (قتل أباه فى الطريق إلى طيبة وتزوج أمه، الملكة) ويوقع العقاب على نفسه. وقد أضاف بروب سبعة «مجالات للحدث» أو أدوارا تؤديها الشخصيات فى الإحدى وثلاثين وظيفة، فهناك الشرير، والمناخ (الواهب) والمساعد، والأميرة (بحث عن شخص) ووالدها، والرسول، والبطل (الباحث أو الضحية)، والبطل الزائف. ومرة أخرى، تتطلب التراجيديات الأسطورية لأوديب أن نستبدل بدورى «الأميرة ووالدها» أدوار «الأم / الملكة والزوج». يضاف إلى ذلك أن الشخصية الواحدة يمكن أن تلعب أدوارا متعددة، أو تقوم مجموعة من الشخصيات بالدور نفسه، فأوديب الذى هو البطل والمناخ (الذى يجنب طيبة الكارثة بحله اللغز) هو فى الوقت نفسه بطل زائف بل شرير.

ولقد حلل كلود ليفى - شتراوس، الأنثروبولوجى البنىوى، أسطورة أوديب بطريقة بنىوية تماما فى استخدامه النموذج اللغوى، فهو يطلق على الوحدات الصغرى للأسطورة مصطلح «ميثيمات»^(٨) Mythemes (الذى

(٨) الميثيم، الوحدة الصغرى للأسطورة، مصطلح صاغه كلود ليفى شتراوس فى كتابه «الأنثروبولوجيا»، على نسق المورفيم، وجعل منه دالا على المكونات الصغرى ذات الطابع العلائقى لأسطورة أوديب.

يمثل الفونيمات Phonemes والمورفيمات Morphemes فى علم اللغة). وتتظم هذه الوحدات الصغرى فى تعارضات ثنائية شأنها شأن الوحدات اللغوية الصغرى. ويتكشف التعارض العام الذى تنطوى عليه أسطورة أوديب عن نظرتين متقابلتين إلى أصل الإنسان: (١) نظرة الأصل الواحد التى ترد ولادة الإنسان إلى الأرض. (٢) نظرة الأصل المزدوج التى ترجع ولادة الإنسان إلى جماع ذكر وأنثى. وتتجمع مجموعة من الوحدات الصغرى حول القطب الأول من التعارض بينما تتجمع مجموعة أخرى حول القطب الثانى، فتؤكد المجموعة الأولى أهمية روابط القرابة (حين يتزوج أوديب من أمه، وتدفن أنتيجونا أخاها غير آبهة بالقانون)، بينما تقلل المجموعة الثانية من أهمية القرابة (حين يقتل أوديب أباه، ويقتل إيتوكليس أخاه). ولا يهتم ليفى شتراوس بمساق القص بل بالنموذج البنىوى الذى يمنح الأسطورة معناها، فهو يبحث عن البنية (الفونيمية) للأسطورة، ويؤمن أن تطبيق نموذج التحليل اللغوى سوف يفضى - فى النهاية - إلى الكشف عن البنية الأساسية للعقل الإنسانى، أى البنية التى تحكم الطريقة التى يشكل بها البشر مؤسساتهم ومصنوعاتهم وأشكال معرفتهم.

ويقدم أ.ج. جريماس A.J.Greimas فى كتابه «علم الدلالة البنىوية» (١٩٦٦) تطويرا بارعا لنظرية بروب؛ إذ بينما كان هدف بروب هو دراسة نوع بعينه من القص، فإن هدف جريماس هو الوصول إلى «القواعد» الكلية للقص عموما، عن طريق تطبيق التحليل الدلالى لبنية الجملة على هذه القواعد. ويستبدل جريماس بمجالات الحدث السبعة عند بروب ثلاثة أزواج من الثنائيات المتعارضة، تتضمن كل الأدوار (أو الذوات Actants) التى أشار إليها بروب:

فاعل / مفعول

مرسل / مستقبل

مساعدة / معارض.

وترسم هذه الأزواج ثلاثة نماذج رئيسية يمكن أن تتكرر في كل ألوان القص:

١ - رغبة، أو بحث، أو هدف (فاعل / مفعول).

٢ - اتصال (مرسل / مستقبل).

٣ - دعم إضافي أو إعانة (مساعدة / معارض).

وإذا طبقنا هذه النماذج على مسرحية سوفوكليس «أوديب ملكا»، فلاشك أننا سوف نصل إلى تحليل أكثر نقاذا مما لو استخدمنا مقولات بروب:

١ - أوديب يبحث عن قاتل لايوس. ومن المفارقات الساخرة أنه يبحث عن نفسه (فهو الفاعل والمفعول في آن).

٢ - موحى أبوللو يتنبأ بخطايا أوديب. تريزياس وجوكاستا والرسول والراعى - كلهم يؤكدون صدق النبوءة بقصد أو دون قصد، فالمسرحية تدور حول سوء فهم أوديب للرسالة.

٣ - تريزياس وجوكاستا يحاولان منع أوديب من اكتشاف القاتل بينما يساعدان الرسول والراعى - بغير عمد - في البحث، وأوديب نفسه يعرقل التفسير السليم للرسالة.

ويمكن أن نرى - للوهلة الأولى - أن ماقام به جريماس من تطوير لنظرية بروب إنما يسير في اتجاه التعميط الفونيمى، الذى رأيناه عند

شترأوس، وذلك اعتبار يجعل من جريماس بنيويا تماما إذا قورن ببروب الشكلي، فجريماس يفكر فى العلاقات بين الوحدات أكثر مما يفكر فى خصائص الوحدات ذاتها. ومن هنا اختزل وظائف برروب الإحدى وثلاثين إلى عشرين وظيفة، وحصر الوظائف العشرين فى ثلاثة أبنية: «تعاقدية» Contractual، و«أدائية» Performative و«خيارية» Disjunctive. وتتصل البنية الأولى - وهى الأكثر لفتا للانتباه - بتأسيس أو فسخ التعاقد أو القاعدة على نحو يمكن أن يستخدم فيه القص أيا من البنيتين التاليتين:

عقد (أو حظر) ← خرق ← عقاب

غياب العقد (عدم نظام) ← تأسيس عقد (نظام).

ويقوم القص فى أسطورة أوديب على البنية الأولى، فأوديب ينتهك محظور قتل الأب وسفاح المحارم، ويعاقب نفسه.

وينطلق تزفيتان تودوروف Tzvetan Todorov من إنجازات برروب وجريماس وغيرهما، جاعلا من القواعد النحوية قواعد للقص، أعنى قواعد الفاعلية Agency والإسناد Predication ووظائف النعت، والفعل، وصيغة الفعل Mood ووجه الإعراب Aspect.. إلخ. وتغدو أصغر وحدات القص هى «القضية» Proposition التى يمكن أن تكون «فاعلا» أى شخصا، أو «مسندا إليه» أى حدثا، على نحو يمكن معه وصف الطابع البنىوى لـ «قضايا» القص بأقصى درجة من التجريد والعمومية. وإذا استخدمنا منهج برروب فى تحليل أسطورة أوديب أمكن أن يكون لدينا «القضايا» التالية:

س يتزوج ش

س يقتل ص.

س يتولى الملك

ش والدة س

ص والد س.

وهي بعض القضايا التي يتشكل منها القص في الأسطورة، حيث إن (س) هو أوديب و(ش) جوكاستا و(ص) لا يوس. والقضايا الثلاث الأولى تعين «الفاعل» بينما تتضمن القضية الأولى والقضيتان الأخريان «المسند إلى الفاعل» (تولى الملك، والزواج، والقنيل). ويمكن أن يعمل ما هو مسند إلى الفاعل عمل النعت، فيشير إلى حالة ساكنة من الأحداث (تولى الملك)، أو يعمل بطريقة دينامية، فيشير إلى «أفعال» انتهاك القانون، مما يجعل المسند إلى الفاعل أكثر أنماط القضايا فاعلية. وبعد أن يفرغ تودوروف من تحديد الوحدة الصغرى (القضية) للقص، يقوم بوصف مستويين أعلى من التنظيم: المساق Sequence والنص Text، فكل مجموعة من القضايا تشكل مساقاً، بحيث يتكون المساق الأساسي من خمس قضايا تصف وضعاً مضطرباً لا يلبث أن يعود إلى حال استقراره، وإن كان في شكل متحول. ويمكن تحديد هذه القضايا الخمس كالتالي:

توازن ١	(سلام مثلاً)
قوة ١	(عدو يغزو)
عدم توازن	(حرب)
قوة ٢	(عدو ينهزم)
توازن ٢	(سلام بشروط جديدة).

وأخيراً، يشكل تعاقب المساقات نصاً تنتظم أجزاؤه بطرائق متنوعة، كالإدماج Embeding (قصة داخل قصة، استطراد... إلخ) أو وصل (سلسلة من المساقات) أو المزج أو المناوبة (تواشج المساقات) أو المزج بين ذلك كله. ويقدم تودوروف^(٩) أكثر أمثله التطبيقية حيوية في دراسته عن «ديكاميرون»

(٩) هناك أكثر من كتاب قد ترجم لتودوروف إلى اللغة العربية أهمها :

- نقد النقد، ترجمة سامي سويدان، بيروت ١٩٨٦.

- الشعرية، ترجمة المبخوت ورجاء بن سلامة، الدار البيضاء ١٩٨٧.

بوكاشيو Boccaccio بعنوان «أجرومية الديكاميرون» (١٩٦٩)، وهي دراسة تكشف بهاالتها العلمية عن محاولته تأسيس «نحو» عام للقص انطلاقاً من موقف موضوعي واثق بموضوعيته. وسوف نرى أن هذا الموقف هو مانقضته نظريات «مابعد البنيوية».

وقد طور جيرار جينيت^(١٠) Gerard Genette نظريته القوية المركبة عن الخطاب في سياق دراسته لرواية بروس «البحث عن الزمن الضائع»، حيث أحكم تفرقة الشكلية الروسية بين «القصة» Story، و«الحبكة» Plot (انظر الفصل الأول) بتقسيم القص إلى ثلاثة مستويات: مستوى القصة story (Historie) ومستوى الخطاب (Recit) discourse ومستوى السرد (Nar-ration) Narration. مثال ذلك مايجده في القسم الثاني من «الإنياذة»، حيث إنياس Aeneas راو يقص على مستمعين (سرد)، ويقدم لهم خطاباً، هذا الخطاب يصور أحداثاً شارك فيها إنياس (قصة). هذه المستويات الثلاثة تتصل بثلاثة أبعاد يستخلصها جينيت من خصائص «الفعل»: زمانه، وحالته الإعرابية، وصوته (المبنى للمجهول أو المعلوم). وإذا أخذنا بعداً واحداً فحسب على سبيل التمثيل، لاحظنا أن تمييز جينيت بين «الحالة» و«الصوت» يوضح المشكلات التي تترتب على الفكرة المألوفة عن «وجهة النظر» في القصة، حيث نفشل غالباً في التمييز بين الصوت الراوى ومنظور (حالة) الشخصية. إن بيبا Pip - مثلاً - في رواية «الآمال العظيمة»، يقدم منظور نفسه في شبابه، ولكن من خلال صوت ذاته التي تقص فيما بعد هذا الشباب.

وتزودنا مقالة جينيت Genette «تخوم القص» (١٩٦٦) بنظرة شاملة إلى المشكلات التي لاتزال في حاجة إلى تطوير في نظرية القص، فيدرس

(١٠) هناك كتاب مترجم إلى العربية لجيرار جينيت، هو: - مدخل لجامع النص، ترجمة عبدالرحمن أيوب، الدار البيضاء ١٩٨٥.

هذه المشكلات من خلال استكشافه ثلاث ثنائيات متعارضة. الثنائية الأولى يتعارض فيها التقديم Diegesis مع المحاكاة Mimesis في القص، وهى ثنائية يوجد فيها «السرد» Narration مع «الوصف» Discription. وتفترض تمييزا في الجانب الفعال والجانب التأملى من السرد، فيتصل جانبها الأول الفعال بالأحداث والأفعال، بينما يتصل جانبها الثانى بالموضوعات أو الشخصيات، فالسرد يبدو أساسيا ما ظلت الأفعال والأحداث جوهر المضمون الزماني والدرامي للقصة، فى حين يبدو «الوصف» ثانويا وزخرفيا، فجملة مثل «ذهب الرجل إلى المنضدة والتقط سكينا» هى جملة حركية وقصية (سردية) إلى حد بعيد. ولكن جينيت ينقض هذا التمييز بمجرد أن يفرغ منه، فيشير إلى أن الأسماء والأفعال فى الجملة هى أفعال وأسماء وصفية فى الوقت نفسه. وإذا استبدلنا بكلمة «الرجل» كلمة «طفل» وبالمنضدة «الطاولة» بالفعل «التقط» الفعل «انتزع»، نكون قد غيرنا الوصف. وأخيرا، تأتى ثنائية «القص» Narration و«الخطاب» Discourse التى تميز بين الحكى الخالص الذى لا يتكلم أحد متعين فيه والحكى الذى نعرف فيه شخصية المتكلم. ومرة أخرى، ينقض جينيت التعارض بالكشف عن عدم وجود قص خالص يخلو من تلوين «ذاتى»، فهناك - عادة - علامات دالة على عقل يصدر أحكاما مهما بدا القص شفافا مباشرا. وغالبا، فإن القص لا يكون نقيا (أو خالصا) بهذا المعنى، سواء كان عنصر الخطاب يدخل عبر صوت الراوى (كما عند فيلدنج Fielding وسيرفانتس Cervantes أو عبر شخصية الراوى (كما عند ستيرن Sterne) أو بواسطة رسائل متبادلة (كما عند ريتشاردسون Richardson). ويؤمن جينيت أن القص قد وصل إلى أعلى درجات نقائه لدى هيمنجواى Hemingway وهامت Hammet، ولكنه أخذ ينداح تماما فى خطاب الكاتب مع الرواية الجديدة Nouveau-Roman. وسوف نرى فى الفصل القادم أن منهج جينيت النظرى بما

يتميز به من إقامة تمييز بين المتعارضات وإلغاء لهذا التمييز، يفتح الباب أمام فلسفة «التفكيك» Deconstruction عند جاك ديريدا Jacques Derrida.

وإذا تابعنى القارئ إلى الآن فسوف يعترض على النظرية الأدبية البنيوية بأنها لا تملك الكثير الذى تقدمه إلى النقد التطبيقي، وأن ثمة دلالة لافتة فى أن الأمثلة التى تستخدمها الدراسات البنيوية تأتى غالبا من القصص الخرافية والأساطير والقصة البوليسية، غير أن هذه الدراسات تهدف إلى تحديد المبادئ العامة لبنية الأدب ولاتقدم تفسيرات لنصوص فردية. ويمكن للقصة الخرافية - مع هذا الهدف - أن تقدم أمثلة أوضح لقواعد القص الأساسية فى كل القصص أكثر مما تفعل مسرحية «الملك لير»، أو رواية «يوليسيز».

الاستعارة والكناية:

ولكن هناك بعض الحالات التى تقدم فيها النظرية البنيوية للناقد التطبيقى مهادا خصباً للاستخدامات التفسيرية. ينطبق هذا على دراسات رومان ياكوبسون Roman Jakobson عن «الحبسة» Aphasia (عيب كلامي)^(١١) وتطبيقاتها الأدبية، حيث يبدأ ياكوبسون بإقامة تمييز أساسى بين البعد الأفقى والبعد الرأسى من اللغة، وهو تمييز يرتبط بالتمييز بين

(١١) الحبسة اضطراب أو خلل فى التعبير بالكلام أو الكتابة، أو فى فهم معنى الكلمات المنطوق بها، أو فى تسمية الأشياء. وقد عالجه ياكوبسون معالجة عمقت النظرية اللغوية البنيوية، فميز بين الحبسة التى تقع على مستوى اختيار الكلمات، والحبسة التى تقع على مستوى التضام بين الكلمات، واصلا بين هذين النوعين والمحورين الأساسيين فى اللغة، مؤكدا ما يترتب على التمايز بينهما من استخدام كنائى يركز على علاقات التتابع، واستخدام استعارى يركز على علاقات الترابط، وحاول أن يستخرج من ذلك تطبيقات فى الآداب والفنون.

اللغة Langue والكلام Parole. ويمكن توضيحه بالإشارة إلى نسق الأزياء عند بارت، حيث يتضمن البعد الرأسى مخزوناً من العناصر التى يمكن استبدال واحدتها بالآخر، كالبخنق والقلنسوة واللفاعة، ويتضمن البعد الأفقى العناصر التى نختارها من هذا المخزون لتشكيل مساقاً فعلياً (تنورة - بلوزة - جاكيت). ويعنى ذلك، إمكان النظر إلى أى جملة من الجمل من منظور رأسى أو أفقى، أى بالنظر إلى (١) العنصر المختار من بين مجموعة العناصر القابلة للاستبدال داخل المجموعة نفسها، أو بالنظر إلى (٢) العناصر المتضامة فى مساق فعلي يتشكل منه كلام Parole. هذا التمييز ينطبق على كل المستويات من أصغرها إلى أكبرها، أى ينطبق على الفونيم والمورفيم والكلمة والجملة فى الوقت نفسه. وقد لاحظ ياكوبسون أن الأطفال المصابين بالحبسة يفقدون القدرة على استخدام بعد من هذين البعدين (الأفقى / الرأسى)، فيتكشف نمط «اعتلال المجاورة» من الحبسة، فى عجز الطفل عن ضم العناصر اللغوية فى مساق، بينما يتكشف النمط الثانى - وهو «اعتلال المشابهة» - فى العجز عن استبدال العناصر بغيرها. ويبدو ذلك واضحاً فى اختبار تداعى الكلمات، فإذا قلنا: «كوخ» - مثلاً - فإن الطفل المصاب بالاعتلال الأول (المجاورة) ينتج سلسلة من المترادفات والأضداد وغيرها من البدائل: «عشة»، «زريبة»، «مكان»، «حار»، «جحر». وفى حين يقدم الطفل المصاب بالاعتلال الثانى (المشابهة) عناصر تتضام مع «كوخ»، لتشكيل مساقات ممكنة: «متداع»، «منزل صغير فقير». ويمضى ياكوبسون موضحاً أن كل نوع من هذين الاعتلالين يستجيب إلى نوع بعينه من مجاز الكلام - استعارة أو كناية. ويوضح المثال السابق أن اعتلال المجاورة يفضى إلى استبدال فى البعد الرأسى من اللغة على نحو ما يحدث فى الاستعارة («وجار»، لـ «كوخ»)، بينما يفضى اعتلال المشابهة إلى إنتاج أجزاء من سياقات تشير إلى علاقة الجزء بالكل على نحو ما يحدث فى

الكناية («متداع» لـ «كوخ»). ويرى ياكوبسون أن كلامنا العادى يسلك سلوكا يميل به إلى أحد البعدين أو القطبين، وأن الأسلوب الأدبى نفسه يتكشف عن ميل إلى القطب الاستعارى أو القطب الكنائى، وأن التطور التاريخى من الرومانسية إلى الرمزية - عبر الواقعية - يمكن فهمه بوصفه تحولا أسلوبيا من القطب الاستعارى (الرومانسية) إلى القطب الكنائى (الواقعية) وعودة إلى القطب الاستعارى (الرمزية) مرة أخرى. ويطبق ديفيد لودج David Lodge فى كتابه «طرز الكتابة الحديثة»^(١٢) (١٩٧٧) هذه النظرية على الأدب الحديث، مضيفا درجات أخرى من التحول إلى العملية الدائرية التى أشار إليها ياكوبسون، على نحو تغدو معه نزعة «الحدائثة» و«الرمزية» واقعة فى القطب الاستعارى، بينما تغدو النزعة «الواقعية» والنزعة «المضادة» للحدائثة فى القطب الكنائى.

وإذا أردنا مثالا على ذلك، فلنلاحظ أن الكناية - بمعناها العام - تتضمن انتقالا من عنصر إلى آخر فى المساق نفسه، أو تضع عنصرا فى سياق آخر، تماما كما يحدث حين نطلب «كوبا» من شئ ما ونحن نقصد مضمون الكوب وليس الكوب نفسه، أو نشير إلى «المضمار» ونحن نقصد السباق، أو إلى أسطول من مائة شراع ونحن نقصد مائة سفينة. إن الكناية - أساسا - تتطلب سياقاً لعملها، ومن هنا يصل ياكوبسون بينها وبين الواقعية، فالواقعية تتحدث عن موضوعها بأن تعرض على القارئ جوانب وأجزاء وتفاصيل سياقية، تستحضر الكل بواسطة الجزء. نخذ - مثلاً - مفتتح رواية ديكنز «الآمال العظيمة»، حيث يبدأ بيب فى تعرف

(١٢) هناك جزء مفيد مترجم من كتاب ديفيد لودج بعنوان «لغة الرواية الحدائثة - الاستعارة والكناية». وهو تطبيق لنظرية ياكوبسون عن «الحبسة». وقد قام بالترجمة صبحى حديدى، فى العدد الثالث والعشرين، من «الكرمل» ١٩٨٧.

نفسه - من «حيث هو هوية ذاتية» - فى مشهد طبيعى، فيأخذ فى تأمل حال يتمه، ويخبرنا أنه لا يستطيع أن يصف والديه إلا مستعينا بذكرى بصرية عن مقبرتهما: «حيث إنى لم أر أبى أو أمى... فإن أول ما انطبع فى نفسى عنهما جاءنى على نحو غير معقول (التأكيد من مؤلف الكتاب) من مقبرتهما، فقد أعطانى شكل الحروف المنقوشة على مقبرة أبى فكرة غريبة عن أنه كان رجلاً ربة قوياً». هذا الحدث الاستهلالي لتحديد الهوية فعل كنائى، من حيث إن يربط بين عنصرين فى سياق، والده من ناحية والشاهد المنقوش لقبر هذا الوالد من ناحية ثانية. على أى حال، هذه ليست كناية واقعية وإنما اشتقاق غير واقعى، أو فكرة غريبة، رغم أنها تتناسب وعالم الطفولة (وبهذا المعنى تغدو واقعية من الناحية النفسية). وعندما يتقدم ييب إلى المشهد المباشر لأمية ظهور المحكوم عليه، وهى لحظة الصدق فى حياته، فإنه يقدم لنا الوصف التالى:

«موطنى كان أرضاً سبخة تنحدر مع النهر، وتلتف معه إلى مسافة عشرين ميلاً من البحر، وأول انطباع حى واضح يظهر لى عن هوية الأشياء يرجع إلى غروب قارس، أذكره. فى هذا الوقت وجدت على سبيل اليقين أن هذا المكان الكئيب المكسو بالقراص كان ساحة كنيسة، وأن فيليب بريب الراعى الراحل لهذه الأبرشية وجيورجيانا زوجته كانا ميتين ومدفونين. وأن... البرية المترامية وراء فناء الكنيسة المتقاطعة مع الأسيجة والروابى والبوابات والقطيع المتناثر الذى يرعى فيها كانت المستنقعات، وأن الخط الرصاصى المنخفض وراءها كان النهر، وأن الوجار الوحشى البعيد الذى تتدافع منه الرياح كان البحر، وأن الكومة الصغيرة من الارتعاشات

المتصاعدة الخائفة من ذلك كله والبادئة في البكاء كانت
يبس.

وذلك وصف يكشف عن الطراز الذى يدرك به يبس «هوية الأشياء»
بوصفه طرازاً كنائياً فى المحل الأول وليس استعارياً، فهناك ساحة الكنيسة
والمقابر والمستنقعات والنهر والبحر ويبس، كل ذلك يتم استحضاره من
الملامح السياقية إذا جاز التعبير، على نحو يتم معه تقديم الكل (شخص،
مشهد) من خلال جوانب مختارة. ومن الواضح أن يبس أكثر من «كومة
صغيرة من الارتعاشات» (إنه كومة من اللحم والعظام والأفكار والمشاعر
والقوى الاجتماعية والتاريخية بالمثل). ولكن هويته تتأكد - هنا - من
خلال الكناية، أى من خلال التفصيل الدال المقدم بوصفه ذاته كلها فى
هذه اللحظة.

ويطور ديفيد لودج نظرية ياكوبسون موضحاً توضيحاً سليماً أن المهم
فى النظرية كلها هو السياق، ذلك لأن السياق المتغير يمكن أن يغير نوع
المجاز نفسه. وفيما يلى المثال الشائق الذى يقدمه لودج:-

هذه الاستعارات السينمائية المحببة عن العملية الجنسية فى دور العرض
المتساهلة، حيث الصواريخ النارية والأمواج التى تدق الشاطئ، يمكن النظر
إليها بوصفها مهاداً كنائياً إذا كان الفعل الجنسى يحدث على شاطئ فى
يوم عيد الاستقلال، ولكننا يمكن أن ندركها بوصفها استعارات واضحة إذا
كان الفعل يحدث فى عشية الميلاد (٢٤ ديسمبر) فى شقة عازب فى
مدينة.

وذلك مثال يحذرنا به لودج من استخدام نظرية ياكوبسون بطريقة
جامدة.

الشعرية البنيوية: جوناثان كوللر:

وقد قام جوناثان كوللر Jonathan Culler بأول محاولة لتمثيل البنيوية الفرنسية من منظور نقدي أنجلو-أمريكي عام ١٩٧٥، وتقبل المسلمة القائلة بأن علم اللغة يزود العلوم الإنسانية والاجتماعية بأفضل نموذج معرفي، ولكنه أثر ما طرحه نوام شومسكي Noam Chomsky من تمييز بين «القدرة» و«الأداء»^(١٣) على تمييز سوسير بين «اللغة» و«الكلام»؛ إذ رأى أن فكرة القدرة تتميز باتصالها الوثيق بمن يتكلم اللغة، فقد أظهر شومسكي أن نقطة الانطلاق في فهم اللغة هي استعداد من يتكلمها على إنتاج وفهم جمل محكمة الشكل، نتيجة معرفته المتمثلة لاشعوريا بنسق اللغة. ويوضح كوللر أهمية هذا المنظور بالنسبة إلى النظرية الأدبية حين يقول: «إن الموضوع الفعلي للشعرية Poetics^(١٤) ليس العمل الأدبي نفسه وإنما تعقله، إذ لابد للباحث من أن يحاول توضيح الكيفية التي يتم بها فهم

(١٣) القدرة Competence والأداء Performance: يوازي هذان المصطلحان الخاصان بنوام تشومسكي مصطلحي «اللغة» و«الكلام» عند دي سوسير، فالقدرة تتصل بالنظام الكامن من القواعد أو المعايير التي تتحكم في السلوك اللغوي المتحقق وتوجيهه أو المعرفة المضمنة التي ينطوي عليها المتكلمون داخل النسق اللغوي، أما الأداء فهو التحليلات الظاهرة المتولدة عن هذه القدرة والمؤدية إليها في آخر المطاف.

(١٤) «الشعرية» مصطلح أخذ يشيع في الكتابات العربية مؤخرا. وهو في استخدامه البنيوي ذو صلة بأصالة عند أرسطو، فالشعرية هي الدراسة المنهجية - التي تقوم على نموذج علم اللغة - للأنظمة التي تنطوي عليها النصوص الأدبية، فهدف «الشعرية» هو دراسة «الأدبية» أو اكتشاف الأنساق الكامنة التي تحدد أدبية النصوص، واكتشاف الأنساق الكامنة التي توجه القارئ في العملية التي يفهم بها أدبية هذه النصوص. وللمصطلح - إلى جانب هذا المعنى البنيوي العام - معنى خاص يتصل بالخصائص الأدبية عند مدرسة، أو حركة، أو أديب، ومن ثم يمكن الحديث عن «شعرية الحداثة» على سبيل المثال.

الأعمال الأدبية، والقيام بصياغة نظرية للمعرفة الضمنية أو الأعراف التي يمكن بها القراء من فهم هذه الأعمال». ويتمثل المسعى الرئيسى لكوللر فى تحويل مركز الاهتمام من النص إلى القارئ (انظر الفصل الخامس)، فهو يؤمن أننا نستطيع تحديد القواعد التى تحكم تفسير النصوص وليس القواعد التى تحكم النصوص، وأنا يمكن أن نؤسس المعايير والإجراءات التى تنتج التفاسير، عندما نبدأ بإقامة مجال من التفسيرات المقبولة لدى القراء الماهرين.

بعبارة أبسط، يرى كوللر أن القراء الماهرين يعرفون كيف يفهمون النص عندما يواجهونه، ويعرفون الكيفية التى يميزون بها بين التفسير الممكن والتفسير المستحيل، مما يعنى أن هناك قواعد تحكم نوع الفهم الذى يخرج به المرء من أكثر النصوص الأدبية غرابة، ويعنى - فى الوقت نفسه - أن كوللر لا ينظر إلى «البنية» فى النسق الذى يحدد النص بل فى النسق الذى يحدد مايقوم به القارئ فى التفسير. وإذا أردنا مثالا طريفا على ذلك فلنتوقف عند هذه القصيدة التى تتكون من ثلاثة أسطر:

«الليل عادة وقت تجوالى.

كان خير الأوقات وكان أسوأ الأوقات.

أما فيما يتصل بتحديد السنة فلا لزوم لذلك».

فقد سألت مجموعة من زملائى أن يقرأوا هذه القصيدة. وانطلقت حركات متنوعة من التفسير، فقد رأى أحدهم صلة من ناحية «الموضوع» (أو القيمة) تصل بين الأسطر («ليل»، «وقت»، «أوقات»، «سنة»). وحاول زميل ثان أن يتخيل موقفا (نفسيا أو خارجيا). ونظر ثالث إلى القصيدة من خلال عملية تنميط شكلية (الزمن الماضى - «كان» - يحده زمن مضارع - «يكون»). ورأى رابع فى الأسطر تقبلا لثلاثة اتجاهات مختلفة

إزاء الزمن : اتجاه متعين ، واتجاه متناقض ، وثالث غير متعين . وأدرك خامس أن السطر الثانى مأخوذ من فاتحة رواية ديكنز Dickens «حكاية مدينتين» ولكنه قبله بوصفه «تضمينا» يؤدي وظيفة داخل القصيدة، وكان على - أخيرا - أن أكشف لهم أن السطرين الباقيين هما - بدورهما - من فاتحتي روايتي ديكنز «دكان الغرائب القديمة» ، و«صديقنا المشترك» . وما هو مهم - من وجهة نظر كوللر - ليس أن هؤلاء الزملاء القراء كانوا يتصيدون معنى للأسطر بل إنهم كانوا يتبعون إجراءات - يمكن تمييزها - لفهم هذه الأسطر . ويجب أن أضيف أن زميلا من هؤلاء الزملاء قد أثبت مهارته عندما قال : «أليست هذه الأسطر من روايات» ؟ إن الصعوبة الأساسية في منهج كوللر تدور حول السؤال عن الكيفية التي يمكن أن يتسق بها المنهج فيما يتصل بالقواعد التفسيرية التي يستخدمها القراء . إنه يعترف بأن إجراءات القراء الماهرين تختلف حسب النوع والحقبة الأدبية . ولكنه لا يأخذ بعين الاعتبار الاختلافات الإيديولوجية العميقة بين القراء ، تلك التي تقوض الضغوط المؤسسية للامثال في ممارسات القراءة ، فمن الصعب التفكير في مصفوفة من القواعد التفسيرية يمكن أن تنتج في حقبة واحدة حول نصوص فردية . وعلى أية حال ، فإنه يمكن التسليم بوجود أي كيان نطلق عليه اسم القارئ الماهر الذي نحدده بوصفه نتاج المؤسسات التي نسميها «النقد الأدبي» .

إن البنيوية تجتذب بعض نقاد الأدب لأنها تعد بأن تأتي بالموضوعية والدقة إلى المجال الرهيف للأدب . ولكن هذه الدقة لها ثمنها ؛ إذ عندما يضع البنيوي «الكلام» موضع الإذعان إلى «اللغة» فإنه يتجاهل الخصوصية الفعلية للنصوص ، ويعامل هذه النصوص كما لو كانت نماذج من برادة للحديد أنتجت قوة خفية . وليس الخطر مقصورا على النص مع هذا الثمن ،

إذ ينتهى البنىوى إلى إلغاء المؤلف عندما يضع - بين قوسين - العمل الفعلى والشخص الذى أنتجه، فى سبيل عزل الموضوع الحق لبحثه - وهو النسق. وقد كان المؤلف - فى الفكر الرومانسى التقليدى - هو الكائن المفكر الذى يعانى، والذى يسبق بوجوده العمل، بل الذى تغذى تجربته العمل وترفده، فهو منبع النص وخالقه وجده الأعلى. هذا المؤلف يتم نفيه لحساب الكتابة عند البنىويين، بالمعنى الذى لايجعل للكتابة أصلا، فكل ممارسة فردية تسبقها لغة، وكل نص مصنوع مما هو (مكتوب من قبل).

وعندما يقوم البنىويون بعزل النسق لدراسته فإنهم يقومون بإلغاء التاريخ، فتغدو الأبنية التى يكتشفونها كلية لازمنية (لعقل إنسانى، مجرد)، أو أبنية هى أجزاء اعتباطية من عملية متغيرة متحولة أبدا. وما يميز الأسئلة التاريخية تحديدا أنها أسئلة عن التغير والابتداع، ولكن البنىويين يضطرون إلى استبعاد هذه الأسئلة فى سبيل عزل النسق، فلا يهتمون بتطور الرواية أو تحول أشكالها الأدبية من الإقطاع إلى النهضة مثلا، بل يهتمون ببنية القص فى ذاتها، وداخل نسق جمالى يحكم العصر الذى يتحدثون عنه. ومن هنا، فإن منهجهم ساكن، غير تاريخى بالضرورة، منهج لا يهتم بلحظة إنتاج القص (أى سياقه التاريخى وصلاته الشكلية بالكتابة السابقة، إلخ) ولا بلحظة استقبال النص (أى التفسيرات المفروضة على هذا النص بعد إنتاجه).

ولاجدال فى أن البنىوية تطرح تحديا أساسيا على ما هو سائد من النزعة النقدية التى تواصل تقاليد الدكتور ليفز / Dr. Leavis وعلى الأنماط إنسانية النزعة فى الممارسة النقدية بوجه عام. هذه الأنماط السائدة تنظر إلى اللغة بافتراض أنها شئ قادر على الإمساك بالواقع، وتتصور اللغة بوصفها انعكاسا لعقل الكاتب أو انعكاسا للعالم على نحو ما يراه الكاتب، وذلك بالمعنى الذى لايفصل لغة الكاتب عن شخصيته أو بالمعنى الذى يجعلها

تعبيراً عن وجود المؤلف نفسه. ولكن المنظور السوسيرى للغة يقرب ذلك كله رأساً على عقب، ليولى الانتباه كله إلى اللغة السابقة فى وجودها، ففى البدء كانت الكلمة، والكلمة هى التى خلقت النص. وبدل القول التقليدى بأن لغة المؤلف تعكس الواقع يأتى القول البنيوى بأن بنية اللغة تنتج «الواقع». وفى ذلك، تعرية للسر الصوفى Demystification للأدب، بحيث لا يغدو مصدر المعنى راجعاً إلى تجربة الكاتب أو القارئ بل إلى العمليات والتعارضات التى تحكم اللغة، ولا يتحدد المعنى بواسطة الفرد بل بواسطة النسق الذى يحكم الفرد.

وهناك طموح علمى تنطوى عليه قراءة البنيوية، طموح يسعى إلى اكتشاف الشفرات والقواعد والأنساق الكامنة وراء كل الممارسات الإنسانية والاجتماعية والثقافية، وهو طموح يماثل بين نماذج المسعى البنيوى ونماذج المسعى المعرض فى مجالات الأركيولوجيا والجيولوجيا، حيث يغدو مانراه على السطح مجرد آثار لتاريخ أعمق، وحيث لانملك سوى الحفر تحت السطح لاكتشاف الطبقات الجيولوجية أو المستويات التحتية التى تزودنا بالتفسيرات الصحيحة لما نراه على السطح. ويمكن للمرء القول إن كل علم بنيوى بهذا الاعتبار، فنحن نرى الشمس تتحرك عبر السماء، ولكن بالعلم وحده نكتشف البنية الحقة لحركة الأجرام السماوية (ومع ذلك، فلا يملك المرء إلا أن يتسائل مع جورج مور فى رواية «الواثيون» لستوبارد: ماذا كان يصبح الحال لو ظهر أن الأرض كانت تدور على محور؟).

وسوف يدرك القراء الذين عندهم فكرة سابقة عن الموضوع أننى لم أعرض سوى النمط «القديم» من البنيوية - لسبب عملى - فى هذا الفصل، هذا النمط يؤمن أنصاره بوجود مجموعة من العلاقات (تعارضات، أو مساقات وظيفية، أو قضايا، أو قواعد نحوية) تكمن وراء الممارسات

الفعلية، وأن أنواع الأداء الفردى تصدر عن أبنية تحددها بالطريقة التى تحدد بها الطبقات الجيولوجية التحتية المنظر الطبيعى الذى يعلوها، فالبنية - فى هذا النمط - أشبه بالمركز أو نقطة الأصل التى تحل محل غيرها من نقاط الأصل (الفردية أو التاريخية). ولكن عرضى لإسهام جيرار جينيت قد أظهر أن تحديد التعارض نفسه داخل الخطاب القصصى يستهل تلاعبا لمعنى يقاوم أى عملية بناء Structuration ثابت ساكن. مثال ذلك التعارض بين «الوصف» و«السرد»؛ حيث يتجه التعارض إلى تشجيع «إشارة» السرد (فالوصف ثانوى بالقياس إلى السرد، والسارد يصف على نحو عابر عندما يسرد). ولكن إذا ساءلنا هذه الثنائية المترتبة من التعارض سهل علينا أن نقلبها رأسا على عقب، بإظهار أن «الوصف» هو العنصر المهيمن آخر المطاف، فكل سرد يتضمن وصفا. وبهذه الطريقة نبدأ فى فك البنية التى تمركزت حول «السرد». هذه العملية من «التفكيك» Deconstruction التى يمكن إطلاقها فى نواة البنيوية نفسها هى أحد العناصر الرئيسية فيما نسميه الآن «مابعد البنيوية» Post Structuralism.

قراءات مختارة

نصوص أساسية

Barthes, Roland,

Elements of Semiology, trans. A. Lavers and C. Smith (Jonathan Cape, London, 1967).

Barthes, Roland,

Writing Degree Zero, trans. A. Lavers and C. Smith (Jonathan Cape, London, 1967).

Barthes, Roland,

Critical Essays, trans. R. Howard (Northwestern University Press, Evanston, Illinois, 1972).

De Saussure, Ferdinand,

Course in General Linguistics, trans. W. Baskin (Fontana/ Collins, London, 1974).

Ehrmann, Jacques (ed.),

Structuralism (Doubleday, Anchor Books, New York, 1970).

Genette, Gérard,

Narrative Discourse (Blackwell, Oxford, 1980).

Genette, Gérard,

Figures of Literary Discourse, trans. A. Sheridan (Blackwell, Oxford, 1982), Esp. chap 7, "Frontiers of narrative".

Jakobson, Roman,
"Linguistics and poetics" In *Style in Language*, ed. T. Sebeok
(MIT Press, Cambridge, Mass., 1960), pp. 350-77.

Jakobson, Roman, (with M. Halle).
Fundamentals of Language (Mouton, The Hague and Paris,
1975).

Lane, Michael (ed.),
Structuralism: A Reader (Jonathan Cape, London, 1970)

Lévi- Strauss, Claude,
Structural Anthropology, trans. C.Jacobson and B.G.Schoepf
(Allen Lane, London, 1968), esp. chaps 2 and 11.

Lodge, David,
*The Modes of Modern Writing: Metaphor, Metonymy and The
Typology of Modern Literature* (Arnold, London, 1977).

Propp, Vladimir,
The Morphology of the Folktale (Texas University Press, Aus-
tin and London, 1968).

Todorov, Tzvetan,
The Fantastic: a Structural Approach to a Literary Genre, trans.
R. Howard (Cornell University Press, Ithaca, 1975).

مقدمات

Culler, Jonathan
*Structuralist Poetics: Structuralism, Linguistics and the Study of
Literature* (Routledge & Kegan Paul, London, 1975).

Hawkes, Terence,

Structuralism and Semiotics (Methuen, London, 1977).

Robey, David (ed.),

Structuralism: an Introduction (Clarendon Press, Oxford, 1973).

Scholes, Robert,

Structuralism in Literature: An Introduction (Yale University Press, New Haven and London, 1974).

Todorov, Tzvetan,

Introduction to Poetics, trans. R. Howard (The Harvester Press, Brighton, 1981).

قراءات إضافية

Dobrovsky, Serge,

The New Criticism In France, trans. D. Coltman (University of Chicago Press, Chicago and London, 1973).

Heath, Stephen,

The Nouveau Roman: a Study in the Practice of Writing (Elek, London, 1972), chap. 1.

Jameson, Fredric,

The Prison-House of Language: A Critical Account of Structuralism and Russian formalism (Princeton university Press, Princeton and London, 1972).

الفصل الرابع

نظريات ما بعد البنيوية

نظريات ما بعد البنيوية

تمخضت البنيوية عن «مابعد البنيوية» في أواخر الستينيات على وجه التقريب. ويرى بعض المعلقين أن «مابعد البنيوية» كانت بمثابة تطور لجوانب متضمنة في البنيوية نفسها، على نحو يمكن معه القول إن «مابعد البنيوية» ليست سوى ثمرة لهذه الجوانب المتضمنة. غير أن هذا الرأي ليس مقنعا كل الإقناع، فمن الواضح أن مابعد البنيوية تنقص من قدر الدعاوى العلمية للبنيوية. وإذا كانت البنيوية ذات نزعة بطولية في رغبتها في السيطرة على عالم العلامات التي يصنعها الإنسان، فإن مابعد البنيوية تسخر من هذه النزعة وتهزأ بدعاويها. ولكن سخرية مابعد البنيوية من البنيوية إنما هي نوع من التهكم الذاتي، فسمثلوا مابعد البنيوية هم بنيويون اكتشفوا خطأ طرائقهم على نحو مفاجئ.

ومن الممكن تلمس بدايات الحركة المضادة التي انطوت عليها مابعد البنيوية في نظرية دي سوسير اللغوية نفسها. لقد رأينا أن اللغة *Langue* هي الجانب النسقي الذي يعمل بوصفه أساسا تحتيا للكلام *Parole* أو الحالات الفردية للنطق أو الكتابة، ورأينا أن العلامة *Sign* بدورها ثنائية تنقسم إلى

دال ومدلول؛ هما أشبه بوجهي العملة الواحدة. ومع ذلك، فقد لاحظ دى سوسير عدم وجود صلة ضرورية بين الدال والمدلول، فأخيانا تؤدي كلمة واحدة (أو دال واحد) في لغة من اللغات مفهوميين (أو مدلولين) مختلفين، كما يحدث في الكلمة الفرنسية Mouton التي تؤدي مدلولين تعبر عنهما. اللغة الإنجليزية بكلمتين: تشير أولاهما إلى الحيوان نفسه وهو «الضأن» Sheep وتشير ثانيتهما إلى لحم «الضأن» Mutton. ويبدو الأمر - عند دى سوسير - كما لو كانت اللغات المتنوعة تصوغ عالم الأشياء والأفكار، في مفاهيم (مدلولات) اختلافية من ناحية، وكلمات (دوال) اختلافية من ناحية ثانية، على نحو يقول معه دى سوسير: «إن النسق اللغوي سلسلة اختلافات لأصوات. تتضام مع سلسلة اختلافات لأفكار. ومعنى هذا القول أن الدال «هجم»^(١) - على سبيل المثال - لا يؤدي دوره بوصفه جانباً من علامة إلا لأنه يختلف عن «هزم» و «هدم» و «هشم» و «هضم» إلخ. هذه «الاختلافات» يمكن أن تتماشى مع اختلافات لأفكار، ولذا يخلص سوسير إلى ملاحظته الشهيرة: «لا يوجد في اللغة سوى اختلافات بلا مصطلحات موجبة». غير أن سوسير ينبهنا - قبل القفز إلى استنتاج خاطئ - إلى أن هذه الملاحظة لا تصح إلا إذا نظرنا إلى طرفي الدال والمدلول على نحو منفصل. أما إذا وصلنا بين الطرفين في النظر، فإننا سنلاحظ نزوعاً طبيعياً يبحث به كل مدلول عن دال له يشكل معه وحدة موجبة. هذا النوع من تأكيد ثبات الدلالة أمر طبيعي لمفكر لم يتعرف إسهام فرويد في التحليل النفسي. فعلى الرغم من أن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية، فإن المتكلمين - في ممارستهم الكلام - يحتاجون إلى الربط بين كل دال

(١) استبدلت بالمثال الإنجليزي في الأصل مثالا عربياً لتوضيح المقصود.

معين ومفهوم معين ربطاً وثيقاً، ومن ثم يفترضون أن الدال والمدلول يشكلان معاً كلاماً متحداً ويحتفظان بوحدة معينة فى المعنى.

لقد اكتشف فكر مابعد البنيوية الطبيعة التى هى فى أساسها غير ثابتة للدلالة، فالعلامة - فى هذا الفكر - ليست وحدة ثابتة ذات جانبين، كأنها «لاصق» يلصق مؤقتاً طبقتين متحركتين. لقد أدرك سوسير من قبل أن الدال والمدلول نسقان منفصلان، ولكنه عجز عن أن يدرك إلى أى حد يمكن أن تصبح وحدات المعنى غير ثابتة عندما يتلاقى هذان النسقان، وبعد أن أثبت أن اللغة نسق كلى مستقل عن الواقع المادى حاول أن يبقى على الإحساس بتلاحم العلامة، على الرغم من أن قسمته العلامة نفسها إلى قسمين (دال / مدلول) كانت تهدد بتفكيك هذا التلاحم، أما ممثلو مابعد البنيوية فإنهم يفصلون شطرى العلامة بطرائق متباينة.

وهنا قد نتساءل: ألا يتأكد هذا الفصل فى كل مرة تستخدم فيها المعجم لإيجاد معنى (أو مدلول) لكلمة (أو دال)؟ ولكن من الواضح أن المعجم لا يجزم بشئ سوى الإرجاء الحاسم للمعنى، إذ نجد فيه كل دال مجموعة من المدلولات (حيث كلمة «الشكل» - على سبيل المثال - تدل على الملتبس من الأمر، وهيئة الشئ وصورته، والتشبه والمثل، وما يناسب ويصلح، وصورة الدليل التى تختلف باختلاف نسبة الحد الأوسط إلى الحدين الأصغر والأكبر عند المنطقة^(٢)). ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل يتحول كل واحد من المدلولات إلى دال يمكن تتبعه - بدوره - فى مجموعة مدلولاته فى المعجم (حيث ترتبط كلمة «الملتبس» - مثلاً - باللبس واللبسة واللباس والملابسة والتلبيس واللبوس واللبيس، وتشير إلى

(٢) استبدلت بالمثال الإنجليزية مثلاً عربياً للتوضيح.

الثوب والغطاء، والاستتار والاختفاء، والتعمية والشبهة، والاحتمال والمكابدة، والتغافل، والاتصال والاختلاط والمزاولة، والتعلق والمخالطة والعشرة، والحالة المتغيرة، والاستعمال والاستمتاع.. إلخ). وتمضى هذه العملية إلى مالا نهاية، كما لو كان كل دال يتحول إلى نوع من الحرباء التى تبدل ألوانها مع كل سياق جديد. وينصب قدر كبير من جهد حركة مابعد البنيوية على تتبع هذا القلب الملحاح لنشاط الدال، وذلك فى تشكيكه مع غيره من الدوال سلاسل وتيارات متقاطعة من المعنى، يتأبى معها على المتطلبات المنظمة للمدلول.

رولان بارت: النص الجمع:

كان بارت، بغير شك، أكثر المنظرين الفرنسيين جرأة وذكاء وقدرة على جذب الانتباه طوال الستينيات والسبعينيات. ولقد مرت حياته العملية بأكثر من منعطف، ولكنه ظل على اهتمامه بموضوع أساسى هو عرفية كل أشكال التمثيل Representation وقد حدد الأدب (فى مقال مبكر) بوصفه: «رسالة عن دلالة الأشياء وليس عن معناها، وأقصد بالدلالة تلك العملية التى تنتج المعنى بوجه عام، وليس هذا المعنى أو ذاك»؛ وذلك لتحديد يردد صدى تعريف ياكوبسون الذى حدد «الشعرى» Poetic^(٣) بوصفه

(٣) وذلك فى المخطط السداسى الذى عين به ياكوبسون وظائف «الحدث الكلامى»، حسب عناصره الستة: الشفرة، والرسالة، والسياق، والاتصال، والمرسل (المخاطب) والمستقبل (المخاطب)، وجعل الوظيفة شارحة فى حالة التركيز على الشفرة، وشعرية فى حالة التركيز على الرسالة بوصفها فعلا مبنيا، وإشارية فى حالة التركيز على السياق، واتصالية فى حالة الاتصال، وانفعالية فى حالة المرسل، وطلبية فى حالة المستقبل، وقد أفاد المؤلف من هذا المخطط فى تقسيم كتابه، حسب ما أشار إليه فى المقدمة.

«تركيزاً على الرسالة»، ولكن تحديد بارت يؤكد «عملية الدلالة التي كان يعتقد، كلما مضى قدماً في عمله التأليفى، أنها أقل قابلية للتنبؤ، فأسوأ خطيئة يمكن أن يقترفها الكاتب - عند بارت - هي ادعاء أن اللغة وسيط طبيعى شفاف، يستطيع القارئ من خلاله إدراك «حقيقة»، أو «واقع» صلب متحد. أما الكاتب المبدع فيعى أن كل كتابة إنما هي عمل مصنوع، ويمضى فى التلاعب بها، غير أن الإيديولوجيا البرجوازية - وهى العدو اللدود لبارت - تدعم النظرة الأثمة إلى القراءة بوصفها عملية طبيعية، وإلى اللغة بوصفها أداة شفافة. وإذا كانت الإيديولوجيا البرجوازية لا تكف عن النظر إلى الدال بوصفه قريناً ثابتاً لمدلول لا يفارقه، لتقمع كل خطاب فى معنى واحد، فإن الكتاب الطليعيين يتيحون المجال للغة اللاوعى كى تبرز إلى السطح، ويحررون الدوال كى تولد معنى حين تشاء، وتدمر رقابة المدلول وإلحاحه القمعى على معنى واحد.

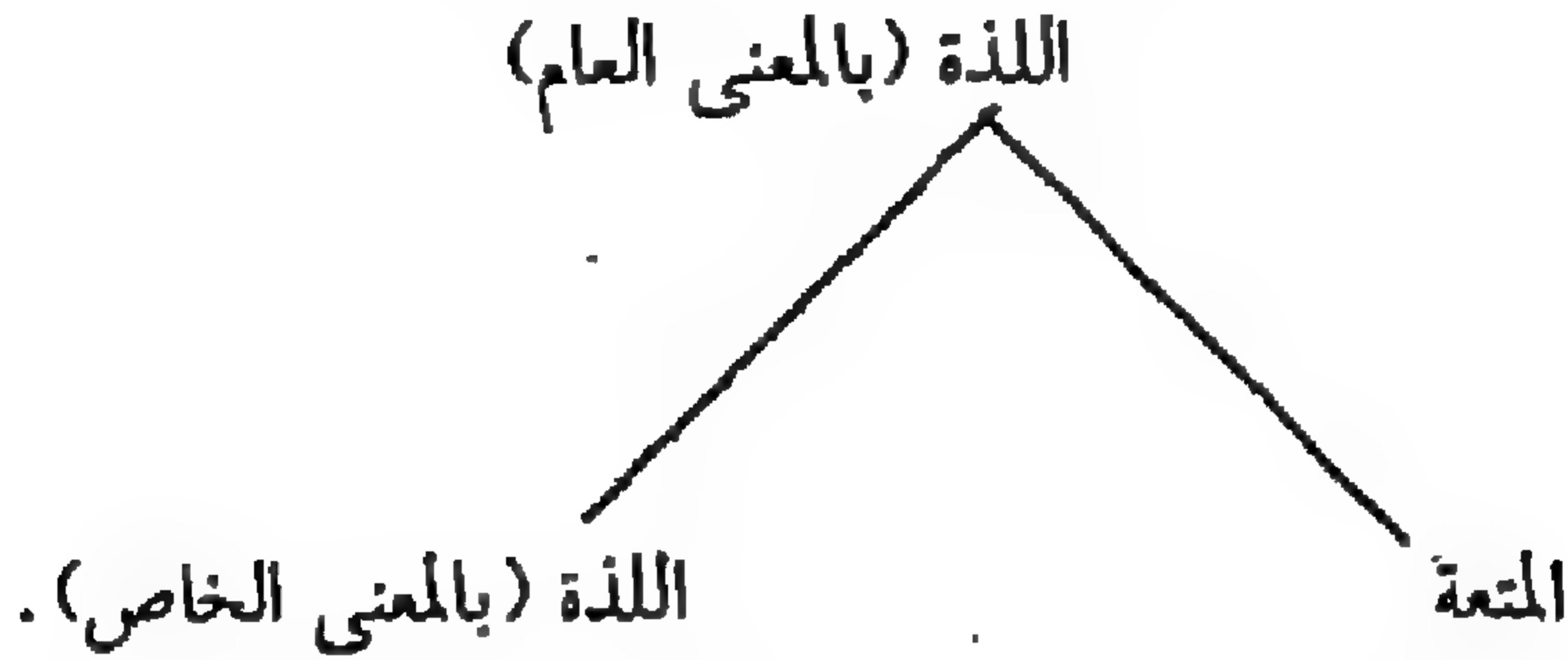
وما يميز المرحلة ما بعد البنيوية لبارت هو تخليه عن المطامح العلمية [التي كان يعلنها فى مرحلته البنيوية]. لقد آمن - فى «مبادئ السميولوجيا» (١٩٦٧) - أن المنهج البنيوى قادر على تفسير كل أنساق العلامة فى الثقافة الإنسانية، ولكنه أدرك - فى الكتاب نفسه - أن الخطاب البنيوى يمكن أن يغدو هو ذاته موضوعاً للتفسير، حين يلاحظ الباحث السميولوجى لغته من حيث هى «نظام ثان» من الخطاب، يعمل بطريقة متباعدة عن لغة الموضوع التى هى «نظام أول». وحين أدرك بارت أن أية لغة شارحة يمكن أن توضع موضع لغة «النظام الأول»، كما يمكن أن تخضع لمساءلة لغة شارحة أخرى، فقد فطن إلى وجود دور لانهاية له (أى إشكال منطقى لا يحل)، يقضى على سلطة جميع اللغات الشارحة. ومعنى ذلك أننا، عندما نقرأ بوصفنا نقاداً، لانستطيع أبداً أن نتجاوز نطاق الخطاب، وأن نتخذ موقفاً يتأبى على أية قراءة مساءلة لاحقة، مما يعنى أن كل ألوان

الخطاب - بما فيها التفسيرات النقدية - مستوى في كونها تخيلية fictive، وأنه لا يوجد خطاب منها يستأثر بالحقيقة.

وأفضل ما يمثل المرحلة ما بعد البنيوية لبارت هو مقاله القصير عن «موت المؤلف» (١٩٦٨)، حيث يرفض النظرة التقليدية التي ترى في المؤلف أصل النص ومصدر معناه والسلطة الوحيدة لتفسيره. وعند ياده النظر، تبدو نظرة بارت - في هذا المقال - كأنها تأكيد للمعتقد المؤلف للنقد الجديد عن استقلال العمل الأدبي أو «اكتفائه بنفسه» عن مهاده التاريخي وعن حياة صاحبه، فلقد آمن النقاد الجدد أن وحدة النص لا تكمن في مقصد المؤلف بل في بنية النص. ولكن لهذه الوحدة المكتفية بنفسها صلات خفية بمؤلفها، لأنها - فيما يرى النقاد الجدد - تمثيل بسنن لغوية معقدة (أو إيقونة لغوية) تناظر حدوس المؤلف عن العالم. أما فكرة بارت عن «المؤلف» فهي فكرة جذرية تماما في رفضها لمثل هذه الأفكار «الإنسانية» التي ينطوى عليها النقد الجديد. إن «المؤلف» - عنده - عار تماما من كل مكانة ميتافيزيقية، ويتحول إلى مجرد مساحة (مفرق طرق) تلتقى وتعيد الالتقاء فيها اللغة التي هي مخزون لانتهائي من حالات التكرار والأصداء والاقتباسات والإشارات، على نحو يغدو معه القارئ حرا تماما في أن يدخل النص من أى اتجاه يشاء، فليس هناك طريق هو وحده الذى يعد صائبا. صحيح أن فكرة موت المؤلف متضمنة بالفعل في البنيوية التي تعالج الممارسات الفردية أو «الكلام» على أنها نتاج لأنساق لاشخصية (أو لغات)، ولكن الجديد عند بارت - في مرحلة ما بعد البنيوية - هو الفكرة التي ترى أن القراء أحرار في فتح العملية الدلالية للنص وإغلاقها دون أى اعتبار للمدلول، وعلى نحو يغدو معه القراء أحرارا في أن ينالوا لذتهم من النص، وأن يتابعوا - حين يشاءون - تقلبات الدال وهو ينساب وينزلق مراوغا قبضة

المُدلول. وإذا كان القراء - بدورهم - مواقع من إمبراطورية اللغة، فإن لهم الحرية في ربط النص بأنساق من المعنى، وفي تجاهل «مقصد» المؤلف.

ويستكشف بارت هذا التحرر الطليق للقارئ في كتابه «لذة النص» (١٩٧٥)، حيث يبدأ بالتمييز بين معنيين «للذة».



فداخل اللذة بمعناها العام توجد «المتعة» *Jouissance* ويوجد شكلها الخفيف وهو «اللذة» *Pleasure* بمعناها الخاص. اللذة العامة للنص هي كل ما يتجاوز المعنى المفرد الشفاف، هي ما يتولد فينا عندما نرى صلة أو مدى أو إشارة حين نقراء، فهذا الانتهاك للتدقيق المتتابع البرئ للنص هو ما يمنحنا اللذة، أى أن اللذة تتضمن إقامة اتصال (وصلة، لفقة، أو لحمية) بين سطحين، وإذا كان الموضع الذى يتلاقى فيه اللحم العارى مع الشوب هو بؤرة اللذة الشهوية، فإن مثل هذا التأثير يحدث - فى النصوص - عندما نقيم ارتباطا بين شئ. خارج عن المؤلف، أو مرذول، واللغة العارية. ولكن هناك «اللذة» الأخرى التى نخلقها حين نقراء رواية واقعية، إذ نطلق العنان لأنفسنا فتتجول أو تثب فوق أجزاء: «إن إيقاع مانقراً وما لانقراً هو بعينه ما يخلق لذة القص العظيم». ويصدق ذلك بوجه خاص على قراءة الكتابات الجنسية (رغم أن بارت يؤكد أن «الأدب الماجن» لا ينطوى على نصوص تجلب المتعة لأنه يجهد نفسه أكثر مما ينبغى لكى يمنحنا الحقيقة النهائية). أما قراءة اللذة المحصورة فى حدود أضيق فهي ممارسة مريحة تمشى مع العادات

الثقافية، وذلك على النقيض من قراءة نص المتعة الذى «يزعزع المسلمات التاريخية والثقافية للقارئ.. ويفجر أزمة فى علاقته باللغة». ومن الواضح أن مثل هذا النص لا يتمشى مع ذلك النوع البسيط من اللذة الذى يتطلبه اقتصاد السوق، بل إن بارت يرى أن «المتعة» قريبة كل القرب من السأم، فالمؤكد أن القراء لن يجدوا فى نصوص نزعة الحداثة سوى هذا السأم إذا قاوموا الإحساس بالنشوة الذى يولده انهيار المسلمات الثقافية القائمة. ترى كم من القراء تمتع حقاً بقراءة رواية «فينجانزويك» Finnegans لجيمس جويس؟

وأكثر كتب بارت إثارة للإعجاب فى مرحلته بعد البنيوية هو كتاب "S/Z" ^(٤) (١٩٧٠)، حيث يبدأ بارت بالإلماح إلى عقم مطامح البنيويين من دارسى القص الذين يحاولون «حصر كل قصص العالم.. فى بنية واحدة، فمحاولة الكشف عن هذه البنية الواحدة إنما هى محاولة عقيم، لأن كل نص ينطوى على «اختلاف». هذا الاختلاف ليس من قبيل التفرد وإنما نتيجة الخاصية النصية نفسها، فكل نص يرجعنا بطريقة مختلفة إلى بحر لانهائى هو «المكتوب من قبل»؛ صحيح أن بعض أنواع الكتابة تحاول أن تشفى القارئ عن إعادة وصل النص بهذا «المكتوب من قبل» بواسطة الإلحاح على معنى بعينه وإشارة بعينها، مثلما تفعل الرواية الواقعية التى

(٤) العنوان يشير إلى الثنائية الضدية بين حرفى (S) و (Z) على مستوى النطق الصوتى من ناحية، وعلى مستوى نسبة الاسم الواحد إلى المذكر والمؤنث من ناحية ثانية، وعلى مستوى تعدد الأشياء ونسبيتها التى تبعث على الشك فى أية حقيقة أو صفة ثابتة من ناحية أخيرة. وعلى أى حال، فالحرفان يصوغان الخلاف بين اسمى Sarra- Sarrazin sine فى حالتى التذكير والتأنيث.. وقصة بلزاك (ساراسين) تتحدث عن امرأة نكتشف فيما بعد أنها رجل - أو خصى.

تقدم نصا «منغلقا» على معنى محدود، ولكن هناك نصوصا أخرى طليعية تشجع القارئ على إنتاج المعانى، فالأنا القارئة هى نفسها «كثرة من نصوص أخرى»، والنص الطليعى يتيح لهذه الأنا أقصى درجة من الحرية فى إنتاج المعانى، عن طريق إيجاد صلة بين المقروء وهذه الكثرة. وإذا كان النوع الأول من النص «المنغلق» لا يسمح للقارئ إلا بأن يكون مستهلكا لمعنى ثابت، فإن النوع الثانى يحول القارئ إلى منتج. النوع الأول هو مايسميه بارت نص «القراءة» *Lisible* فى مقابل النوع الثانى الذى يسميه نص الكتابة *Scriptible*. وإذا كان نص القراءة يصنع لكى نقرأه (أو نستهلكه) فإن الثانى يصنع لكى نعيد كتابته (أو نتججه). غير أن النص الكتابة لا يوجد إلا على المستوى النظرى فحسب، رغم أن وصف بارت له يرمى إلى نصوص نزع الحداثة، إذ يصفه على النحو التالى:

«هذا النص المثل هو عالم كامل من الدوال، وليس بنية من المدلولات. وهو نص ليس له بداية.. فنحن نلججه من مداخل عدة، لا يحق لواحد منها أن يزعم، عن ثقة، أنه المدخل الرئيسى - إذ إن الشفرات التى يعثها هذا النص تمتد إلى أقصى ما تصل إليه العين».

ولكن ما الشفرات؟ إنها ليست الأنساق البنيوية لمعنى يمكن أن نتوقعه، كما يوضح الاقتباس السابق. وأيا كانت الأنساق التى نختارها لنطبقها على النص (ماركسية أو شكلية أو بنيوية أو تحليلية نفسية) فإنها لا تستطيع أن تقوم بشئ أكثر من تنشيط صوت أو أكثر من الأصوات اللإنهائية للنص. وبقدر اختلاف وجهات النظر التى يتخذها القارئ فإن معنى النص يتم إنتاجه فى شذرات وفيرة لا تنطوى على وحدة كامنة. وكتاب «S/Z» هو قراءة لرواية بلزاك القصيرة «ساراسين» التى يقسمها إلى

خمسمائة وإحدى وستين مفردة (وحدات قراءة) Lexia^(٥). ويقرأ بارت هذه المفردات متعاقبة، من خلال شبكة تتألف من خمس شفرات Codes^(٦) :

تأويلية	Hermeneutic
دلالية	Semic
رمزية	Symbolic
أحداث	Proairetic
ثقافية	Cultural

أما الشفرة التأويلية فتهمم «باللغز» الذى ينشأ حين يستهل الخطاب، وحين نطرح أسئلة من قبيل: ما الموضوع؟ ماذا يحدث؟ ما العقبة أو المشكلة؟ من الذى ارتكب القتل؟ كيف سيتحقق هدف البطل؟ وهى أسئلة تظهر أوضح ماتكون فى الرواية البوليسية التى يطلق عليها أحيانا صيغة السؤال: «من فعلها؟» وذلك للفت الانتباه إلى الأهمية الخاصة للغز فى هذا النوع من الرواية. ويدور اللغز فى «ساراسين» حول شخصية لازامبينلا Lazambinella. ولكن قبل أن يجاب فى النهاية عن السؤال: «من هى» - «هى» خصى يرتدى ثياب امرأة) - ينسج الخطاب من مجموعة متتابعة من

(٥) المفردة (وحدة القراءة) هى أصغر الوحدات النصية الدالة عند رولان بات فى كتابه «SZ». وقد تتضمن بضع كلمات أو تتسع لبضع جمل، على نحو تغدو معه المفردة بمثابة وظيفة (أو دالة بالمعنى المستخدم فى الرياضيات) لنمط القراءة الذى يتعامل به القارئ مع النص.

(٦) الشفرة مجموع السنن التى تخضع لها عملية إنتاج الرسالة وتوصيلها، والشفرة نسق من العلامات يتحكم فى إنتاج رسائل يتحدد مدلولها بالنسق فى علاقته بالمستقبل. وإذا كان إنتاج الرسالة نوعاً من «التشفير» Incoding فإن تلقى هذه الرسالة وتحويلها إلى المدلول هو «فك الشفرة» Decoding بواسطة تفاعل المتلقى مع الأطر المرجعية لهذه الشفرة ووظائفها التأويلية أو الدلالية أو الرمزية.. إلخ.

الإجابات المؤجلة: «هى»، «امرأة» (فخ) «مخلوق خارج الطبيعة»
(«التباين») «لا أحد يعرف» (إجابة مشوشة). أما الشفرة الدلالية فتهتم
بالمعاني الضمنية التى يستثيرها التشخيص أو الوصف فى كثير من الأحيان،
حيث يؤجج وصف باكر لزامبينيلا - على سبيل المثال - السمة الدلالية
الخاصة بمعان من قبيل «الأنوثة» و«الثروة» و«الأثيرة». أما الشفرة الرمزية
فتهتم بالتعارضات والتقابلات التى تتيح تعدد المعانى وقابليتها للانعكاس.
وهى تدل على أنماط من العلاقات الجنسية والنفسية يمكن أن تربط بين
البشر، مثال ذلك شخصية ساراسين التى يقدمها إلينا الخطاب فى علاقة
رمزية هى علاقة «أب وابن» («كان الابن الوحيد لمحام...») ، وهى علاقة
يلعب فيها غياب الأم (غير المذكورة فى النص) دورا دالا. وعندما يقدر
الابن ان يصبح فنانا لايعود «منفصلا» (أثيرا) لدى الاب، بل يصبح ملعونا
على نحو يبدو معه التضاد الرمزي. وتتطور عملية التشفير الرمزي للقص
عندما نقرأ - بعد ذلك - عن النحات العطوف بوشاردو الذى يحتل المكان
الخالى للأم ويسهم فى المصالحة بين الأب والابن. أما شفرة الأحداث فهى
الشفرة التى تتصل بالتعاقب (التتابع) المنطقى للحدث والسلوك، وقد حدد
بارت هذا التعاقب فيما بين المفردات ٩٥ - ١٠١، حيث تلمس صديقة
الراوى الخصى العجوز فتجفل متصببة بعرق بارد، وعندما يتزعج أقرباؤه،
تندفع إلى غرفة جانبية، وتلقى بنفسها فى رعب على أريكة. ويحدد بارت
هذا التعاقب (التتابع) على أنه خمس مراحل من الفعل المشفر: «يلمس»،
فهناك:

١ - اللمس

٢ - رد الفعل الخاص

٣ - رد الفعل العام

٤ - الفرار

٥ - الاختباء.

هذه المراحل تشكل تعاقبا يدركه القارئ - بتطبيق الشفرة، على نحو لاواع - بوصفه أمرا «طبيعيا» أو «واقعيًا». وأخيرا، فإن الشفرة الثقافية تتضمن كل الإشارات إلى المخزون من «المعرفة» (الفيزيائية، والطبية، والنفسية والأدبية.. إلخ) التي يتجهها المجتمع. وقد كشف ساراسين عن عبقرية للمرة الأولى «فى واحد من هذه» الأعمال التي تتصارع فيها موهبة المستقبل مع فورة الشباب (المفردة ١٧٤). وعبارة «واحد من هذه» هى صيغة معتادة للإشارة إلى هذه الشفرة. ويلاحظ بارت هنا - على نحو بارع - إشارة ثقافية مزدوجة، تجمع بين شفرة العمر وشفرة الفن (أى الموهبة من حيث هى انضباط، والشباب من حيث هو «فورة»).

ولكن لماذا اختار بارت أن يدرس قصة صغيرة واقعية وليس نصا طليعيا من نصوص «المتعة»؟ إن ما قام به بارت من تمزيق للخطاب وتشتيت لمعانيه عبر مدونة الشفرات الموسيقية، يبدو بمثابة إنكار للوضع التقليدى للنص من حيث هو قصة واقعية، فالقصة تعرض على أنها «نص محدود» من نصوص الواقعية، لكن عناصر الازدواج فى الدلالة تدمر وحدة التقديم التمثيلى التى نتوقعها فى هذا النوع من الكتابات؛ فموضوع الخصاص والخلط بين الأدوار الجنسية، والغموض المحيط بأصول الثراء الرأسمالى - كل ذلك يدعونا إلى قراءة مضادة للتقديم التمثيلى، ويبدو الأمر - فى النهاية - كما لو كانت مبادئ ما بعد البيّنونة منقوشة بالفعل فى هذا النص الذى تُنسب إليه الواقعية.

جوليا كريستيفا: اللغة والثورة:

أهم إنجاز لكريستيفا فى دراسة المعنى الأدبى هو كتابها عن ثورة اللغة الشعرية (١٩٧٤)، حيث تنطلق من منظور فكرى مختلف عن منظور بارت؛ إذ تعتمد على التحليل النفسى لاستكشاف العملية التى لا تكف فيها العناصر «اللاعقلية» و«متغايرة الخواص» عن تهديد العناصر المنتظمة والمقبولة عقليا.

لقد ظل الفكر الغربى يسلم لوقت طويل بضرورة وجود «ذات» موحدة فمعرفة أى شئ تفترض وعيا موحدا يقوم بعملية المعرفة. وهذا الوعى أشبه بعدسة مركزة لا يمكن رؤية أى شئ دونها بوصفه موضوعا متميزا. والوسيط الذى تدرك به هذه الذات الموحدة الموضوعات والحقيقة هو التركيب النحوى Syntax. فالتركيب النحوى المنتظم يصنع ذهننا منتظما، ولكن الأحوال لم تكن على هوى العقل على الدوام، فقد كانت تهدده باستمرار الضجة المدمرة للذة (النبىذ، الجنس، الأغنية) وللضحك والشعر. وكان العقلانيون الخالص - من أمثال أفلاطون - ينظرون شذرا إلى هذه المؤثرات الخطرة التى يمكن تلخيصها كلها فى مفهوم واحد هو «الرغبة». ومن الممكن أن يتجاوز التأثير المهم لهذه العوامل المستوى الأدبى الخالص، ويمتد إلى المستوى الاجتماعى؛ إذ تكشف اللغة الشعرية عن الكيفية التى يمكن أن تقوض بها ضروب الخطاب الاجتماعى السائدة بإيجاد «مواقف» جديدة للذات، مما يعنى أن الذات ليست مجرد كيان فارغ ينتظر دوره الاجتماعى أو الجنسى، بل هى كيان متحرك in process قادر على أن يتجاوز نفسه.

وتقدم إلينا كريستيفا وصفا سيكولوجيا معقدا للعلاقة بين «العادي» Normal و«الشعري» Poetic^(٧) فالبشر هم، منذ البداية، ساحة تنساب عبرها الدوافع الجسمية والنفسية على نحو إيقاعي، هذا التدفق غير المحدد للدوافع ينتظم تدريجيا بواسطة قيود العائلة والمجتمع (تدريب الطفل على الإخراج الجنسي، فصل العام عن الخاص.. إلخ)، ففي المرحلة الأولى السابقة على المرحلة الأوديبية يتركز دفع الدوافع على الأم، ولا يسمح بتشكيل ملامح الشخصية بل يسمح فقط بتمييز غير دقيق لأجزاء الجسد وعلاقاتها. ويؤدي الدفع غير المنظم للحركات والإيماءات والأصوات والإيقاعات إلى إرساء دعامة للمادة السميوطيقية التي تظل فاعلة وراء الأداء اللغوي الناضج للبالغ. وتصف كريستيفا هذه المادة بأنها «سميوطيقية Sem-iotic لأنها تعمل بوصفها عملية دالة غير منظمة، نتعرف نشاطها في الأحلام، حيث تتشكل الصور تشكلات غير منطقية (انظر ماسيأتى عن لا كان فيما يتصل بنظرية فرويد).

في شعر مالارمي ولوتريامون، تتحرر هذه التشكلات الأولى للإيقاع والنمط الصوتي من اللاشعور (فهى لاشعورية فيما يرى لا كان). في حين أن كريستيفا ترجع استخدام الصوت في الشعر إلى الدوافع الجنسية الأولية، فالتضاد الصوتي بين كلمة «ماما» و«بابا» يضع الميم الأنفية في مقابل الباء الانفجارية، بحيث تشير الميم إلى فمية (نسبة إلى الفم) الأمومة، وترتبط الباء بشرجية الذكر^(٨).

(٧) التقابل بين «العادي» و«الشعري» يتجاوز الثنائية البسيطة بين النثرى / الشعري، والحقيقى / المجازى إلى ثنائية أكثر تعقيدا، وجذرية، بين مبدأ الواقع / مبدأ الرغبة. الإذعان / التمرد، الخنوع / الثورة، باختصار كل ما يضع الحدائى فى مواجهة التقليدى، أو «السميوطيقى» المتحرر فى مقابل «الرمزى» «الجامد»، أو ما قبل المرحلة الأوديبية قبل الإذعان إلى سلطة الأب واسمه (ومن ثم المجتمع) فى مواجهة المرحلة الأوديبية التى يمثل فيها الأب السلطة الاجتماعية وديكتاتورية الرموز.

(٨) الإشارة إلى المرحلتين: الفمية والشرجية فى نمو الطفل النفسى — كما ورد فى التحليل النفسى عند فرويد (المترجم).

وبقدر ماتنتظم المادة السيميوطيقية، فإن السبل المطروقة تغدو هي المنطوق، والتركيب النحوى المترابط، والعقلانية، كما تتمثل فى الإنسان البالغ، وتطلق عليها كريستيفا مصطلح «الرمزى» Symbolic. فالرمزى يتفاعل مع مادة السيميوطيقى Semiotic^(٩) ويحقق نوعا من الهيمنة عليه، ولكنه لا يستطيع أبدا أن ينتج مادته الدالة الخاصة به. ولكنه يضع الذوات فى مواضعها، ويتيح لها أن تكتسب هوياتها. وهنا، تتبنى كريستيفا تفسير لاكان الفرويدى لانبثاق هذه المرحلة.

إن كلمة «ثورة» فى عنوان كتاب كريستيفا ليست كلمة مجازية، فإمكان التغير الاجتماعى الجذرى يرتبط فى رأيها بالقضاء على ألوان الخطاب التسلطية. واللغة الشعرية تتيح الانفتاح الانقلابى للسيميوطيقى «عبر» النظام الرمزى «المغلق» للمجتمع، فما تسعى إليه نظرية اللاوعى «تمارسه اللغة الشعرية داخل النظام الاجتماعى وضده». وهى فى بعض

(٩) تستغل كريستيفا ماتنطوى عليه اللغة الفرنسية من إمكان تحويل معنى مصطلح إلى معنى مقابل، بواسطة تغيير علامات التذكير والتأنيث، فالسيميوطيقى (بعلامة التأنيث) La sémiotique هو علم العلامات الذى سبق شرحه، ولكن السيميوطيقى (بعلامة التذكير) يشير إلى التنظيم المتفجر، المتكشف، من داخل الجسد، للدوافع الغريزية، على نحو يؤثر فى اللغة وممارستها، وذلك عبر صراع جدلى مع الرمزى (بعلامة التذكير) lesymbolique الذى يرتبط بتأسيس أنظمة العلاقة، والذى لابد أن يتحداه السيميوطيقى (بعلامة التذكير) ليتجاوز هيمنته. والتقابل بين السيميوطيقى الرمزى على هذا النحو له صلة بتقابل آخر، هو الأصل، سيأتى شرحه عند لاكان، وكان الأجدد بالمؤلف، فى الواقع، أن يبدأ به قبل كريستيفا لأنه الأصل والأسبق. ولكن يبدو أنه ذكر كريستيفا بعد بارت لعلمه أنها تلميذته. هذا، ومن المؤكد أن لاكان (١٩٠١-١٩٨١) قد ترك تأثيره على بارت (١٩١٥ - ١٩٨٠) وعلى تلميذته كريستيفا التى ولدت عام (١٩٤١) فى بلغاريا والتى ذهبت إلى فرنسا (عام ١٩٦٦) حيث استقرت هناك.

الأحيان تنظر إلى شعر الحداثة بوصفه الشعر الذى يرهص فعلا بالثورة الاجتماعية الآتية فى المستقبل البعيد حين يصل المجتمع إلى تطوير شكل أكثر تعقيدا، غير أنها تعود - فى أحيان أخرى - فتبدى خشيتها من أن تتعافى الإيديولوجيا البرجوازية من هذه الثورة الشعرية بالتعامل معها على أنها صمام أمان للدوافع المكبوتة التى تنكرها هذه الإيديولوجيا فى المجتمع. كذلك، فإن نظرة كريستيفا إلى الكتابة النسائية بوصفها إمكاناً ثورياً فى المجتمع، تتسم بالقدر نفسه من الازدواجية (انظر الفصل الخامس).

جاك لاكان: اللغة اللاشعور:

طرح كتابات لاكان فى التحليل النفسى نظرية جديدة عن «الذات». وبعد أن كان النقاد الماركسيون والشكليون والبنويون يرفضون النقد «الذاتى» بوصفه نقدا رومانسيا رجعيا، قدم لاكان تحليلا ماديا عن «الذات المتكلمة». وكما يرى عالم اللغة إميل بنفنيست Emile Benveniste فإن «أنا» و«هو» و«هى» وغيرها مجرد مواضع للذات تعلنها اللغة، فعندما أتكلم «أنا»، فإنى أشير إلى نفسى بوصفى «أنا» وإلى الشخص الذى أخاطبه بوصفه «أنت»، ولكن عندما تجيب «أنت» فإن الوضع ينقلب فيصبح «أنا» «أنت»، و«أنت» «أنا»، ذلك لأننا لانستطيع إقامة الاتصال اللغوى بيننا إلا إذا قبلنا هذا الانعكاس الغريب للضمائر. ومن ثم فإن الذات التى تستخدم لفظ «أنا» ليست هى نفسها هذا الـ «أنا». وعندما أقول «أنا سأخرج غدا» فإن لفظ «أنا» الوارد فى هذه العبارة يعرف بأنه «الذات الفاعلة فى العبارة»^(١٠). أما الأنا التى تنطق العبارة فهى «الذات القائلة». ويعالج فكر

(١٠) هذه الفكرة لاتفهم بصورة كاملة إلا فى ضوء السمات الخاصة باللغة الإنجليزية، حيث تدل كلمة Subject على الذات، بالمعنى النفسى والفلسفى، من جهة، وتدل على الفاعل أو المبتدأ فى الجملة الخبرية، بالمعنى النحوى، من جهة أخرى.

مأبعد البنيوية بالدراسة الفجوة الفاصلة بين هاتين الذاتين بعد أن كان الفكر الرومانسى يسقطهما من حسابه.

ويرى لاكان أن الذات الإنسانية تدخل نسقا موجودا من قبل من الدوال التى لاتحدد معانيها إلا داخل نسق لغوى، فدخولنا فى اللغة هو الذى يمكننا من أن نجد وضعاً للذوات داخل نسق علائقى (ذكر/ أنثى، أب/ أم/ ابنة)، ويحكم اللاوعى هذه العملية والمراحل التى تسبقها.

ولقد كان فرويد يرى أن الدوافع الليبيدية (الجنسية) ليس لها، فى أول مراحل الطفولة المبكرة، موضوع جنسى محدد، وإنما تمرح حول المناطق الشهوية المتنوعة من الجسد (سواء كانت فمية، أو شرجية، أو قضيبية)، فقبل تحديد الجنس أو الهوية، ينفرد «مبدأ اللذة»^(١١) Pleasure principle بالسيطرة. وبعد ذلك يأتى مبدأ الواقع Reality principle متأخرا فى هيئة الأب الذى يهدد الرغبة الأوديبيية^(١٢) للطفل فى أمه بعقاب

(١١) مبدأ اللذة / مبدأ الواقع: مبدأن يحكمان النشاط العقلى، عند فرويد، إذ يهدف النشاط النفسى إلى تجنب الانزعاج والحصول على اللذة. وبقدر ماينجح مبدأ الواقع فى فرض نفسه مبدأ منظما، يسلك مبدأ اللذة على نحو يمكنه من تعديله وتحقيق الإشباع.

(١٢) معروف أن عقدة أوديب، عقدة لاواعية تفسرها نظرية التحليل النفسى، عند فرويد، بالإشارة إلى أسطورة زوديب، وتنشأ هذه العقدة لدى الابن بسبب تعلقه (الجنسى) بالأم، مما يسفر عن شعور بالذنب ومشاعر تحد للأب إلى أن تتحل العقدة بتقبل الطفل وضعه داخل المثلث الأوديبي (الأب والأم والطفل) واستيعابه القيم الاجتماعية التى يرمز الأب إلى سطوتها. وقد نظر جاك لاكان إلى هذه العقدة من منظور جديد، يرتبط بمفاهيمه البنيوية (اللغوية)، فأصبحت العقدة الأوديبيية أقرب إلى مسرحية يبدأ الصراع بين شخصياتها بتعرف الطفل مصطلحات القرابة، ولكن يصل الصراع.. إلى نسق الرموز اللغوية للمجتمع، ولكن علاقة الطفل الثنائية بأمه (التي تشبه العلاقة بين الدال والمدلول) تمهد السبيل لعالم الخطاب الرمزي الذى يرتبط بلفظ ثالث، وهو لفظ الأب الذى يتوسط بين الدال والمدلول، والذى يدخل معه الطفل إلى عالمنا الرمزي بتقبل اسم الأب وما يرتبط به من نواه وأمراف، وعلى نحو يقدو معه تقبل واسم الأب تقبلا للقانون الاجتماعى وانسق اللغة الذى يصنع الطفل ويصنعنا على السواء.

«الخصاء»، ويتيح كبت الرغبة للطفل الذكر أن يتحد مع مكان الأب ودور الذكر. أما المرحلة الأوديبية للطفلة الأنثى فأكثر تعرجا من رحلة الطفل الذكر، وتنطوي على مبالغة واضحة في دور العامل الجنسي، مما جعل فرويد محلا لهجوم ناقدات من الحركة النسائية (راجع الفصل السادس). وفي هذه المرحلة الأوديبية، يبدأ ظهور الأخلاق والقانون والدين، ويرمز إليها بوصفها، «القانون الأبوي»، كما تؤدي إلى تطور «الأنا العليا» للطفل، ولكن الرغبة المكبوتة لا تتبدد بل تظل كامنة في اللاشعور مما يؤدي إلى ذات منقسمة انقساما جذريا، بل إن قوة الرغبة هذه هي بعينها اللاشعور.

والواقع أن تمييز لاكان بين «الخيالي» Imaginary والرمزي Symbolic^(١٣) يناظر تمييز كرسنيف بين «السمبويقي» و«الرمزي»، فالخيالي - عند لاكان - حالة لا تنطوي على تمييز واضح بين الذات والموضوع، ولا توجد فيها أنا مركزية تفصل الموضوع عن الذات. ولكن،

(١٣) الخيالي/ الرمزي. مصطلحان يستخدمهما جاك لاكان لوصف تطور الطفل. وهما وثيقا الصلة بنظريته الأساسية عن مرحلة المرأة. أما مصطلح «الخيالي» فيرتبط بالمرحلة السابقة على المرحلة الأوديبية، ويتصل بالوضع الذي يبدأ فيه الطفل تعرف نفسه بتعرف جسد أمه (كأنه يتعرف نفسه في مرآة الآخر). وتغدو علاقته بالعالم علاقة ثنائية قوامها الاتحاد. ولذلك يغدو «الخيالي» بوجه عام بعدا نفتقد فيه أي مركز محدد للذات، وتتبادل فيه الذات الموضوع مع الموضوعات تبادلا منغلقا على نفسه لا يكف عن الحركة. ولكن هذه البنية الثنائية التي تدنى بطرفيها إلى الاتحاد سرعان ما تنفصل في المرحلة الأوديبية وتفتح، وتغدو بنية ثلاثية العناصر (أطرافها المثلث الأوديبى) عندما يدخل الأب قاطعا الصلة المباشرة بين الطفل والأم، فيدخل - بدخوله - القانون والمحرم الاجتماعى، ويدخل الطفل - بدوره - البعد الرمزي الذي يتعرف معه (من خلال اسم الأب) وجود شبكة أوسع من العلاقات هو طرف فيها، ويتعرف النظام اللغوى الذي يغدو مفعولا له وليس فاعلا فيه.

فى إطار هذه الحالة «الخيالية» ، يبدأ الطفل ، وهو فى مرحلة المرآة Mirror Phase^(١٤) السابقة على المرحلة اللغوية فى إسقاط نوع من الوحدة على صورة الذات المتجزئة فى المرآة (التي لا يتعين أن تكون مرآة فعلية) فينتج مثالا «وهميا» أو «أنا». هذه الصورة المرآوية التي ينتجها الطفل تظل خيالية فى جانب منها (فليس واضحا ما إذا كانت هذه الصورة للطفل أو لغيره) ولكنها تتمايز - فى جانب ثان منها - بأنها «آخر». ويستمر الميل الخيالى حتى بعد تشكيل الأنا، لأن أسطورة الشخصية الموحدة تعتمد على القدرة على تعرف موضوعات العالم بوصفها «أخرى» ، ولكن لا بد للطفل أن يتعلم أيضا تمييز نفسه عن الآخر لكي يصبح ذاتا مستقلة. وبفضل نواهى الأب، يندفع مباشرة إلى عالم «الاختلافات» «الرمزى» ، (أنثى / ذكر، أب / ابن، حاضر / غائب.. إلخ). والمؤكد - عند لا كان - أن القضيب Phallus (ليس العضو الجسمى بل رمزه) هو الدال المتميز الذى يساعد كل الدوال على تحقيق وحدتها مع مدلولاتها، فالقضيب فى المجال الرمزى هو الملك (وسرى - فيما بعد - مالدى ناقدات الحركة النسائية من كلام كثير حول هذه الفكرة).

ولكن لا الخيالى ولا الرمزى يمكنهما إدراك الواقع The Real إدراكا كاملا، إذ يظل هذا الواقع فى مكان ما بالخارج بعيدا عن مطالهما.

(١٤) مرحلة المرآة مرحلة نفسية سابقة على المرحلة الأوديبية عند جاك لا كان، فهى المرحلة قبل اللغوية التي تتميز ببعدها «الخيالى» (أو «السيميوطيقى» عند كريستيفا) وعمر بها الطفل ابتداء من الشهر السادس لولادته إلى الشهر الثامن عشر تقريبا، وتقوم على ما يقيمه الطفل من اتحاد خيالى مع صورته المنعكسة على المرآة وما يرتبط بهذا الاتحاد من آثار معرفية تسهم فى تطور عالم الطفل (الرجل المصغر) وتؤسس تعرفه بنفسه من حيث هو كائن متميز، وعلى نحو تغدو بجزءة الإشباع التي تحققها هذه المرحلة موازيا مجازيا لوحدة غير منفصلة بين الداخل والخارج، بل على نحو تغدو معه علاقة الطفل بصورته فى المرآة (أو مثلا) لعلاقته بأمه.

وتتشكل حاجاتنا Needs الغريزية بواسطة الخطاب الذى نعبر به عن مطلبنا .
فى الإشباع ، غير أن صياغة الخطاب لحاجاتنا لاتؤدى إلى الإشباع بل إلى
الرغبة التى تستمر فى سلسلة الدوال . فعندما أعبر «أنا» عن رغبتى بكلمات
فإن الأنا الخاصة بى تواجه دائما عقبات من هذا اللاشعور الذى لا يكف
عن الإلحاح بألاعيه الجانبية خلال بدائل وإحالات استعارية وكنائية تراوغ
الوعى ، لكنه - أى اللاشعور - يتكشف فى الأحلام والنكات والفن .

ويعيد لاكان صياغة نظريات فرويد بلغة دى سوسير ، فيوحد بين
عمليات اللاشعور والدال المتقلب . وقد رأينا كيف ضاعت سدى محاولات
دى سوسير لرأب الصدع بين النسقين المنفصلين للدوال والمدلولات ،
صحيح أن صلة ممكنة يمكن أن تنشأ بين الدال والمدلول عندما تدخل ذات
من الذوات النظام الرمزى وتقبل موضع «الابن» أو «الابنة» على سبيل
المثال ، ولكن الأنا لاتوجد حيث تظن بل توجد على محور الدال والمدلول
كائنا منقسما ، عاجزا أبدا عن أن يعطى لموضعه الحضور الكامل ، فالمدلول
«يتزلق» تحت دال «يطفو» ، فيما يفسر به لاكان العلامة ، وإذا كان فرويد
قد نظر إلى الأحلام بوصفها المتنفس الرئيسى للرغبات المكبوتة فإن لاكان
يعيد تفسير النظرية الفرويدية للأحلام بوصفها نظرية نصية . فاللاشعور يخفى
المعنى فى صور رمزية تحتاج إلى حل شفرتها ، وصور الأحلام تخضع إلى
عملية «تكثيف» (تجمع صورا متعددة) وعملية «إحلال» (تحولات الدلالة
من صورة إلى صورة مجاورة) ، يطلق لاكان على العملية الأولى مصطلح
«الاستعارة» ، بينما يطلق على الثانية مصطلح «الكناية» (راجع ياكوبسون ،
الفصل الثالث) . بعبارة أخرى ، يرى لاكان أن العمل الكامن والملغز للحلم
يتبع قوانين الدال . وفى الوقت نفسه ، ينظر لاكان إلى «آليات الدفاع» .

defence mechanisms^(١٥) عند فرويد بوصفها مجازات (سخرية، حذف.. إلخ)، وينظر إلى أى نوع من أنواع التحريف بوصفه التواء فى الدال وليس مجرد حافز غامض يسبق اللغة، وكل الدوال مشوهة عند لاكان. ومجمل القول إن التحليل النفسى عنده هو البلاغة العلمية للاشعور.

ولقد شجعت النزعة الفرويدية النقد الحديث على التخلّى عن الإيمان بقدرة اللغة على الإشارة إلى الأشياء والتعبير عن الأفكار أو المشاعر، فكثيرا ما يكون أدب الحداثة مشابها للأحلام فى تجنبه القول بوجود مركز مسيطر تحتله عملية القص، وفى تلاعبه الحر بالمعنى. ولقد كتب لاكان نفسه تحليلا مفصلا لقصة إدجار آلان بو «الرسالة المسروقة». وهى قصة مركبة من حلقتين. فى الحلقة الأولى، يلحظ الوزير قلق الملكة بسبب رسالة تركتها عرضة للأنظار، على طاولة لم يتبها إليها الملك الذى دخل حجرتها فجأة، فيستبدل الوزير بالرسالة رسالة أخرى مشابهة لها، دون أن تستطيع الملكة عمل شئ مخافة لفت انتباه الملك. وفى الحلقة الثانية، يرى دويان (المخبر الخاص) الرسالة مباشرة على حامل أوراق فى مكتب الوزير، بعد أن فشل مدير الشرطة فى العثور عليها فى منزل الوزير، فيعود إلى مكتب الوزير ويلهيه ليستبدل بالرسالة أخرى مشابهة لها. ويوضح لاكان أن محتويات الرسالة لم تعرف قط، وأن تطور القصة لا يتحدد بشخصية الأفراد أو محتويات الرسالة، ولكن بواسطة موضع الرسالة نفسها من حيث علاقتها بالشخصيات الثلاث

(١٥) آليات الدفاع هى الوسائل التى تستخدمها الأنا لتحمى نفسها من القلق الذى ينشأ عن مصادر ثلاثة: أولها ضغط الدافع الغريزى للـ «هو» لتحقيق الإشباع، وثانيها الضغط الأخلاقى الذى توقعه الأنا العليا لكبح الرغبة، وثالثها الخط الواقعى الذى يتمثل فى ألم أو ما أشبهه. وتمارس آليات الدفاع تأثيرها - إزاء هذه المصادر - لإزاحة القلق عن وعى الأنا.

فى كل حلقة، ويحدد لاكان هذه العلاقات، التى تندرج فيها الرسالة تبعا لثلاثة أنواع من «النظرة»، فالنظرة الأولى (نظرة الملكة ومدير الشرطة) لا ترى شيئا، والثانية (نظرة الملكة فى الواقعة الأولى، والوزير فى الثانية) ترى أن النظرة الأولى لا ترى شيئا ولكنها تعتقد أن سرها مصون، وأما الثالثة (نظرة الوزير دويان) فترى أن النظرتين الأولىين تتركبان الرسالة «الخفية» مكشوفة. وهكذا، فإن الرسالة تقوم بدور الدال، إذ تنتج مواضع (أو مراكز) للذات بالنسبة إلى الشخصيات فى القصة. ويذهب لاكان إلى أن هذه القصة بمثابة توضيح لنظرية التحليل النفسى القائلة إن النظام الرمزى هو الذى «يحدد الذات»، وإن الذات تتلقى توجيهها حاسما من مسار الدال. ويقدر مايتناول لاكان القصة بوصفها أمثلة على التحليل النفسى، فإنه ينظر إلى التحليل النفسى بوصفه نموذجا لعملية قص، فتكرار بنية المشهد الأول فى المشهد الثانى محكوم بتأثيرات دال خالص (الرسالة)، والشخصيات تنتقل إلى مواضعها على النحو الذى يحثها عليه اللاشعور.

وفى وسع القارئ مراجعة بحث برباره جونسون^(١٦) Barabare John son الممتاز (فى كتاب ر. يونج R. Young عن «حل النص» Untying the Text، راجع قائمة القراءة) إذا أراد وصفا أكثر اكتمالا لقراءة لاكان لهذه القصة، وكذلك قراءة ديريدا النقدية لقراءة لاكان، حيث تقوم جونسون

(١٦) البحث بعنوان «الاختلاف النقدى: بارت/ بلزاك» والعنوان نفسه يمشى فى التقابلات التى يلمح إليها عنوان كتاب بارت S/Z، فالعنوان الفرعى للبحث Barthes /Balzac يظهر التلاقى بين (باء) بلزاك وبارت. والتقابل بين (S) بارت و(Z) بلزاك، على نحو يقلب اللعبة، ويدخل الناقد مع القاص بوصفهما موضوعا للتفكيك. وقد نشر بحث باريره جونسون فى كتاب ممتع بعنوان «الاختلاف النقدى، مقالات فى البأغة المعاصرة للقراءة» عام ١٩٨٠ عن مطبعة جامعة جون هوبكنز.

بتوضيح بارع لفكر مابعد البنيوية، مقدمة المزيد من استبدال المعنى فى المساق الذى لاتنضب إمكاناته من بو إلى لاكان إلى ديريدا إلى جونسون.

جاك ديريدا: التفكيك:

استهل البحث الذى قدمه ديريدا، Jacques Derrida^(١٧) بعنوان «البنية والعلامة واللعب فى خطاب العلوم الإنسانية» فى الندوة التى عقدت فى جامعة جون هوبكنز عام ١٩٦٦ حركة نقدية جديدة فى الولايات المتحدة. ولقد وضعت وجهة النظر المعروضة فى هذا البحث المسلمات الميتافيزيقية الأساسية للفلسفة الأوروبية منذ أفلاطون موضع الشك. فقد ذهب ديريدا إلى أن فكرة «البنية» كانت تفترض دائما «مركزا» من نوع ما للمعنى حتى فى البنيوية. هذا المركز يحكم البنية ولكنه هو نفسه ليس موضوعا للتحليل البنىوى (إذ إن إيجاد بنية للمركز يعنى إيجاد مركز آخر). وذهب ديريدا إلى أن البشر يرغبون فى مركز لأن المركز يضمن لهم الوجود من حيث هو حضور، فنحن نفكر - على سبيل المثال - فى حياتنا العقلية والمادية على أنها مرتكزة حول «أنا». وهذه الأنا هى مبدأ الوحدة الذى تقوم عليه بنية كل ما يدور فى فضائها. غير أن نظريات فرويد قد قوضت تماما هذا اليقين الميتافيزيقى بالكشف عن انقسام فى الذات بين الشعور واللاشعور. وقد عبر الفكر الغربى بألفاظ لاحصر لها عن فكرة المبادئ المركزية هذه، من مثل الوجود والماهية والجوهر والحقيقة، والشكل

(١٧) أصبحت بعض كتابات ديريدا (الجزائرى الأصل) متاحة فى ترجمتها العربية (وهو عمل شديد المشقة) وأهم مترجم له مختارات بعنوان: - الكتابة والاختلاف، ترجمة كاظم جهاد وتقديم محمد علال سينا، نوبال، الدار البيضاء ١٩٨٨.

والمحتوى، والبداية والنهاية، والغاية والوعى، والإنسان والإله... إلخ. ومن المهم ملاحظة أن ديريدا لا يجزم بإمكان التفكيك خارج نطاق مثل هذه المصطلحات، فهو يرى أن أية محاولة لإبطال مفهوم من المفاهيم محكوم عليها بالوقوع فى شرك المصطلحات التى يعتمد عليها هذا المفهوم. فإذا حاولنا - على سبيل المثال - إبطال المفهوم المركزى للوعى بتأكيد القوة المدمرة للوعى، فإننا نواجه عندئذ خطر استحداث مركز جديد، لأننا لانملك سوى الدخول فى النسق المفهومى (شعور/ لاشعور) الذى نحاول إبطاله، وكل مانستطيع هو رفض السماح لأى من القطبين فى نسق ما (جسد/ روح/ خيرا/ شر، جادا/ هازل) بأن يكون هو المركز وضمان الحضور.

ويطلق ديريدا على الرغبة فى المركز مصطلح «نزعة مركزية اللوجوس»^(١٨) Losocentrism فى كتابه المهم «دراسة الكتابة»^(١٩)

(١٨) اللوجوس لفظ يونانى يشير إلى الكلمة التى تعبر عن الفكر الداخلى نفسه. ويستخدم فى الفلسفة - اصطلاحا - للإشارة إلى العقل من حيث هو مبدأ الوجود، وعلى نحو ما يتجلى فى القول. كما يستخدم - اصطلاحا - فى البداية المسيحية للإشارة إلى كلمة الله، يسوع، بوصفه المبدأ الثانى فى التثليث وما يقصد إليه ديريدا بالكشف عن «نزعة مركزية اللوجوس» هو تدمير مبدأ الأصل الثابت الواحد، وما يقترن به من مفهوم الغائية أو العلية. وتأكيد أهمية الكتابة التى لن تغدو تابعا لأصل، ولن يسعى بحثها إلى كشف عن بنية مركزية منغلقة على نفسها، وهو ما يؤكد الوهم البنىوى القديم، بل الكشف عن القيم الخلافية التى تتضمنها عناصر الكتابة.

(١٩) يقوم المفهوم الأساسى الذى يتضمنه المصطلح على التمييز بين اللغة من حيث هى أصوات مسموعة، منطوقة ومن حيث هى علامات أو نقوش مرئية مكتوبة. بقدر ما يحاول هذا المفهوم - الخاص بديريدا - نقض التراث القديم الذى كان يعلى من الكلمة المنطوقة، فإن لا يستدل تراثيا بآخر، إنما يحاول أن يؤسس لكتابة تقوم على الاختلاف، ومنهج يقوم على كشف الاختلاف الدائم فى الكتابة. وذلك بالمعنى الذى يجعل من دراسته للفاعلية الحرة التى تمارسها الكلمات المنقوشة على الصفحة - الكلمات التى تغدو آثارا لاتفهم إلا من حيث علاقتها الخلافية بغيرها من الآثار.

on Grammarology: واللوجوس (المقابل اليوناني لـ «الكلمة») لفظ يرد «فى العهد الجديد» فى أشد درجاته تركيزاً، حيث تقرأ: «فى البدء كانت الكلمة». وحيث إن الكلمة أصل الأشياء جميعاً فإنها ضمان الحضور الكامل للعالم، فكل شئ نتيجة لهذا السبب الواحد، وعلى الرغم من أن الإنجيل مكتوب فإن كلمة الله «منطوقة» فى الأساس والكلمة المنطوقة، الصادرة عن جسد حى، تبدو أقرب إلى الفكر الخالق من الكلمة المكتوبة. ويرى ديريدا أن التفضيل للكلام على الكتابة (أو مانسميه «نزعة مركزية الصوت» Phonocentrism) هو سمة أصلية مميزة لمركزية اللوجوس (أو الكلمة).

ولكن ما الذى يمنع العلاقة من أن تكون حضوراً كاملاً؟ إن ديريدا يسك كلمة - فى اللغة الفرنسية - يكشف بها عن الطبيعة المنقسمة للعلامة، وتلك هى كلمة Differance التى لانسمع فيها الحرف (a)، فندرك الكلمة - من حيث الصوت - على أنها Difference التى تشير إلى الاختلاف. هذا الالتباس لا يمكن إدراكه إلا فى الكتابة، فالفعل Differer - فى اللغة الفرنسية - يشير إلى «الاختلاف» والإرجاء على السواء. والاختلاف مفهوم مكاني تنبثق فيه العلامة من نسق للاختلافات التى تتوزع داخل النسق. أما الإرجاء فمفهوم زمني تفرض فيه الدوال إرجاء لانهائياً للحضور (كما فى المثال السابق من المعجم). والفكر الذى يقوم على مركزية الصوت يتجاهل غنصر الإرجاء Differance ويلج على حضور الكلمة المنطوقة بذاتها.

إن نزعة مركزية الصوت تنظر إلى الكتابة على أنها شكل غير صاف من الكلام، فالكلام أقرب إلى الفكر الخالص، ونحن نعزو إلى الكلام - عندما نستمع إليه - «حضوراً» نراه مفقداً فى الكتابة. وتنظر إلى كلام الممثل العظيم أو الخطيب السياسى على أنه كلام يمتلك الحضور ويجسد

روح المتكلم، إذا جاز التعبير. أما الكتابة فتبدو أقل صفاء من الكلام، وتبرز نسقها الخاص في علامات مادية ذات استمرار نسبي، والكتابة قابلة للتكرار، وهذا التكرار (بواسطة الطباعة وإعادة الطباعة.. إلخ) يشجع على التفسير وإعادة التفسير. ومن هنا فإن الكلام الذي يخضع للتفسير يتخذ عادة شكل الكتابة. ولا تحتاج الكتابة إلى حضور الكاتب، في مقابل الكلام الذي يتضمن دائما حضورا مباشرا، أضف إلى ذلك أن الأصوات التي تصدر عن المتكلم تتبدد في الهواء ولا تترك أثرا (إلا إذا سجلت). ومن ثم فإنها لا تشوه الفكر الخالق كما هو الحال في الكتابة. لقد عبر الفلاسفة كثيرا عن كرههم للكتابة، وأبدوا خشيتهم من أن تدمر سلطان الحقيقة الفلسفية، تلك الحقيقة التي تعتمد على الفكر الخالص (منطق، أفكار، قضايا) الذي يتعرض لخطر التشويه عند كتابته، وذهب فرانسيس بيكون إلى أن حب الفصاحة واحد من أهم العقبات في وجه التقدم العلمي، فقد^(٢٠) «أخذ الناس يتصيدون الكلمات المهمة... والمجازات والحيل البلاغية على حساب أهمية الموضوع و سلامة الحجة». ولكن لما كانت الخصائص الكتابية التي يتعرض إليها فرانسيس بيكون هي الخصائص التي طورها الخطباء ابتداء، كما توحى كلمة «الفصاحة» نفسها، فإن سمات الإسهاب في الكتابة، التي تعكر نقاء الفكر، كانت هي ذاتها معدة للكلام أصلا.

هذا الازدواج بين «الكتابة» و«الكلام» مثال على مايسميه ديريدا «التراتب القهرى»، فللكلام مرتبة الحضور الكامل في مقابل المرتبة الثانوية

(٢٠) أعتقد أن ديريدا يغالط في هذا المثل، لأن يكون وضع الكلمات في مقابل المواجهة المباشرة للواقع، وكان في ذهنه ذلك النسيج اللفظي الذي يكتفى به المدرسيون (كما يفعل الآن كتاب الصحوة الإسلامية في مجتمعاتنا) فيمتنعون عن رؤية الواقع المباشر بينما يتعلق الأمر، هنا، بالكلمات المنطوقة في مقابل المكتوبة (فؤاد زكريا).

التي تحتلها الكتابة التي تهدد ماديتها بتعكر نقاء الكلام. ولقد دعمت الفلسفة الغربية التراتب للحفاظ على الحضور، ولكن هذا التراتب يمكن نقضه بسهولة وقلبه رأسا على عقب، كما يوضح مثال فرانسيس بيكون. إذ نبدأ هنا في إدراك أن كلا من الكلام والكتابة يشتركان في ملامح كتابية، فهما معا عمليتان دالتان تقتقران إلى الحضور، ويكتمل نقض هذا التراتب عندما نضيف الآن أن الكلام نوع من أنواع الكتابة. هذا النقض هو المرحلة الأولى من التفكير، عند ديريدا.

ويستخدم ديريدا مصطلح «تكملة» Supplement ليعبر عن العلاقة غير الثابتة بين طرفي تلك الثنائيات، من أمثال الكلام / الكتابة. وإذا كان روسو يرى أن الكتابة مجرد تكملة للكلام، ولن تضيف إليه إلا شيئا ثانويا، فإن ديريدا يلفت الانتباه إلى أن الفعل Supplier يشير أيضا - في اللغة الفرنسية إلى الإكمال والاستبدال (إحلال محل)، مما يعني أن الكتابة لا تكمل فقط بل تحل «محل» أيضا؛ لأن الكلام مكتوب دائما. إن كل نشاط إنساني ينطوي على «التكملة» بهذا المعنى (إضافة - استبدال). ، إذا قلنا إن «الطبيعة» تسبق «الحضارة» فإننا نؤكد تراتبا قهريا آخر بهذا القول، تراتبا يتعالى فيه الحضور الخالص على حساب ماهو مكمل فحسب. ولكن إذا أنعمنا النظر، وجدنا الطبيعة دائما مشوبة بالحضارة، إذ لا توجد طبيعة «أصلية» وما هو إلا أسطورة نرغب في بقائها.

ولنتأمل مثالا آخر. إن من الممكن القول إن «الفردوس المفقود» لميلتون يقوم على التمييز بين الخير والشر، فالخير هو الاكتمال الأصلي للكائن. ويرجع في أصله إلى الله. أما الشر فطارئ، أو تكملة تعكر على الوحدة الأصلية للكائن، ولكننا إذا أنعمنا النظر فإننا نبدأ في رؤية ما ينقض هذه النظرية. فإذا بحثنا - مثلا - عن زمن كان الخير فيه بلا شر، وجدنا أنفسنا

واقعين فى هوة تسلسل بلا قرار، أكان هذا قبل السقوط؟ قبل إبليس؟ وما سبب سقوط إبليس؟ أهو الغرور؟ ومن الذى خلق الغرور؟ الإله الذى خلق لدى الملائكة والبشر حرية الوقوع فى الخطيئة. وهكذا، فإننا لانصل أبدا إلى لحظة أصلية من الخيرية الخالصة. ويمكن أن نعكس هذا الترتاب ونقول إنه لا توجد أفعال «خيرة» للبشر إلا بعد «السقوط» فأول فعل للتضحية قام به آدم كان تعبيرا عن حبه لحواء بعد سقوطهما، أى أن هذه الخيرية لاتأتى إلا عقب الشر، بل إن النهى الإلهى نفسه يفترض وجود الشر. ولقد ذهب ميلتون فى الأروباجتিকা Areopagitica إلى معارضة إباحة الكتب، لأنه كان يعتقد أننا لايمكن أن نغدو فضلاء إلا إذا أتاحت لنا فرصة مقاومة الشر، ذلك لأن «ما يطهرنا هو الابتلاء، والابتلاء إنما يكون بما هو مضاد» ومعنى هذا أن الخير يأتى بعد الشر. ومن المؤكد أن هناك خططا عدة، نقدية ولاهوتية، يمكن أن تحل هذا المشكل. ولكن يظل هناك مجال للتفكيك، أى لهذا النوع من القراءة الذى يبدأ بملاحظة الترتاب، ثم يمضى إلى نقضه، وأخيرا يقام وضع ترتب جديد، عن طريق إزاحة الطرف الثانى فى الترتاب من المكانة العليا بدورها. ولقد كان بليك يعتقد أن ميلتون كان فى صف إبليس (ساتان) فى ملحمة العظيمة، وذهب شيللى إلى أن إبليس يسمو على الإله أخلاقيا. ولكن كليهما كان يكتفى بأن ينقض الترتاب، مستبدلا الشر بالخير. أما قراءة «التفكيك» فتمضى أبعد من ذلك، إذ توضح أن طرفى الثنائية لايمكن أن يعلو أحدهما الآخر دون «تراتب قهرى»، فالشر تكملة واستبدال فى آن. ويبدأ «التفكيك»، عندما نعين اللحظة التى ينتهك فيها النص القوانين التى بدا أنه استنها لنفسه. وعندئذ، تتمزق النصوص، إذا جاز القول.

ويحدد ديريدا فى بحثه «الإشارة، الحدث، السياق» ثلاث خصائص للكتابة: أولاها أن العلامة المكتوبة هى إشارة يمكن تكرارها، وليس فقط فى

غياب الذات التي ابتعثتها في سياق بعينه، بل أيضا في غياب مخاطب محدد توجه إليه هذه الإشارة. وثانية هذه الخصائص أن العلامة المكتوبة يمكن أن تخرج عن إطار سياقها الفعلي، وتقرأ في سياق مختلف بغض النظر عما قصد إليها كاتبها، فأية سلسلة من العلاقات يمكن «استنباتها» في خطاب ينتمي إلى سياق مغاير (كما يحدث في اقتباس النصوص). وثالثة هذه الخصائص أن العلامة المكتوبة تقبل «الإبعاد Espacement بمعنيين: فهي أولا تنفصل عن غيرها من العلامات في سلسلة بعينها، وهي ثانيا تنفصل عن «الإشارة الحاضرة» (أي أنها لا يمكن أن تشير إلا إلى شيء ليس حاضرا فيها). هذه الخصائص تميز الكتابة عن الكلام حيث تتضمن الكتابة قدرا من عدم المسؤولية، لأنه إذا كان يمكن تكرار العلامات خارج السياق، فما السلطة التي يمكن أن تكون لها؟ ويمضي ديريديا في نقض التراتب. فيشير مثلا إلى مانقوم به عند تفسيرنا العلامات الشفاهية، حين نبحث عن أشكال (دوال) ثابتة موحدة بغض النظر عن النبوة أو النعمة أو التحريف الذي يمكن أن ينطوي عليه التلقظ. وهنا، يبدو أن من الضروري استبعاد المادة الصوتية العرضية في سبيل استعادة شكل خالص. هذا الشكل الخالص هو الدال المتكرر الذي حسناه من قبل مميزا للكتابة وحدها. وهكذا ننتهي - مرة أخرى إلى أن الكلام نوع من الكتابة.

ولقد طور ج. ل. أوستن J. L. Austin نظريته عن «أفعال الكلام» لتحل محل النظرة الوضعية المنطقية إلى اللغة، تلك النظرة التي كانت تفترض أن القضايا الوحيدة ذات المعنى هي القضايا التي تصف حالة من الأحداث الواقعة في العالم فحسب، وأن كل ماعداها ليست قضايا حقيقية وإنما أشباه قضايا. ويستخدم أوستن مصطلح «إخباري» Contative؛ ليعبر عن النوع الأول من القضايا (الإشارية)، في مقابل مصطلح «أدائي» Performative ليعبر عن تلك القضايا التي تؤدي بالفعل ماتصفه الأفعال.

(فهم) «أقسم أن أقول الحق كل الحق ولا شيء غير الحق» تؤدي بالفعل (قسما). ويقر ديريدا بأن هذا التمييز ينقطع عن الفكر الذي يقوم على مركزية اللوجوس (الكلمة)، لما يؤكد هذا التعبير من أنه ليس من الضروري للكلام أن يمثل شيئا ليكون له معنى. غير أن أوستن يميز، أيضا، بين درجات من القوة اللغوية، فهناك الفعل التعبيري Locutionary الذي يتمثل في الاكتفاء بإصداره عبارة التلفظ اللغوي العادي (كأن تنطق جملة إنجليزية مثلا). وهناك القوة البلاغية Illocutionary لفعل الكلام الذي يتضمن أداء فعل (كالوعد والقسم والجدل والتأكيد.. إلخ)، وهناك القوة التأثيرية Perlocutionary إذا أحدث الكلام أثرا (كالاستمالة بالحاجة، والإقناع بالقسم.. إلخ). ويؤكد أوستن أن كل فعل من أفعال الكلام يقتضى سياقًا خاصًا به، فالقسم - مثلا - لا يقع إلا في محكمة داخل إطار قضائي ملائم، أو في غير المحكمة من المواقف التي جرى العرف على أداء القسم فيها. ويتشكك في ذلك مشيرا إلى أن تكرار فعل الكلام أهم من إلحاقه بسياق.

ويشير أوستن إشارة عابرة إلى أن القضية اللغوية لكي تكون تعبيرًا أدائيًا لابد من أن يقال على نحو «جاد» وليس على سبيل الفكاهة أو الاستخدام في مسرحية أو قصيدة، فالقسم الذي نشهده في محاكم أفلام هوليوود - على سبيل المثال - قسم «طفيلي» بالقياس إلى قسم الحياة الفعلية. ويرد جون سارل John Searle على تشكك ديريدا في بحثه عن «تكرار الاختلافات» مدافعا عن وجهة نظر أوستن فيذهب إلى أن الخطاب «الجاد» سابق منطقيا على اقتباساته الخيالية «الطفيلية». ويسبر ديريدا غور هذه الفكرة موضحا توضيحا حادقا أن فعل الكلام الأدائي «الجاد» لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان تعاقبا للعلامات قابلا للتكرار (أي ما أسماه بارت المكتوب دائما من قبل) فالقسم الفعلي في المحكمة ماهو إلا حالة خاصة للعبة التي يلعبها الناس في الأفلام والكتب، والسمة المشتركة بين الأدائي الخالص وصيغة

الطفيلية غير الخالصة، عند أوستن، هي أنهما يتضمنان خاصيتي التكرار والاقتراس (الاستشهاد) اللتين هما خاصيتان مميزتان للمكتوب.

ولقد أصبح ديريدا شخصية أكاديمية شهيرة منذ ألقى بحثه «البنية والعلامة» في الولايات المتحدة عام ١٩٦٦، وأخذ الكثير من أقسام العلوم الإنسانية في الجامعات الأمريكية بنظرية التفكيك. وحصل ديريدا على وظيفة أستاذ في جامعة ييل.

وتتمثل قوة حركة التفكيك في أن عددا من التيارات الثقافية الأساسية الأخرى، التي كانت قد أصبحت مستقرة، قد وجدت نفسها مضطرة إلى إعادة تقييم جذري لنفسها. مثال ذلك أن هناك عملية تقريب لافتة للنظر بين فلسفة التفكيك والماركسية الحديثة، قام بها ميشيل رايان Michael Ryan في كتابه «الماركسية والتفكيك» (١٩٨٢)، وأوضح فيها كيف أن كلا المذهبين قد شجع «التعددية» بدلا من «الوحدة التسلطية»، والنقد بدلا من الطاعة، «والاختلاف» بدلا من «الاتحاد»، والنزوع العام إلى اتخاذ موقف متشكك إزاء الأنساق الكلية أو المطلقة.

نزعة التفكيك في أمريكا:

انحذب النقاد الأمريكيون إلى عدد من المؤثرات الأجنبية في محاولتهم التخلص من النزعة الشكلية المتأصلة للنقاد الجدد، فازدهر لفترة من الزمن كل من «نقد الأسطورة» Myth Criticism العلمي عند نورثروب فراي والماركسية الهيكلية عند لو كاش، وفينومينولوجيا بوليه Poulet والبنيسوية الفرنسية بصرامتها. ولكن لماشير الدهشة هو أن ديريدا قد هيمن على أفكار العديد من أقوى النقاد في أمريكا. ذلك لأن عددا من هؤلاء النقاد متخصص في الرومانسية، ولقد كان الرومانسيون منغمسين كل الانغماس في تجارب الإشراف اللازمى أى «التجليات» التي تقع في لحظات متميزة

من حياتهم، محاولين استعادة هذه النقاط (البؤر) الزمنية في شعرهم، وإشباع كلماتهم بحضورها المطلق، غير أنهم ينعون، في الوقت ذاته، ضياع هذا «الحضور»: «ثمة مجد قد نأى على الأرض». وليس من المستغرب إذن أن يجد بول دي مان Paul de Man وأقرانه في الشعر الرومانسي دعوة مفتوحة إلى التفكير، بل إن دي مان يذهب إلى أن الرومانسيين يفككون كتاباتهم حين يبينون أن الحضور الذي يرغبون فيه غائب دوما سواء في الماضي أو المستقبل.

والواقع أن كتابي بول دي مان «العمى والبصيرة» (١٩٧١) «وأمثولات القراءة» (١٩٧٩) كتابان يتميزان تميزا واضحا بدقتهما في التفكير، وهما يدينان دينا واضحا لديريدا، ولكن دي مان يطور فيهما مصطلحه الخاص. ويدور أول هذين الكتابين حول مفارقة مؤادها أن النقاد لا يصلون إلى البصيرة النقدية إلا خلال نوع من العمى النقدي، فهم يتبنون منهجا أو نظرية تتضارب تماما مع الاستبصارات التي تؤدي إليها. إن جميع هؤلاء النقاد (لو كاش Lukacs بلانشو Blanchot، بولييه Poulet) يبدوون مدفوعين، بصورة غريبة، إلى أن يقولوا شيئا يختلف عما قصدوا إلى قوله. وهم لا يتوصلون إلى تحقيق استبصاراتهم إلا لأنهم «في قبضة هذا العمى الغريب» وعلى سبيل المثال، فإن النقاد الجدد في أمريكا أقاموا ممارساتهم النقدية على أساس من فكرة كولردج Coleridge عن الشكل العضوي Organic Form^(٢١)، وهي الفكرة القائلة إن للقصيدة وحدة شكلية تماثل وحدة الشكل الطبيعي. ولكن بدل أن يكشف هؤلاء النقاد في الشعر وحدة

(٢١) مفهوم يرجع إلى كولردج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) الذي فسر العملية الإبداعية تفسيراً يجعل العمل الأدبي - خاصة الشعر - يبدأ «بذرة» في الخيال الإبداعي للأديب، وتنمو البذرة على غير وعى منه بتشبعها بعناصر مختلفة خارجة. وقد استند النقاد الجدد، في الولايات المتحدة، إلى هذا المفهوم، وذلك في تأكيدهم أن مهمة النقد الأولى هي الاهتمام بوحدة العمل الأدبي، فأجزأوه وعناصره لا يمكن بحثها منفردة، لارتباطها بالعلائقي الوثيق، في داخل ما يسمى بالشكل العضوي.

العالم الطبيعي وتلاحمه، فإنهم اكتشفوا معاني متعددة الأوجه. وفي نهاية المطاف تحول هذا النقد الذي يبحث عن نقد للالتباس والتعدد في المعنى. وهكذا تبدو اللغة الشعرية الملتبسة مناقضة لفكرتهم الأصلية الكلية الماثلة لوحدة الموضوع.

ويؤمن دي مان أن هذه البصيرة المقترنة بالعمى يسرها انزلاق لاشعوري من نوع من أنواع الوحدة إلى الآخر، فالوحدة التي غالباً ما يكشفها النقاد الجدد ليست قائمة في النص وإنما في فعل التفسير، وتؤدي رغبتهم في الفهم الشامل إلى ظهور «الدائرة الهرمنيوطيقية» Herme-neutic circle للتفسير، فكل عنصر من عناصر النص يفهم من خلال الكل، والكل يفهم بوصفه وحدة شاملة تتكون من جميع العناصر. هذه الحركة التفسيرية جزء من عملية معقدة تنتج «الشكل» الأدبي. ولكن الخلط بين «دائرة التفسير» هذه ووحدة النص يساعد هؤلاء النقاد على الاحتفاظ بنوع من العمى يؤدي إلى استبصار بالمعنى المنقسم والمتعدد للشعر (أي بأن العناصر لا تشكل وحدة) كأنه لا بد للنقد من أن يكون جاهلاً بالبصيرة التي ينتجها.

ويطرح دي مان تساؤلات حول التمييز بين «الفلسفة» و «الأدب» وبين «المعنى الحقيقي» (٢٢) و «المجازي»، وهي تساؤلات توازي الشكوك التي أثارها ديريدا حول التمييز بين الكلام والكتابة. فالفلسفة لا يمكن أن تكون فلسفية إلا إذا تجاهلت أو أنكرت خاصيتها النصية، وهي تؤمن أنها تقف بمنأى عن هذا التحريف. وتنظر الفلسفة إلى الأدب على أنه خيال محض أو خطاب يحكمه «المجاز». ويضع ديريدا الفلسفة «في حالة كشط» (الفلسفة) (٢٣) عن طريق نقض التراتب الذي يقع فيه الأدب موقعا

(٢٢) «المعنى الحقيقي» يستخدم - في هذا السياق - بدلالته البلاغية القديمة التي تجعله مقابلاً (مناقضاً) للمعنى المجازي.

(٢٣) هذا الشكل جزء من النص، لأنه هو «الكشط» erasure.

أدنى من الفلسفة، فالفلسفة نفسها تحكمها البلاغة، وإن ظلت شكلا متميزا من أشكال «الكتابة» (مازلنا نرى «الفلسفة» تحت علامة الكشط).. ولكن قراءة الفلسفة بوصفها أدبا لا تمنعنا من قراءة الأدب بوصفه فلسفة، ويرفض ديريدا تأكيد تراتب جديد يعلو فيه الأدب على الفلسفة، وإن كان بعض المنتمين إلى مدرسته يقع في هذا التفكير المنحاز. وبالمثل، يظهر أن اللغة «الحقيقية» هي في الواقع لغة «مجازية» نسينا مجازيتها. ولكن ذلك لا يعنى استبعاد مفهوم الحقيقى وإنما يعنى تفكيكه فحسب، فهو يظل مفهوما، فاعلا، ولكن فى حالة كشط.

ويطور دى مان فى كتابه «أمثولات القراءة» نمطا «بلاغيا» من التفكير كان قد بدأه فى كتابه «العمى والبصيرة». و«البلاغة» هي المصطلح الذى يشير إلى فن الإقناع، ولكن اهتمام دى مان منصب على نظرية «المجاز» التى تصحب البحوث البلاغية، فالمجاز يتيح للكاتب أن يقول شيئا آخر، كأن يستبدل علامة بأخرى (استعارة) أو ينقل معنى من علامة فى سلسلة إلى أخرى (كناية).. إلخ. والمجاز يتخلل اللغة ممارسة قوة تزعزع المنطق، ومن ثم تنفى إمكان الاستخدام الحقيقى المباشر أو الإشارى للغة. وآية ذلك أنى أجيب عن السؤال «شاي أم قهوة؟» بقولى: «ما الفارق؟». وسؤالى البلاغى فى الإجابة (الذى يعنى: «ليس هناك فرق فيما أختار») يناقض منطق المعنى «الحقيقى» لسؤالى «ما الفارق بين الشاي والقهوة؟». ويوضح دى مان أنه كما تنتج الاستبصارات النقدية عن العمى النقدى، فإن الفقرات التى تعبر عن تفكير نقدي مباشر أو العبارات الموضوعية (التيمة) Thematic فى النصوص الأدبية تعتمد على كبت المعانى الضمنية للبلاغة المستخدمة فى مثل هذه الفقرات. ويدعم دى مان نظريته بقراءة دقيقة لمجموعة من النصوص، ذاهبا إلى أن آثار اللغة والبلاغة هي التى تمنع

التمثيل المباشر للواقع. وهو يتابع نيتشه في الاعتقاد بأن اللغة مجازية في المحل الأول وليست إشارية أو تعبيرية، وأنه لا توجد لغة أصلية غير بلاغية، مما يعنى أن الإشارة دائماً تشوبها خاصية المجاز. ويضيف أن «النحو» هو الطرف الثالث الذى يدفع المعنى الإشارى المباشر إلى الشكل المجازى (وهو موضوع لاستطيع الخوض فى تفاصيله فى هذا المقام).

ويطبق دى مان هذه الحجج على النقد الأدبى نفسه، فالقراءة دائماً «إساءة للقراءة Misreading بالضرورة لأن المجازات Tropes تتدخل حتماً بين النصوص النقدية والأدبية. والكتابة النقدية تتطابق أساساً مع المجاز الأدبى الذى نطلق عليه «الأمثلة» Allegory، فهى مساق من العلاقات يقف على مبعده من مساق آخر من العلامات، ساعياً إلى أن يحل محله. وهكذا يعود النقد - شأنه فى ذلك شأن الفلسفة - إلى الخاصية النصية العامة للأدب. ولكن إلام تؤدى «إساءة القراءة» هذه؟ يعتقد دى مان أن بعض حالات إساءة القراءة صائب وبعضها خاطئ، فإساءة القراءة الصائبة هى التى تحاول أن تستوعب، لا أن تمنع، إساءات القراءة الحتمية التى تنتجها كل لغة. ويكمن فى قلب هذه الحجة اعتقاد مؤداه أن النصوص الأدبية تفكك بناءها بنفسها Self-deconstructing، فالنص الأدبى «يؤكد سلطة نمطه البلاغى الخاص وينكرها فى آن». وليس للناقد المهتم بالتفكيك - والأمر كذلك - من عمل سوى مسابقة العمليات الذاتية للنص، وإذا نجح الناقد فى القيام بهذا التواطؤ أمكنه تحقيق إساءة قراءة صحيحة.

إن النهج النقدى الدقيق والمتعمق الذى يسير عليه دى مان لا يتضمن إنكاراً فعلياً للوظيفة الإشارية للغة، (وإنما يكتفى بوضع الإشارة تحت الكشط). ولكن يبدو أن النصوص لا تنبثق أبداً من نصيتها، فإن هناك بعض الصواب فيما لاحظته تيرى إيجلتون Terry Eagleton على حركة التفكيك

فى أمريكا (خصوصا عند دى مان) من أنها حركة تواصل طريق حركة النقد الجديد New Criticism فى إلغائها التاريخ ولكن بوسيلة أخرى. وإذا كان النقد الجدد يحنطون النص فى «شكل» يحميه من التاريخ، فإن أنصار التفكيك يغرقون التاريخ فى محيط إمبراطورية متسعة للأدب، ناظرين إلى المجاعات والثورات، مباريات كرة القدم والكعك المسكر، على أنها «نص» آخر لا يمكن تحديده بعد. صحيح أن حركة التفكيك لا يمكنها، نظريا، تأسيس تراتب النص / التاريخ ولكنها - على المستوى التطبيقي - لا ترى سوى النص.

ويتخذ النمط البلاغى لما بعد البنيوية أشكالا متنوعة، ففى ميدان علم التاريخ يحاول هايدن وايت Hayden White القيام بتفكيك جذرى لكتابات المؤرخين المشهورين، ويذهب فى كتابه «مجازات الخطاب» (١٩٧٨) إلى أن المؤرخين يؤمنون بأن ما يروونه موضوعى، ولكن رواياتهم لا يمكن أن تفر من خاصية النصية مادامت تتضمن بنية، ذلك لأن «خطابنا ينحو دائما إلى الانفلات من معطياتنا متوجها إلى أبنية الوعى التى نحاول أن نستوعب بها هذه المعطيات». وفى كل حالة ينشأ فيها مبحث علمى جديد، يكون لزاما عليه إثبات التطابق بين لغته الخاصة والموضوعات المنتمية إلى ميدان بحثه. ولكن ذلك لا يتم بواسطة الحجة العقلية بل «بحركة قبل مجازية، تكون أقرب إلى المجاز منها إلى المنطق». وعندما يقوم المؤرخ بتنظيم مواد دراسته فإنه يطوعها باستخدام غير معلن لما أسماه كينيث بيرك Kenneth Burke «المجازات الرئيسية الأربعة»، وهى الاستعارة والكناية والمجاز المرسل والسخرية، فالتفكير التاريخى لا يتحقق إلا من خلال المجازات. ويتفق وايت White مع بياجيه Piaget على أن الوعى المجازى قد يكون جانبا من النمو السيكولوجى السوى. ويمضى وايت بعد ذلك إلى اختبار كتابات المفكرين البارزين

(فرويد، وماركس، وآي. ب. طومسون وغيرهم) ليظهر أن «معرفتهم الموضوعية» أو «حقيقتهم التاريخية العينية» تتشكل دائما بواسطة هذه المجازات الرئيسية.

ولقد استخدم هارولد بلوم Harold Bloom المجازات في النقد الأدبي على نحو يثير الإعجاب. ومع أنه من أساتذة جامعة ييل فإن نزعته «النصية»، أقل جذرية من دي مان أو هارتمان؛ إذ يظل يعالج الأدب بوصفه مجالا خاصا في البحث. ولكنه استطاع أن يجمع، بجرأة واضحة، بين نظرية المجاز وعلم النفس الفرويدي والصوفية القبلائية. وهو يذهب إلى أن الشعراء منذ ميلتون - الذي هو أول شاعر «ذاتي» بحق - ظلوا يعانون من وعيهم بكونهم متأخرين في الزمن، ويخشون، نتيجة لظهورهم المتأخر في التاريخ، من أن يكون آباؤهم من الشعراء قد استنفدوا كل إلهام متاح، فيعانون كرها أوديبا للأب أو رغبة يائسة في إنكار الأبوة، ويؤدي كبت مشاعرهم العدوانية إلى استراتيجيات دفاعية متباينة. فلا توجد قصيدة تنهض بذاتها، بل هي تتخلق دائما في علاقة بغيرها. ولذا كان الشاعر المتأخر في الزمن لابد له من الدخول في معركة نفسية لخلق مساحة تخيلية يتمكن معها من الكتابة اللاحقة. وتلك المعركة تتضمن إساءة لقراءة الشعراء القدامى من أجل تفسير جديد، هذا «التواطؤ الشعري» يخلق المساحة المطلوبة التي يتمكن فيها الشاعر من توصيل إلهامه الأصيل، لأنه لو لم يقم الشاعر بهذا التشويه العدواني لمعاني أسلافه لخنقت التقاليد كل إبداع.

والكتابات القبلائية (النصوص العبرانية الربانية التي تكشف المعاني الباطنة في العهد القديم) هي أمثلة مشهورة لنصوص قديمة مراجعة؛ إذ يعتقد بلوم أن الصيغة التي وضعها إسحق لوريا في القرن السادس عشر للصوفية القبلائية هي نموذج مثالي للطريقة التي كان يراجع بها الشعراء

اللاحقون الشعراء السابقين في شعر ما بعد النهضة. وهو يستخلص من صيغة لوريا ثلاث مراحل من المراجعة: التقييد Limitations (اتخاذ نظرة جديدة) والاستبدال (إحلال نظرة بأخرى) والتمثيل (استعادة المعنى)، وعندما يكتب شاعر فحل فإنه لا ينفك يمر بهذه المراحل الثلاث بطريقة جدلية (ديالكتيكية)، وذلك في تصارعه مع الشعراء الفحول في الماضي (وأنا أترك عامدا عبارات بلوم الدالة على الذكورة مكشوفة).

ويصف بلوم في كتابه «خارطة لإساءة القراءة» (١٩٧٥) الكيفية التي ينتج بها المعنى في «صور ما بعد عصر التنوير، بواسطة اللغة التي استخدمها الشعراء الفحول في دفاع مضاد للغة شعراء الفحول السابقين واستجابة لها في آن». و«المجازات» Tropes و«الدفاعات» Defenses أشكال قابلة للتبادل في «معدلات المراجعة» Revisionary Ratios؛ إذ يتغلب الشعراء الفحول على «قلق التأثير» Anxiety of Influence بأن يتبنوا ستة أشكال من الدفاع النفسي على نحو منفصل أو متعاقب. هذه الأشكال تبدو في شعرهم ستة أنواع من المجاز تتيح للشاعر الابن الانحراف عن قصائد أبيه وهي السخرية Irony والمجاز المرسل Synecdoche، والكناية Metonymy، والإغراق Hyperbole، والإثبات بالنفي Litotes، والاستعارة Meta-phor، والكناية بالصفة Metalepsis. ويستخدم بلوم ست كلمات قديمة لوصف الأنواع الستة من العلاقات التي تقوم بين نصوص الآباء والأبناء (معدلات المراجعة) هي: المخالفة Clinamen، والتفصيل Tessera، والهجر Kenosis، وحسن الاتباع Daemonisation، والمران Askesis، والتحريم Apophrades. أما المخالفة فهي «انحراف» Swerve يقوم به الشاعر ليبرر اتجاهها جديدا (اتجاهها كان لا بد للأستاذ من اتباعه أو عدم اتباعه) مما يعنى الانتهاك المتعمد لتفسير الشاعر الأسبق. والتفصيل بالتشدير، حيث يتناول

الشاعر اللاحق مواد القصيدة السابقة كما لو كانت كسرا تحتاج إلى لمسة
يدى الشاعر اللاحق، والمخالفة (معدلات المراجعة) تتخذ الشكل البلاغى
السخرية (مجاز الكلام وليس مجاز الفكر)، وهى الدفاع النفسى الذى يطلق
عليه مصطلح «التشكل المضاد» Reaction - Formation، فالسخرية هى أن
تقول شيئا وتعنى شيئا آخر مختلفا (أحيانا النقيض). ويتم التعبير عن
المعدلات الأخرى - بدورها - بوصفها مجازا ودفاعا نفسيا على السواء
(التفصيل = المجاز المرسل = الانقلاب على النفس، إلخ) ولكن بلوم
لا يعطى ميزة للبلاغة فى قراءته كما يفعل دى مان de Man وروايت White.
ولعل الأدق أن نطلق على منهجه اسم منهج «نقدى نفسى».

وهو يهتم اهتماما خاصا بقصائد «الأزمة» الرومانسية عند وردزورث
وشيللى Shelley وكيثس Keats وتينسون Tennyson، حيث تمر كل
قصيدة بمراحل للمراجعة، تعمل كل مرحلة منها عبر أزواج من معدلات
المراجعة، فتبدو قصيدة شيللى «أنشودة إلى الريح الغربية» - على سبيل
المثال - فى حالة عمراك مع قصيدة وردزورث «الخلود» على هذا النحو:
المقطعان الأول والثانى هما انحراف/ تفصيل، والمقطع الرابع ترك/ حسن
اتباع، الخامس مران/ تحريم. ولكن لابد من دراسة القسم الثالث من
«خارطة لإساءة القراءة»، للوصول إلى إدراك كامل لمنهج بلوم فى النقد.

أما جيفرى هارتمان Geoffrey Hartman فكان مرتبطا بالنقد الجديد
ولكنه هرع إلى حركة التفكير بانغماس فرح، وترك فى أعقابه مجموعة
شديدة التناثر من النصوص المجزأة التى تم جمعها فى كتب «ماوريل
الشكلية» Beyond Formalism (١٩٧٠) «وقدر القراءة» The Fate of
Reading (١٩٧٥) و«النقد فى البرية» Criticism in the Wilderness
(١٩٨٠). وهو يشبه دى مان فى نظره إلى النقد بوصفه شيئا داخلا فى

الأدب أكثر من كونه خارجا عنه، ولكنه يجعل من هذه النظرة مبررا لما يبدو أنه قام به من إتلاف عشوائي لنصوص أخرى (أدبية وفلسفية وشعبية) لكني ينسج منها خطابه الخاص؛ إذ يكتب في أحد المواضع - على سبيل المثال - عن خشونة وغبابة أمثولات Parables المسيح التي خفف حداثتها «علم التأويل القديم» الذي كان ينحو منحى الإدماج أو التوفيق» كما في بيت الشاعر جون دون Donne عن «عنكبوت الحب» الذي يعيد تجسيد كل شيء. وقد اختار عبارة جون دون نتيجة لما توحى به من تداعيات، فإذا كانت «إعادة التجسيد» Transubstantiation تستخدم استعاريا في قصيدة عن الحب، فإن هارتمان يستثير إحياءاتها الدينية، فطريقته في الإدماج تلتقط الإحياءات التجسيدية في لفظ «إعادة التجسيد». وبذلك يلغى أو يتجاهل بطريقة جزافية المعنى المرتبط بالسّم (في عصر دون) للعنكبوت. ومثل هذه الإشارات ناقصة الهضم تتخلل الكثير من قراءات هارتمان النقدية وتعتقدها. ولكن عدم اكتمال القراءة يعكس وجهة نظره التي ترى أن القراءة النقدية لا ينبغي أن تهدف إلى إنتاج معنى متسق، بل يجب أن تكشف عن «التناقضات والالتباسات»، وذلك لكي يغدو الخطاب «الأدبي قابلا للتفسير بجعله أقل إذعانا للقراءة». ومادام النقد الأدبي هو في داخل الأدب فإن عليه أن يكون، كالأدب، غير قابل للقراءة.

ويتمرد هارتمان على النقد الشائع المقبول من الدارسين المتابعين لتقاليد أرنولد (نقد «اللطافة والنور»). وهو بصورة أعم يأخذ بالاتجاه السائد في حركة ما بعد البنيوية «نحو رفض طموح العلم إلى السيطرة على... موضوعه (النص، النفس) بواسطة صيغ تكنوقراطية بنبؤية ذات طابع سلطوي»، ولكنه يتشكك - بالمثل - في التحليق التأملي التجريدي للناقد.

الفيلسوف الذى يخلق عاليا ليلامس نصوصه الفعلية. ومن هنا كان نقده الخاص ذو الطابع المعتدل فى تأمليته والمفرط فى نصيته محاولة توفيقية. وهو يعجب بالنظرية الراديكالية لديريدا بقدر خوفه منها. ويتحمس للإبداعية التى اهتدى إليها النقد حديثا، ولكنه يقف مترددا قرب الهاوية المنفجرة التى تهدد هذا النقد بالإغراق فى الفوضى. ولقد وصفه فنسنت ليتش Vincent Leitch بأنه أشبه بمن يسترق النظر إلى الحدود، فيراقب العابرين أو يتخيلهم ويحذر من الخطر. ومع ذلك فلا مفر من القول إن إغراء المتعة النصية يخفف من شكوك هارتمان الفلسفية. تأمل - مثلا - هذا الاقتباس من مناقشته لبحث ديريدا بعنوان Glas حيث يورد فقرات من كتاب جينيه «يوميات اللص»:

«إن Glas إذن هو «يوميات اللص» التى كتبها ديريدا نفسه، فهو كتاب عن لاهوت السرقة الوجودى للكتابة. فالكتابة دائما سرقة للوجوس أو تلفيقه. وتعيد السرقة توزيع اللوجوس بواسطة مبدأ جديد من العدل... كما تتوزع البذور المتطايرة للأزهار. والملكية، حتى فى شكل اسم العلم، ليست مشروعة. والكتابة هى فعل اجتياز حدود النص، أو جعله غير متعين أو إلقاء الظلال على ماهو واضح كالظهيرة»^(٢٤).

كان ج. هيلز ميللر J. Hillis Miller من النقاد المتأثرين تأثرا عميقا فى الستينيات بالنقد الفينومينولوجى لمدرسة چنيف (انظر الفصل الخامس). وقد تركز عمله منذ عام ١٩٧٠ حول تفكيك القص (خصوصا فى كتابه

(٢٤) فى الاقتباس الأصيل تلاعب بكلمات فرنسية متشابهة الصوت مختلفة المعنى، مثل *nomme-Propre-non propre* و *mi-di*.

عن «القص والتكرار: سبع روايات إنجليزية»، عام ١٩٨٢)، وقد بدأت هذه المرحلة ببحث ممتاز قدمه عن ديكنز عام ١٩٧٠، يتبنى فيه نظرية ياكوبسون عن الاستعارة والكناية (انظر الفصل الثالث). وهو يبدأ بإظهار كيف أن واقعية «اكتشافات بقلم بوز»^(٢٥) Boz ليست نتيجة للمحاكاة بل المجاز، فبوز ينظر إلى شارع مونماوث ويرى «أشياء، مصنوعات إنسانية، شوارع، مباني، عربات، ملابس قديمة في المحلات». هذه الأشياء تشير كنائياً إلى شيء غائب يستدل عليه بوز بها (فيستدل على الحياة التي كانت لهذه الأشياء وبها). ولكن نقد ميللر لا ينتهي بهذا التحليل البنيوي نسبياً لواقعية ديكنز، فهو يظهر الكيفية التي تنبعث بها ثياب الموتى الكنائية حية في عقل بوز عندما يتخيل لابسها الغائبين: «الصداري تتدافع في لهفة لأن ترتدى». هذا التبادل الكنائى بين الشخص وما يحيط به (منزل، ممتلكات... إلخ) هو «أساس الاستبدالات الاستعارية المتكررة في قص ديكنز». الكناية تؤكد ارتباطاً بين الملابس واللابس والاستعارة توحى بمشابهة بين الاثنين وتتصل الملابس واللابسون بواسطة السياق أولاً، ولكن عندما يهت السياق - ثانياً - فإن الملابس تستبدل باللابسين. ويلحظ ميللر نزعة قصصية واعية بذاتها على نحو أوضح في ولع ديكنز بالاستعارة المسرحية، حيث يصف سلوك الأفراد غالباً بوصفه محاكاة لأساليب مسرحية أو أعمال فنية، فتؤدى شخصية من الشخصيات «قطعة تشير الإعجاب لبانتوميم جاد»، أو «تتكلم في همس مسرحي»، وتبدو بعد ذلك «كأنها شبح الملكة آن في مشهد الخيمة من مسرحية ريتشارد»، أى أن هناك تأجيلاً لانهائياً للحضور، فكل شخص يقلد أو يكرر سلوك شخص آخر حقيقى أو خيالى، وتشجع العملية الكنائية على

(٢٥) بوز Boz هو الاسم القلمى لديكنز فى بداية حياته الأدبية.

القراءة الحرفية، (هذه لندن) فى الوقت الذى تكشف عن مجازيتها الخاصة، وبذلك نكتشف أن الكناية قصصية بنفس درجة الاستعارة. والواقع أن ميللر يفكك التضاد الأصلي الذى أقامه ياكوبسون بين الكناية «الواقعية» والاستعارة «الشعرية»، ويرى أن «التفسير الصحيح» لكليهما هو التفسير الذى ينظر إلى «المجاز بوصفه مجازيا. فكلاهما يدعو إلى انحراف فى التفسير يضيف أهمية جوهرية على ماهو فى الواقع مجرد أخيلة لغوية فحسب». ومهما كانت درجة استعارية الشعر فإنه عرضة للقراءة الحرفية، وفى الوقت نفسه فإن الكتابة الواقعية - مهما كانت كنائيتها - تقبل «القراءة المجازية الصحيحة التى ترى هذه الكتابة خيالا أكثر منها محاكاة». ولكن يمكن القول إن ميللر - هنا - يقع فى خطأ النقض الناقص للتراتب الميتافيزيقى بين (الحقيقى / المجازى)؛ إذ عندما يتحدث عن «تفسير صحيح»، وعن «انحراف فى التفسير» تنطبق عليه اعتراضات جيرالد جراف Gerald Graf على التفكيك، كما طرحها (فى كتابه «الأدب ضد نفسه» ١٩٧٩) حين ذهب إلى أن ميللر «يقضى على مجرد إمكان اللغة فى الإشارة إلى العالم». ومن ثم فهو يفترض أن كل نص (وليس نصوص ديكنز فحسب) يضع مسلماته موضع الشك.

يحتوى كتاب باربرا جونسون Barbara Johnson عن «الاختلاف النقدي» (١٩٨٠) على قراءات دقيقة نيرة للأدب من وجهة النظر التفكيكية، حيث توضح أن النصوص الأدبية والنقدية على السواء تنتج «شبكة من الاختلافات التى تغوى القارئ بوعد الفهم». وآية ذلك أن رولان بارت فى S/Z يحدد «الاختلاف» الذكرى / الأثوى فى قصة بلزاك «ساراسين» (انظر ماسبق) ويميط اللثام عنه، ويبدو أن بارت - بتقطيعه الرواية القصيرة إلى وحدات للقراءة - يقاوم أية قراءة كلية لمعنى النص من

منظور النزعة الجنسية. وتكشف جونسون عن أن قراءة بارت تعطي أهمية كبيرة، برغم ذلك، «للخصاء». كما أن تمييزه بين نص «القراءة» ونص «الكتابة» يناظر تمييز بلزاك بين المرأة المثلى (زامبنيلا كما يراها ساراسين) والخصى (زامبنيلا في الواقع)، وهو ما يعنى أن زامبنيلا تشبه الوحدة الكاملة للنص المقروء كما تشبه تفتت النص الكتابي المجزأ وتذبذبه.

ومن الواضح أن منهج بارت في القراءة ينحاز إلى «الخصاء» (التمزيق)، فصورة ساراسين عن زامبنيلا صورة ذات أساس نرجسى: إذ إن كمالها (المرأة الكاملة) هو النظرير المساوق للصورة الذكورية الذاتية لساراسين، أى أن ساراسين يحب «صورة فقدان ما يظن أنه يملكه». والمفارقة اللافتة أن الخصى خارج الاختلاف بين الجنسين وممثل لحرفية التماثل الوهمي بينهما في آن؛ ، ولذلك فإن زامبنيلا تدمر ذكورة ساراسين الباعثة للثقة في نفسه بإظهار أنها مبنية على الخصاء. والملاحظة الأساسية لجونسون على قراءة بارت لقصة بلزاك هذه أن قراءته للقصة تفصح عن حقيقة الخصاء، في الوقت الذي لا تنطق فيه قصة بلزاك هذه الحقيقة. وتلك قراءة يختزل بها بارت «الاختلاف» ويحيله إلى «وحدة». ولا توجه جونسون هذه الملاحظة على سبيل النقد لبارت، بل تقدمها نموذجاً لحتمية عمى البصيرة النقدية (إذا استخدمنا مصطلح دي مان).

الخطاب والقوة: ميشيل فوكو وإدوارد سعيد:

هناك اتجاه مغاير في فكر ما بعد البنيوية يؤمن أنصاره بأن العالم شيء أكبر من أن يكون مجردة من النصوص، وبأن بعض النظريات النصية يتجاهل الترابط الوثيق بين الخطاب والقوة، فهذه النظريات تختزل القوى السياسية الاقتصادية والسيطرة الاجتماعية الإيديولوجية في جوانب مرتبطة بالدلالة، فحين يقوم شخص مثل هتلر أو ستالين بإملاء أوامره على أمة بأكملها

مستغلا قوة الخطاب، فمن العبث معالجة الناتج كما لو كانت مجرد شيء يقع ببساطة داخل خطاب، إذ الواضح أن هناك قوة حقيقية تتم ممارستها بواسطة الخطاب، وأن هذه القوة لها آثار فعلية.

ويرجع هذا الاتجاه في أصله الفكري إلى الفيلسوف الألماني نيتشه Nietzsche الذي قال إن البشر يقررون ما يريدون لأنفسهم أولا ثم يكييفون الحقائق مع أهدافهم: «إن الإنسان - في نهاية المطاف - لا يجد في الأشياء إلا ما جليه هو إليها»، وكل معرفة تعبير عن «إرادة القوة». ويعني ذلك أننا لا يمكن أن نتحدث عن حقائق مطلقة أو معرفة موضوعية. ولا يعترف الناس بصدق أية نظرية فلسفية أو علمية إلا إذا طابقت مواصفات الصدق والحقيقة، كما تحددتها السلطات الفكرية أو السياسية السائدة في مرحلة من المراحل، أو كما يحددها أعضاء الصفوة الحاكمة أو منظرو المعرفة الموجودة في ذلك المجتمع.

ولا يختلف ميشيل فوكو Michel Foucault^(٢٦) عن غيره من مفكري

(٢٦) هناك مجموعة من كتب فوكو قد ترجمت إلى العربية، منها:

- نظام الخطاب، ترجمة محمد سيلا، دار التنوير، بيروت ١٩٨٤.
- حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء ١٩٨٧.
- الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع صفدي وسالم يفوت وبدر الدين عرودكي وجورج أبي صالح وكمال اسطفان، وشارك في المراجعة جورج زيناتي، مركز الإنماء القومي، بيروت ١٩٩٠.
- وقد ترجم حوله كتابان:
- جيل دلوز: المعرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ١٩٨٧.
- أوبر دريفوس وبول راينوف: ميشيل فوكو، مسيرة فلسفية، ترجمة جورج أبي صالح، مركز الإنماء ١٩٨٩.

مابعد البنيوية فى النظر إلى الخطاب Discourse^(٢٧) بوصفه نشاطا إنسانيا مركزيا، ولكنه لا يراه «نصا عاما» كونيا، أو بحرا هائلا من الدلالة، فهو يهتم بالبعد التاريخى من التغير الخطابى، ذلك لأن ما يمكن قوله يتغير من حقبة إلى أخرى. إن النظرية فى العلم لا يعترف بها فى عصرها إذا لم تتوافق مع إجماع القوة فى المؤسسات والأجهزة الرسمية للعلم، كما كان الشأن فى نظريات مندل عن الوراثة، تلك التى لم تصادف سوى آذان صماء فى الستينيات من القرن التاسع عشر، وظلت معلقة فى «الخواء»، تنتظر القرن العشرين ليتم الاعتراف بها، مما يعنى أنه ليس يكفى أن نقول الحقيقة بل علينا أن نكون «فيها».

ولقد وجد فوكو فى عمله المبكر عن الجنون أن من الصعب إيجاد أمثلة لخطاب «المجنون» (إلا فى الأدب عند دى صاد De Sade وأرتو Artaud). وانتهى إلى أن القواعد والإجراءات التى تحدد ما هو سوى أو عقلانى

(٢٧) يشير مصطلح الخطاب إلى الطريقة التى تتشكل بها الجمل مكونة نظاما متتابعا تسهم به فى نسق كلى متغير ومتحد الخواص، وعلى نحو يمكن معه أن تتألف الجمل فى خطاب بعينه لتشكل نصا مفردا، أو تتألف النصوص نفسها فى نظام متتابع لتشكل خطابا أوسع ينطوي على أكثر من نص مفرد. وقد يوصف الخطاب بأنه مجموعة دالة من أشكال الأداء اللفظى تنتجها مجموعة من العلامات، أو يوصف بأنه مساحة من العلامات المتعينة التى تستخدم لتحقيق أغراض معينة. وإذا كان «تحليل الخطاب» محورا مهما من محاور علم اللغة التصنيفى (أو «التوزيعى») عند ز. هاريس وتلامذته، فإن مفهوم الخطاب نفسه اكتسب أهمية متميزة، من حيث هو أداة للتحليل، مع إسهام إميل بنفنيست فى كتابه «مشكلات علم اللغة العام». ولقد كان تعميق مفهوم الخطاب بمثابة نقطة من نقاط التحول عن البنيوية. ومن هنا، يتخذ الخطاب معنى متميزا فى كتابات فوكو، فيغدو مجموعة من «المنطوقات» التى تنتهى إلى تشكيل واحد، يتكرر على نحو دال فى التاريخ، بل على نحو يغدو معه «الخطاب» جزءا من التاريخ، جزء هو بمثابة وحدة انقطاع فى التاريخ نفسه.

تنبج في إخراجها (يخالفها) فالأفراد الذين يعملون في إطار ممارسات خطابية معينة لا يمكنهم الكلام أو التفكير دون الإذعان إلى «الأرشيف» المختزن غير المنطوق من القواعد والنواهي وإلا أصبحوا عرضة للإدانة بالجنون أو أرغموا على الصمت، ولا يؤدي هذا التسلط الخطابي دوره عن طريق الاستبعاد فحسب، بل أيضا عن طريق الخلخلة Rarefaction (فكل ممارسة تضيق من محتواها ومعناها إذ تقتصر على التفكير من خلال «المؤلف» و«المبحث العلمي»، فحسب). وأخيراً، هناك النواهي الاجتماعية وبوجه خاص قدرة النظام التعليمي على تشكيل العقول التي تحدد ما هو معقول وما ينتمي إلى مجاله العلمي. وتظهر كتب فوكو - خصوصاً «الجنون والحضارة» (١٩٦١) و«ميلاد العيادة» (١٩٦٣) و«نظام الأشياء»^(٢٨) (١٩٦٦) و«النظام والعقاب» (١٩٧٥) و«تاريخ النظرة إلى الجنس» (١٩٧٦) - أن أشكالاً متبانية من «المعرفة» عن الجنس والجريمة والعلاج النفسي والدواء قد ظهرت ثم حلت أشكال أخرى محلها. وهو يركز على التحولات الأساسية التي حدثت فيما بين الحقب. ولكنه لا يقدم تعميمات بشأن التقسيم إلى حقب بل يتتبع السلاسل المتداخلة من المجالات غير المتصلة، فالتاريخ هو هذا الامتداد المتقطع من الممارسات الخطابية. وكل ممارسة هي مجموعة من القواعد والإجراءات التي تحكم الكتابة والفكر في

(٢٨) ذلك هو عنوان الترجمة الإنجليزية التي أثارها الناشر الأمريكي (بالاتفاق مع فوكو) على العنوان الفرنسي الأصلي وهو «الكلمات والأشياء» الذي صدر في باريس عن دار جاليمار عام ١٩٦٦، وصدرت ترجمته الإنجليزية التي وضع لها فوكو مقدمة خاصة عام ١٩٧٠ عن دار الباثيون في نيويورك. وكان السبب الأول وراء تغيير العنوان راجعاً إلى تخوف الناشر الأمريكي من اختلاط الكتاب بكتابين آخرين - على الأقل - يحملان العنوان نفسه باللغة الإنجليزية. وعدم تنبيه المؤلف على ذلك أمر يدخل في عدم الدقة.

مجال بعينه. هذه القواعد تسود عن طريق الاستبعاد والتنظيم وتشكل المجالات مجتمعة «أرشيف» الثقافة أو «لاوعيها الموجب».

ورغم أن تنظيم المعرفة يرتبط غالبا بأسماء أفراد (مثل أرسطو وأفلاطون وتوما الأكويني، وجون لوك.. إلخ) فإن مجموعة القواعد البنائية التي تشكل مختلف مجالات المعرفة تتجاوز تماما أى وعى فردى، وينطوى تنظيم المباحث المعرفية على قواعد محددة بكل دقة لإدارة المؤسسات وتدريب الدارسين ونقل المعرفة. وإرادة المعرفة التي تظهر فى هذا التنظيم هي قوة غير شخصية. ونحن لانستطيع معرفة أرشيف عصرنا قط، لأن هذا الأرشيف هو اللاشعور الذى نتحدث منه، أما أى أرشيف سابق علينا فنحن لانستطيع فهمه إلا بسبب اختلافنا وتباعدا التام عنه. مثال ذلك أننا حين نقرأ أدب عصر النهضة الأوروبية، نلاحظ فى أحيان كثيرة ثراء لعبته اللغوية ووفرتها. ويكشف فوكو - فى كتابه «نظام الأشياء» - أن التشابه فى ذلك العصر لعب دوراً مركزياً فى بنية كل معرفة، فكل شئ كان يردد صدى شئ آخر، ولم يكن هناك شئ بذاته، وذلك مانراه بكل وضوح فى شعر جون دون الذى لا يستقر عقله على موضوع واحد، بل يعاود الرواح والغدو مابين الروحى والمادى، والإنسانى والربانى، والكللى والفردى، ففى قصائده «ابتهالات» يصف أعراض الحمى التي كادت أن تقضى عليه بمصطلحات كونية، رابطا بين الكون الصغير (الإنسان) والكون الكبير (العالم)، على نحو غدت معه رعشاته «هزات أرضية»، وإغماءاته «كسوفات للشمس»، وتنفسه المحموم «نجوم متلهبة»، إننا نستطيع أن نرى - من موقفنا الحديث - مختلف أنواع التناظر التي تشكل خطابات عصر النهضة، ولكن كتاب ذلك العصر كانوا ينظرون ويفكرون من خلالها، ومن ثم لم يكن فى وسعهم رؤيتها كما نراها نحن.

ويتابع فوكو نيتشه في إنكاره إمكان امتلاك معرفة موضوعية بالتاريخ. فهو يرى أن الكتابة التاريخية ستظل دائما تقع في شرك المجاز، ولا يمكن أن تصبح علما قط، وذلك ما يؤكده جيفرى ميلمان Jeffery Mehlman في كتابه «الثورة والتكرار» (١٩٧٩) حيث يوضح أن ماركس في كتابه «الثامن عشر من برومبير» يصور «ثورة» لويس نابليون بوصفها «تكرارا هزليا» لثورة عمه (٢٩)، وفي رأى ميلمان أن الوصف التاريخي الذي قدمه ماركس يقر باستحالة المعرفة، وعدم وجود شيء سوى ذلك المجاز العبثي الذي هو «التكرار». أما فوكو فإنه لا يتناول الاستراتيجيات التي يستخدمها المؤلفون لإضفاء معنى على التاريخ بوصفها مجرد لعبة نصية، بل يتناولها بوصفها خطابات تنتج داخل عالم فعلى من صراع القوة، فالقوة يتم الوصول إليها بواسطة الخطاب، سواء في السياسة أو الفن أو العلم، والخطاب هو «عنف ممارسه على الأشياء»، أما دعاوى الموضوعية التي تقال لحساب خطابات معينة فهي دعاوى زائفة دائما؛ إذ ليس هناك خطابات «صادقة» بالمعنى المطلق، بل إن كل ما هنالك خطابات قوية بدرجة أو بأخرى.

وأهم أتباع فوكو المتميزين في أمريكا هو إدوارد سعيد (٣٠) الذي يجذبه وضعه الفلسطيني إلى الصيغة النيتشوية التي وضعها فوكو لما بعد البنيوية، لأنها صيغة تتيح له ربط نظرية الخطاب بالصراعات الاجتماعية والسياسية والفعلية، فهو في كتابه «الاستشراق» يبين كيف أن الصورة الغربية عن الشرق، تلك الصورة التي صاغتها أجيال من المشتغلين بالعلم، تنتج أساطير عن كسل الشرقيين وخداعهم ونزعتهم اللاعقلية. ويتبع إدوارد

(٢٩) يقصد نابليون بونابرت.

(٣٠) قدم كمال أبو ديب ترجمة متميزة لكتاب إدوارد سعيد «الاستشراق»، مع مقدمة لافتة، وصدر عن مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨١.

سعيد منطق نظريات فوكو بتحديثه هذا الخطاب الغربى عن الشرق، فليس ثمة خطاب ثابت لكل الأزمنة، وإنما الخطاب سبب ونتيجة على السواء، وهو لا يستخدم القوة فحسب بل يستثير المعارضة.

وفى المقال الذى يتصدر عنوانه كتاب «العالم، والنص، والناقد»^(٣١) (١٩٨٣) يستكشف إدوارد سعيد دنيوية Worldliness النص، رافضا النظرة التى ترى أن الكلام فى العالم بينما النصوص متباعدة عن العالم ليس لها سوى وجود سديمى فى أذهان النقاد، وهو يرى أن النقد فى الفترة الأخيرة يغالى فى «لامحدودية» التفسير، لأن هذا النقد يقطع الصلات بين النص والواقع، ولكن حالة أوسكار وايلد توحى لإدوارد سعيد بأن كل محاولة تفصل النص عن الواقع محكوم عليها بالفشل، فلقد حاول وايلد خلق عالم مثالى للأسلوب، يلخص فيه الوجود كله فى حكمة ساخرة مركزة (ابجرام)، ولكن الكتابة جرت به إلى الصراع مع العالم «السوى» Normal فى النهاية، فقد أدانت رسالته وقعها، وأصبحت الوثيقة الأساسية فى دعوى جنائية أقامتها الدولة، مما يؤكد أن النصوص «دنيوية» إلى أبعد حد، وأن استخدامها ونتائجها وثيق الصلة بكل من «الملكية والسلطة والقوة وفرض القوة».

ولكن ماذا عن قوة الناقد؟ يذهب إدوارد سعيد إلى أننا عندما نكتب مقالا نقديا يمكن أن ندخل فى علاقة أو أكثر من بين علاقات متعددة مع النص والمتلقى. فالمقال يمكن أن يقف بين النص الأدبى والقارئ، أو يتخذ جانبا واحدا منهما، وي طرح إدوارد سعيد سؤالا مهما بشأن السياق التاريخى الحقيقى للمقال: «مما منزلة كلام المقال إزاء الواقع وفيه وبعيدا عنه، ذلك الواقع الذى هو حلبة النشاط والحضور التاريخى اللانصى الذى يحدث على نحو متزامن مع المقال نفسه؟» وعبارة السؤال ملتوية بلا داع (المراد منها

(٣١) هناك عرض قيم لهذا الكتاب قدمته فريال غزول بعنوان «إدوارد سعيد، العالم

والنص والناقد» (١٩٨٣)، فى مجلة «فصول»، القاهرة ديسمبر ١٩٨٣.

ببساطة: «معلقة المقال بسياقه؟» لأن فكر مابعد البنيوية يستبعد «اللانصي»، وكلمات السؤال (الواقع واللائص والحضور) بمثابة تحد لما بعد البنيوية، ولا يكفي إدوارد سعيد بذلك بل يمضي لي طرح هذا السؤال الخاص بالسياق على نظرية فوكو المعروفة ليؤكد أن الناقد لا يمكنه أن ينقل المعنى المصمت لنص من نصوص الماضي بل عليه أن يكتب دائما داخل «أرشيف» الحاضر. مثال ذلك أن إدوارد سعيد نفسه لا يمكنه أن يتحدث عن أوسكار وايلد إلا بمصطلحات يقرأها الخطاب السائد الآن. وهذا الخطاب - بدوره - ينتج بطريقة لا شخصية عن أرشيف الحاضر، فإدوارد سعيد لا يدع أية سلطة لما يقول، ولكنه يحاول مع ذلك إنتاج خطاب قوى.

لقد أخذ النقاد البنيويون على عاتقهم مهمة السيطرة على النص وإمالة اللثام عن أسرارهم، ولكن نقاد مابعد البنيوية يؤمنون أن هذه الرغبة لاطائل من ورائها لأن هناك قوى لاشعورية، أو لغوية، أو تاريخية، لا يمكن السيطرة عليها، فالدال ينفلت بعيدا عن المدلول، والمتعة تذيب المعنى، والسميوطيقى يقضى على الرمزي، والإرجاء Difference يوقع الشقاق بين الدال والمدلول، والقوة تخل بنظام المعرفة السائدة. والواقع أن نقاد مابعد البنيوية يطرحون من الأسئلة أكثر مما يقدمون من أجوبة، وهم يستغلون كل الاختلافات بين ما يقوله النص وما يظن أنه يقوله، فيطلقون النص ليعمل ضد نفسه، ويرفضون إجباره على أن يعنى شيئا. وهم ينكرون أن يكون «الأدب» مفارقا، ويفككون الخطابات غير الأدبية بقراءتها على أنها أدب، ومن الممكن أن يضايقنا فشلهم في الوصول إلى نتائج، غير أنهم متسقون تماما مع أنفسهم في محاولاتهم في تجنب «مركزية اللوجوس». ولكن رغبتهم في مقاومة الجزم - كما يعترفون في أحيان كثيرة - محكوم عليها بالفشل، لأنهم لا يمكن أن يمنعونا من الاعتقاد بأنهم يعنون شيئا، إلا إذا لم يقولوا شيئا. وهذا العرض لوجهات نظرهم هو في ذاته دليل ضمنى على فشلهم.

قراءات مختارة
نصوص أساسية

Barthes, Roland,

The Pleasure of the Text, trans. R. Miller (Hill & Wang, New York, 1975).

Barthes, Roland,

S/Z, trans. R. Miller (Hill & Wang, New York; Jonathan Cape, London, 1975).

Barthes, Roland,

"The death of the author", in *Image Music-Text*, trans. S. Heath (Hill & Wang, New York; Fontana, London, 1977).

Bloom, Harold,

The Anxiety of Influence: A Theory of Poetry (Oxford University Press, New York and London, 1973).

Bloom, Harold,

A Map of Misreading (Oxford University Press, New York, Toronto, Melbourne, 1975).

Deleuze, Gilles and Guattari, Felix,

Anti-Oedipus: Capitalism and Schizo phrenia (Viking Press, New York, 1977).

de Man, Paul,

Blindness and Insight: Essays in the Rhetoric of Contemporary Criticism (Oxford University Press, New York, 1971).

de Man, Paul,

Allegories of Reading: Figural Language in Rousseau, Nietzsche, Rilke, and Proust (Yale University Press, New Haven, 1979).

Derrida, Jacques,

Of Grammatology, trans. G.C. Spivak (Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1976). The translator's preface is useful.

Derrida, Jacques,

"Signature Event Context", *Glyph*, 1 (1977), 172-97.

Foucault, Michel,

Language, Counter-Memory, Practice, Selected Essays and Interviews, ed D.F. Bouchard (Blackwell, Oxford; Cornell University Press, Ithaca, 1977).

Harari, Josue V. (ed.),

Textual Strategies: Perspectives in Post-Structuralist Criticism (Cornell University Press, Ithaca, 1979).

Hartman, Geoffrey H.,

Criticism in the Wilderness (Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1980).

Johnson, Barbara,

The Critical Difference: Essays in the Contemporary Rhetoric of Reading (Johns Hopkins University Press, Baltimore and London, 1980).

Lacan, Jacques,

Ecrits: A Selection, trans. A. Sheridan (Tavistock, London, 1977).

Laplanche, Jean, and Pontalis, Jean-Baptiste,
The Language of Psycho-Analysis, trans. D. Nicholson-Smith (Hogarth Press, London, 1973).

Miller, J. Hillis,
"The fiction of realism", in *Charles Dickens and George Cruickshank* (Wm Andrew Clark Memorial Library, California University Press, Los Angeles, 1971).

Ryan, Michael,
Marxism and Deconstruction: A Critical Articulation (Johns Hopkins University Press, Baltimore and London, 1982).

Said, Edward W.,
Beginnings: Intention and Method (Johns Hopkins University Press, Baltimore and London, 1975).

Said, Edward W.,
The World, the Text, and the Critic (Harvard University Press, Cambridge, Mass., 1983).

Searle, John,
"Reiterating the differences", *Glyph* 1 (1977), 198-208. Reply to Derrida's *Glyph* essay (above).

White, Hayden,
Tropics of Discourse (Johns Hopkins University Press, Baltimore and London, 1978). On the use of "tropes" in the writing of history.

Young, Robert (ed.)
Untying the Text: a Post-Structuralist Reader (Routledge & Kegan Paul, Boston, London and Henley, 1981).

مقدمات

Culler, Jonathan,
"Jacques Derrida", In *Structuralism and Since: From Levi-Strauss to Derrida*, ed J. Sturrock (Oxford University Press, Oxford, 1979), pp. 150-80.

Jefferson, Ann,

"Structuralism and Post-structuralism", in *Modern Literary Theory: A Comparative Introduction*, ed. A. Jefferson and D. Robey (Batsford, London, 1982), pp. 104-11.

Leitch, Vincent B.,

Deconstructive Criticism: An Advanced Introduction (Hutchinson, London, Melbourne, 1983).

Norris, Christopher,

Deconstruction: Theory and Practice (Methuen, London, 1982).

Wright, Elizabeth,

Psychoanalytic Criticism: Theory in Practice (Methuen, London and New York, 1984).

قراءات إضافية

Atkins, G.Douglas,

Reading Deconstruction: Deconstructive Reading (University Press of Kentucky, Lexington, 1983).

Coward, Rosalind, and Ellis, John,

Language and Materialism Developments in Semiology and the Theory of the Subject (Routledge & Kegan Paul, London, 1977).

Culler, Jonathan,

On Deconstruction: Theory and Criticism after Structuralism (Routledge & Kegan Paul, London Melbourne and Henley, 1983).

Hartman, Geoffrey H.,

Saving the Text: Literature/Derrida/ Philosophy (Johns Hopkins University Press, Baltimore and London, 1981).

Lentricchia, Frank,

After the New Criticism (Athlone Press, London, 1980). Favours Foucault and Said.

MacCabe, Colin,

The Talking Cure: Essays in Psychoanalysis and Language (Macmillan, London and Basingstoke, 1981).

Macksey, Richard, and Donato, Eugenio (eds),

Language of Criticism and the Sciences of Man (Johns Hopkins University Press, Baltimore and London, 1972).

Norris, Christopher,

The Deconstructive Turn: Essays in the Rhetoric of Philosophy (Methuen, London and New York, 1983).

Wilden, Anthony,

The Language of the Self (Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1968). Good account of Lacan.

الفصل الخامس

النظريات المتجهة إلى القارئ

نظريات القارئ

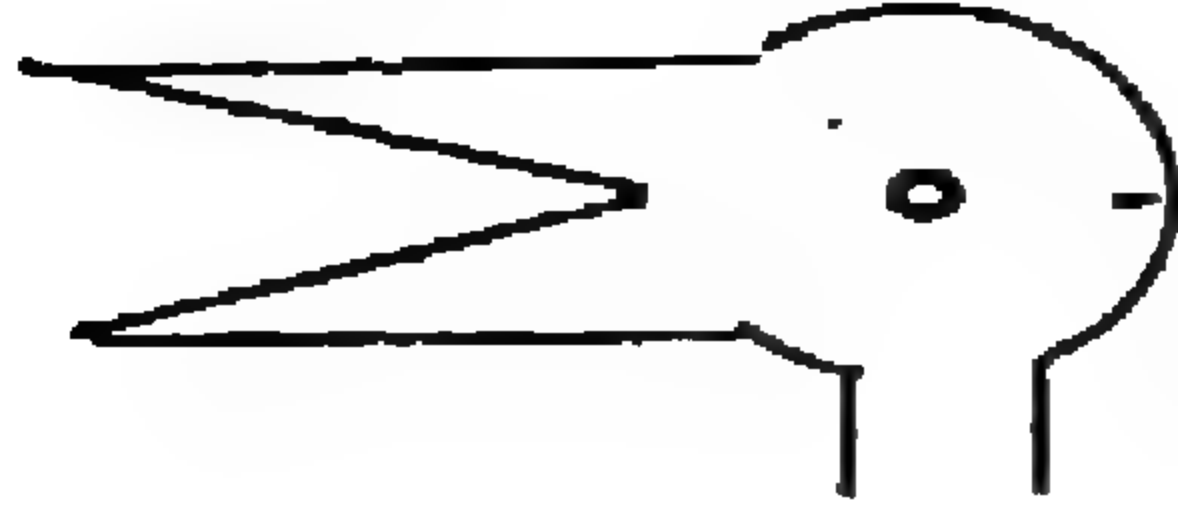
النظريات المنهجية إلى القارئ

المنظور الدائى :

يشهد القرن العشرون هجوما مطردا على اليقين الموضوعى للعلم فى القرن التاسع عشر. فلقد شككت نسبية آينشتين فيما كان مسلما به من أن المعرفة ليست سوى تراكم صارم متصاعد من الحقائق، وأظهر الفيلسوف ت. س. كون T.S.Kuhn ^(١) أن ما يظهر بوصفه حقيقة فى العلم يعتمد على الإطار المرجعى لرجل العلم فى النظر إلى موضوع الفهم، وأكد علم نفس الجشطالت أن العقل الإنسانى لا يدرك الأشياء فى العالم بوصفها أجزاء ومقطعات منفصلة بل بوصفها تشكلا لعناصر وموضوعات أو كليات منتظمة ذات معنى، على نحو تبدو معه العناصر الفردية مختلفة باختلاف السياق، بل يختلف تفسيرها داخل المجال الواحد من الرؤية حسب النظرة إليها من حيث هى صورة أو مهاد. وألحت هذه المداخل وغيرها على أن المدرك يتسم بالفاعلية وليس السلب فى فعل الإدراك. وآية ذلك أحجية البطة - الأرنب الشهيرة، حيث المدرك وحده هو الذى يقوم بتوجيه

(١) هناك ترجمة عربية لكتابه الشهير «بنية الثورات العلمية» أعدها على نعمته ونشرت فى بيروت ١٩٨٧.

تشكل الخطوط ليحدد ما إذا كانت بطة تنظر صوب اليسار أو أرنبا يتطلع
صوب اليمين:



كيف تتأثر النظرية الأدبية بهذا التركيز الحديث على المدرك؟ تأمل
النموذج الذي وضعه ياكوبسون للتوصيل اللغوي:

شفرة

مرسل ————— رسالة ————— مستقبل

اتصال

سياق

لقد آمن ياكوبسون أن الخطاب الأدبي يختلف عن غيره من أنواع
الخطاب بتركيزه على الرسالة، فالقصيدة تلفتنا إلى نفسها (شكلها وصورها
ومعناها الأدبي) قبل أن تلفتنا إلى الشعر أو القارئ أو العالم. ولكن إذا
رفضنا النظرة الشكلية لياكوبسون وتأملنا الأمر من منظور القارئ أو المتلقي،
فإن توجه نموذج ياكوبسون يتغير بالكلية، وعندئذ يمكن أن نقول إن
القصيدة ليس لها وجود فعلي إلا عند قراءتها، وإن معناها لا يمكن مناقشته
إلا بقراءتها. إننا لانختلف في التفسير إلا لأن طرائقنا في القراءة مختلفة،
ولأن القارئ هو الذي يطبق الشفرة التي كتبت بها الرسالة فيحقق معناها
وإلا ظل هذا المعنى مجرد إمكان فحسب، وإذا تأملنا أبسط أمثلة التفسير
وجدنا أن المستقبل غالبا ما يكون منغمسا على نحو فاعل في تشكيل معنى.

خذ على سبيل المثال النسق المستخدم لتمثيل الأرقام فى الطباعة الإلكترونية، حيث يتكون التشكل الأساسى من سبعة أجزاء: 8 إن المرء يمكن له أن ينظر إلى هذا الشكل على أنه مربع غير كامل (n) تعلوه أضلاع من مربع مماثل (0) أو العكس، ولكن العين مدعوة إلى تفسير هذا الشكل من حيث هو مفردة فى النسق الرقمى الذى تألفه، ولذلك لا يجد المرء صعوبة فى تعرف الشكل بوصفه الرقم (ثمانية). ويستطيع المرء أن يكون الأعداد بسهولة من تنوعات هذا التشكل الأساسى للأجزاء، حتى لو كانت التكوينات ضعيفة فى مقاربتها أحيانا. ولذلك فإن 2 هى الرقم اثنان و 5 هى الرقم خمسة (وليس حرف S فى الأبجدية الإنجليزية). كما أن 4 هى الرقم أربعة (وليس حرف H ناقص فى الأبجدية الإنجليزية). ويعتمد نجاح هذه العملية من التوصيل على أمرين: أولهما معرفة المرء بنسق الأرقام، وثانيهما قدرة المرء على إكمال الناقص أو اختيار ماله دلالة واطراح مالميس كذلك. ومعنى ذلك أن المستقبل ليس متلقيا سلبيا لمعنى مكتمل التشكيل بل وسيطا فاعلا فى صنع المعنى، ولكن مهمة المستقبل مهمة بالغة اليسر فى هذه الحالة، لأن الرسالة مقررة داخل نسق مغلق تماما.

تأمل القصيدة التالية لوردزورث:

«أطبق السبات على روحى.

فلم تعد لدى مخاوف إنسانية.

إنها تبدو شيئا لا يستطيع أن يحس

بلمسة السنوات الأرضية.

لا قوة لها الآن، لا حركة

لا تسمع أو ترى.

تدور فى الدورة اليومية للأرض.
مع الصخور والأحجار والأشجار.

إذا غضضنا النظر عن الخطوات التمهيدية اللاواعية غالباً التى لابد أن يقوم بها القراء ليعرفوا أنهم يقرأون قصيدة غنائية، ويجعلوا من الصوت المتكلم فى القصيدة صوتاً للشاعر نفسه وليس قناعاً درامياً، يمكن لنا القول إننا إزاء قضيتين Statement كل واحدة منهما فى مقطع: (١) ظننت أنه لا يمكن أن تموت (٢) إنها ميتة. ونسأل أنفسنا باعتبارنا قراء عن المعنى الذى نخرج به من العلاقة بين القضيتين. وتفسيرنا لكل عبارة يغذى الإجابة عن هذا السؤال: كيف نتعامل مع اتجاه المتكلم إزاء أفكاره السابقة عن الأنثى (طفلة أو فتاة أو امرأة)؟ هل من الجيد أو المعقول أن لا تكون هناك «مخاوف إنسانية»، أم أن ذلك سذاجة أو بلاهة؟ هل «السيات» الذى أطبق على روحه نوم وهم أو حلم ملهم؟ هل توحى عبارة إنها تبدو بأن لهذه الأنثى كل علامات الكائن الخالد أم أن المتكلم كان مخطئاً فيما يمكن؟ هل توحى المقطوعة الثانية بأنه لم يعد لديها وجود روحى فى الموت وأنها أصبحت مجرد مادة هامة (بلا حياة)؟ إن السطرين الأولين من المقطع يدعواننا إلى هذه النظرة. ولكن السطرين الآخرين يفتحان تفسيراً آخر ممكناً وهو أنها أصبحت جزءاً من عالم طبيعى وتشارك فى وجود أعظم - من بعض النواحي - من الروحانية الساذجة للمقطوعة الأولى، فقد اندمجت «الحركة» و«القوة» الفردية الخاصة بها فى الحركة والقوة العظمى للطبيعة.

من منظور النقد المتجه إلى القارئ، فإن الإجابات عن هذه الأسئلة لا يمكن استخراجها ببساطة من النص، إن معنى النص لا يتشكل بذاته قط، فلا بد من عمل القارئ فى المادة النصية لينتج معنى. ينهب فولفجانج أيزر إلى أن النصوص الأدبية تحتوى دائماً على «فراغات» لا يملؤها إلا القارئ،

وينشأ «الفراغ» بين مقطعي قصيدة وردزورث بسبب عدم تحديد العلاقة بينهما. ويتطلب منا فعل التفسير ملء هذا الفراغ. وتتركز مشكلة النظرية على التساؤل حول ما إذا كان النص نفسه هو الذى يطلق فعل التفسير عند القارئ أم لا، أو إذا كانت الاستراتيجيات التفسيرية الخاصة بالقارئ تفرض الحلول على المشكلات التى يطرحها النص. ولقد طور علماء العلامة هذا المجال ببعض الإتقان حتى من قبل الازدهار المعاصر لنظرية استجابة القارئ. ويذهب أمبرتو إيكو Umberto Eco فى كتابه «دور القارئ» (١٩٧٩) وهو مقالات ترجع إلى عام ١٩٥٩) إلى أن بعض النصوص نصوص «مفتوحة» (فينجانزويك Finnegans Wake موسيقى لانغمية) تتطلب مشاركة القراء فى إنتاج المعنى، بينما النصوص الأخرى «مغلقة» (الهزليات والقصص البوليسية) وتحدد سلفاً استجابة القارئ. وهو أيضاً يتأمل الكيفية التى تحدد بها الشفرات المتاحة للقارئ ماذا يعنى النص عند قراءته.

ولكن قبل أن نبحث الطرائق المتنوعة لتتنظير دور القارئ فى تشكيل المعنى فإن علينا أن نتعامل مع السؤال: من «القارئ»؟

جيرالد برنس: المروى عليه:

إن جيرالد برنس Gerald Prince يطرح السؤال - لماذا نبذل جهدنا عند دراسة الروايات فى التمييز بين الأنواع المتباينة للراوى (العالم بكل شئ، غير الجدير بالثقة، المؤلف الضمنى، إلخ) ولانطرح الأسئلة قط عن الأنواع المختلفة للشخص الذى يتوجه إليه الراوى بالخطاب؛ ويطلق برنس على هذا الشخص مصطلح «المروى عليه» Narratee. ولكن علينا أن لانخلط بين المروى عليه والقارئ. إن الراوى قد يحدد المروى عليه

بمصطلحات الجنس (سيدتى العزيزة) أو الطبقة (سيد) أو الموقف (القارئ فى كرسية) أو العرق (أبيض) أو السن (ناضج). ومن الواضح أن القراء الفعلين قد يتطابقون أو لا يتطابقون مع الشخص الذى يخاطبه الراوى، فقد يكون القارئ الفعلى عامل تعدين شاب أسود يقرأ فى فراشه. أضف إلى ذلك أن المروى عليه يمكن أن يتميز عن «القارئ الضمنى» (نوع القارئ الذى فى ذهن المؤلف عندما يطور القص) و«القارئ المثالى» (القارئ البصير تماما الذى يفهم كل حركة من حركات الكاتب).

ولكن كيف نتعلم تحديد المروى عليه؟ عندما يكتب ترولوب Trol-lope قائلا: «كان أرشيدوقنا دنيويا - ومن منا ليس كذلك؟» فإننا نفهم أن المروى عليهم فى هذه الحالة هم الناس الذين يدركون - مثل الراوى - عدم عصمة كل الكائنات الإنسانية، بما فى ذلك أتقى الأتقياء. وهناك إشارات عدة، مباشرة وغير مباشرة، تسهم فى معرفتنا بالمروى عليه. إن فرضياته يمكن مهاجمتها أو دعمها أو التشكيك فيها أو الدفاع عنها بواسطة الراوى الذى يدل دلالة ضمنية - من ثم - على شخصية المروى عليه، وعندما يعتذر الراوى عن بعض القصور فى الخطاب («لا أستطيع التعبير عن هذه التجربة فى كلمات») فإن ذلك يخبرنا - على نحو غير مباشر - بشئ عن مشاعر المروى عليه وقيمه. وعندما تبدو الرواية كأنها لا تشير إشارة مباشرة إلى المروى عليه، فإننا نلتقط إشارات بالغة الصغر حتى من أصغر المجازات الأدبية؛ إذ غالبا مايدل المشبه به - على سبيل المثال - على نوع العالم المؤلف للمروى عليه (كانت الأغنية حقيقية كجلجلة التليفزيون). وأحيانا يكون المروى عليه شخصية مهمة؛ ففى «ألف ليلة وليلة» - على سبيل المثال - يعتمد بقاء الراوى نفسه، شهرزاد، على الانتباه المستمر للمروى عليه، الخليفة الذى يقتلها إذا فقد اهتمامه بقصصها. وما يترتب على نظرية

برنس المتقنة هو تركيز الانتباه على بعد من أبعاد القص ظل مبهما غير محدد لا يفهمه القراء إلا على سبيل الحدس. إنها نظرية تسهم في النقد الذى يركز على القارئ بلفتها الانتباه إلى الطرائق التى تنتج بها القصص ما يخصها من «قراء» أو «مستمعين» قد لا يتطابقون مع القراء الفعلين. والعديد من النقاد الذين نعرض لهم فى الصفحات التالية يتجاهل هذا التمييز بين القارئ والمروى عليه.

الفينومينولوجيا:

الاتجاه الفلسفى الحديث الذى يركز على الدور المركزى للقارئ فى تحديد المعنى هو الفينومينولوجيا (أو فلسفة الظواهر)؛ إذ يذهب هوسرل إلى أن للموضوع الحق للبحث الفلسفى هو محتويات وعينا وليس موضوعات العالم، فالوعى دائما وعى بشئ، وهذا الشئ الذى يبدو لوعينا هو الواقع حقا بالنسبة إلينا. أضف إلى ذلك أننا نكتشف فى الأشياء التى تظهر فى وعينا (والفينومينولوجيا مشتقة من الكلمة اليونانية التى تعنى ظهور الأشياء) خصائصها العامة أو الجوهرية، إذ تزعم الفينومينولوجيا أنها تكشف لنا عن الطبيعة الكامنة (الشاملة) لكل من الوعى الإنسانى و«الظواهر». كأن ذلك محاولة لإحياء الفكرة (التي خفت منذ عهد الرومانسيين) التى ترى أن العقل الإنسانى الفردى مركز كل معنى ومصدره. ولكن هذا المدخل - فى النظرية الأدبية - لم يشجع الاهتمام الذاتى الخالص بالبنية العقلية للنقاد بل شجع نمطا من النقد يحاول الدخول إلى عالم أعمال الكاتب، والوصول إلى فهم الطبيعة الكامنة أو جوهر الكتابات على نحو ما تظهر لوعى الناقد، فتأثرت الكتابات الأولى للناقد الأمريكى هيلز ميللر J. Hillis Miller بالنظريات الفينومينولوجية لمن أطلق عليهم اسم نقاد

جنييف^(٢) الذين ضموا جورج بوليه: Gearge Poulet وجان ستاروبنسكى Jean Starobinski، مثال ذلك ما كشفت عنه دراسة ميللر لروايات توماس هاردى من أبنية عقلية منتشرة فى الروايات، أبنية تدور تحديدا حول «المسافة» و «الرغبة»، وقد أصبح فعل التفسير ممكنا - فى هذا المدخل - بتبرير مؤداه أن النصوص تتيح للقارئ الدخول إلى وعى المؤلف، هذا الوعى الذى يصفه بوليه بقوله: «أنه مفتوح لى، يرحب بى، يتركنى أنظر عميقا داخله... يسمح لى ... أن أفكر فيما يفكر، وأن أشعر بما يشعر». وذلك نوع من التفكير يعده ديريدا (انظر الفصل الرابع) داخلا فيما أسماه «مركزية اللوجوس»، لما يقوم عليه هذا التفكير من افتراض أن المعنى يرتكز على «ذات متعالية» (المؤلف) ويمكن ارتكازه على ذات أخرى مشابهة (القارئ).

ولقد كان للنظرية النقدية التى تركز على القارئ إرهاصات فيما قام به مارتن هيدجر Martin Heidegger من رفض النظرة «الموضوعية»، عند أستاذه هوسرل Husserl، فقد ذهب هيدجر إلى أن ما يميز به الوجود الإنسانى هو وجوده المتعين^(٣)، Dasein فوعينا يسقط project أشياء العالم

(٢) نقاد جنييف، أو «نقاد الوعى» أو المدخل الوجودى - الأنطولوجى إلى الأدبى، كلها تسميات متعددة أطلقت على النقد الذى كتبه ميشيل ريمون والبير ييجوين بوليه فى المرحلة الأولى، وجان - بيير رشار وجان ستاروبنسكى و ج هيلز ميللر فى المرحلة الثانية، وهى مدرسة ترفض النزعة الشكلية بحثا عن قراءة للتجربة الداخلية التى ينطوى عليها النص، والتى لا تنكشف إلا من خلال الاتحاد الوجدانى بين النقاد واللا شعور النصى، وذلك كله بحثا عن ما يسمى تجربة المؤلف التى يوصلها النص، أو الوعى الفاعل للكاتب لحظة الخلق.

(٣) الوجود المتعين أى الوجود هنا أو هناك. مصطلح ألماني استخدمه هيجل وهيدجر وكثيرون غيرهما، وهو يتألف من مقطعين Sein بمعنى الوجود Da، بمعنى هنا أو هناك وهو يدل على الوجود الجزئى المحدد كوجود الإنسان الفرد.

في الوقت الذي يخضع فيه إلى العالم بحكم الوجود فيه، ونحن نجد أنفسنا «مطروحين» في العالم، في زمان ومكان لم نخترهما، ولكن هذا العالم - في الوقت نفسه - هو عالمنا بقدر ما يسقطه وعينا. ومادام الأمر كذلك فإننا لانستطيع قط أن نتبنى اتجاهها تأمليا محايدا، اتجاهها ينظر إلى العالم من عل كما لو كان ينظر من قمة جبل، فلا بد أن نمتزج بموضوع وعينا نفسه، ولا بد لتفكيرنا أن يكون دائما في موقف، فهو تفكير تاريخي دائما، ذلك على الرغم من أن صفة التاريخ لاتشير إلى التاريخ الخارجى الاجتماعى بل إلى التاريخ الداخلى الشخصى. ولقد قام هانز جورج جادامر Hans George Gadamer بتطبيق مدخل هيدجر الموقفى على النظرية الأدبية، وذلك فى كتابه «الحقيقة والمنهج» (١٩٧٥)، حيث ذهب إلى أن العمل الأدبى لا يخرج إلى العالم بوصفه حزمة منجزة مكتملة التصنيف لمعنى، فالمعنى يعتمد على الموقف التاريخى لمن يقوم بتفسير هذا العمل، ولقد أثرت أفكار جادامر على نظرية الاستقبال (على نحو ماسرى عند ياروس بعد قليل).

فولفجانج أيزر : القارئ المضمرة:

ويرى أيزر Wolfgang Iser أن مهمة النقاد ليست شرح النص من حيث هو موضوع بل شرح الآثار التى يخلقها النص فى القارئ، فالنصوص بطبيعتها تتيح سلسلة من القراءات الممكنة. ويمكن تقسيم مصطلح «قارئ»: إلى «قارئ مضمرة»، و«قارئ فعلى»، والأول هو القارئ الذى يخلق النص لنفسه، ويعادل «شبكة من أبنية استجابة»، تغرينا على القراءة بطرائق معينة. أما «القارئ الفعلى» فهو الذى يستقبل صورا ذهنية بعينها أثناء عملية القراءة. ولكن هذه الصور لا بد أن تتلون حتما بلون «مخزون التجربة الموجود» عند هذا القارئ، فإذا كان القارئ؛ ملحدا فإن تأثيره

بقصيدة وردزورث لا بد أن يختلف عن تأثيره إذا كان مسيحياً، بالمعنى الذى يختلف معه تجربة القراءة باختلاف التجارب الماضية.

إن الكلمات التى نقرأها لا تمثل الموضوعات الفعلية بل الكلام الإنسانى فى رواء أدبى. هذه اللغة الأدبية تساعدنا على تشكيل موضوعات خيالية فى أذهاننا. وإذا توقفنا عند المثال الذى يطرحه أيزرفاننا نجد أن رواية «توم جونز» التى كتبها فيلدنج Fielding تقدم شخصيتين، ألورثى (الرجل الكامل) والكابتن بلفيل (المرائى). ولكن الموضوع الخيالى للقارئ - وهو «الرجل الكامل» - يمر بعملية تعديل؛ إذ إننا نقوم بتكييف هذا الموضوع عندما ينخدع ألورثى بالتقوى الماكرة لبلفيل، وذلك لنضع فى حسابنا افتقار الرجل الكامل إلى دقة التمييز. ورحلة القارئ خلال الكتاب هى عملية مستمرة من هذه التعديلات. فنحن نستبقى فى عقولنا توقعات معينة، مبنية على ذكرياتنا عن الشخصيات والأحداث. ولكن التوقعات تتعدل على نحو مستمر، وتتحول الذكريات أثناء مضينا فى النص. ومانمسك به فى ثنايا قراءتنا هو مجرد سلسلة من وجهات النظر المتغيرة وليس شيئاً ثابتاً مكتمل المعنى فى كل وجهة نظر على حدة.

وإذا كان العمل الأدبى لا يمثل الموضوعات، فإنه يشير إلى عالم خارج الأدب بواسطة اختيار معايير معينة، هى أنسقة قيمة أو وجهات نظر فى العالم. هذه المعايير هى تصورات عن الواقع، تعين الكائنات الإنسانية على تعقل هياولى تجربتها. ويختار النص «مخزوناً» من هذه المعايير معلقاً الحكم بسلامتها داخل عالمه الأدبى، فنجد فى رواية توم جونز شخصيات متباينة تجسد معايير مختلفة: ألورثى (الخيرية) وسكواير ويسترن (العاطفة الطاغية) وسكوير (التلاؤم الدائم للأشياء) وتوكسوم (العقل الإنسانى الغارق

فى الإثم) وصوفيا (نموذج الاستسلام الطبيعى)، ويؤكد كل معيار قيما بعينها على حساب غيرها من القيم. ويميل إلى تقليص صورة الطبيعة الإنسانية فى مبدأ أو منظور القارئ. وتفرض الطبيعة غير المنجزة للنص على القارئ أن ينسب قيم البطل (الطبيعة الخيرة) إلى معايير متباينة ينتهكها البطل فى أحداث بعينها، فالقارئ وحده هو الذى يحقق الدرجة التى يتم معها رفض المعايير أو الشك فيها. والقارئ وحده هو الذى يصوغ الحكم الأخلاقى المعقد على توم، ويرى أن الطبيعة الخيرة لم تنتهك المعايير الصارمة لغيره من الشخصيات، وأن هذه الطبيعة تقوم بذلك لأسباب منها افتقار توم إلى «الحصافة» و«التعقل». ولا يخبرنا فيلدنج كاتب الرواية بذلك كله، ولكننا - نحن القراء - ندخل ذلك فى تفسيرنا لنسد «ثغرة» فى النص، إننا نقابل فى الحياة الفعلية أحيانا أناسا يمثلون وجهات نظر مختلفة فى العالم كأن يكونوا «كلبين»، أو «إنسانيين»، ولكننا نعزو إليهم مثل هاتين الصفتين على أساس من أفكار استقبلناها. وأنساق القيمة التى نواجهها نلقاها كيفما اتفق، فليس هناك مؤلف يختارها أو يحددها سلفا، وليس هناك بطل يظهر ليمتحن سلامتها، ولذلك فإن النص الأدبى - حتى رغم وجود «ثغرات» فيه لا بد من سدها - أكثر بناء بالقطع من الحياة.

وإذا طبقنا منهج أيزر على قصيدة وردزورث التى مرت بنا فإننا نرى أن نشاط القارئ يتمثل - أولا - فى تكييف وجهة نظر بعينها («أ»، «ب»، «ج» ثم «د») وفى ملء «الفراغ» بين المقطعين ثانيا (أى بين الروحانية المتعالية ومحايثة وحدة الوجود). قد يبدو هذا التطبيق غير عملى نوعا، لأن القصيدة القصيرة لا تحتاج إلى أن يقوم القارئ بكل هذه السلسلة الطويلة من التعديلات اللازمة عند قراءة الرواية، ولكن مفهوم «الثغرات» يظل مفهوما سليما رغم ذلك.

على أنه يظل غير واضح ما إذا كان أيزر يرغب في منح القارئ القوة على ملء الفراغات في النص حين يشاء، أم أنه يجعل من النص الفيصل النهائي فيما يحدده القارئ من معنى. هل تمتلئ الشفرة بين «الرجل الكامل» و«افتقار الرجل الكامل إلى دقة التمييز» بواسطة حكم لقارئ حر أم تمتلئ بواسطة قارئ توجهه تعليمات النص؟ إن نقطة التركيز عند أيزر فينومينولوجية في النهاية؛ لأن تجربة القارئ في القراءة هي مركز العملية الأدبية؛ فالقراء يأخذون النص إلى وعيهم محولين إياه إلى تجربة خاصة بهم، بما يقومون به من التوفيق بين تناقضات وجهات النظر المتباينة التي تظهر في النص من ناحية، أو ما يقومون به - بطرائق متباينة - من ملء للشغرات بين وجهات النظر من ناحية ثانية. ويبدو أن «مخزون التجربة» الخاص بالقارئ يقوم ببعض الدور في هذه العملية، وفي الوقت نفسه يضع النص القواعد التي يحقق القارئ المعنى على أساس منها. ولا بد للوعي الموجود عند القارئ من أن يقوم بعملية تكيف داخلية متعينة، لكي يستقبل وجهات النظر الغريبة التي يقدمها النص ويعالجها أثناء القراءة. وذلك موقف ينتج عنه إمكان تعديل «نظرة العالم» الخاصة بالقارئ، بفعل التمثيل الداخلي والمفاوضة وتحديد العناصر غير المحددة تماما في النص. ومعنى ذلك أننا يمكن أن نتعلم شيئا من القراءة لو استخدمنا كلمات أيزر، فالقراءة «تمنحنا الفرصة لصياغة مالميس مصوغا».

هانز روبرت ياوس: آفاق التوقعات:

ويعطى ياوس Hans Robert Jauss + وهو قطب ألماني بارز من أقطاب نظرية «الاستقبال» Rezeption-aesthetik - بعدا تاريخيا للنقد الذي يتجه إلى القارئ، وذلك في محاولته تحقيق التوازن بين الشكلية الروسية التي

تجاهل التاريخ، والنظريات الاجتماعية التي تتجاهل النص. ولقد بدأت كتاباته خلال فترة قلق اجتماعي في نهاية الستينيات، حين أراد هو وأقرانه إعادة النظر في القانون القديم للأدب الألماني، وتأكيد ضرورة النظرة النقدية الجديدة إلى هذا الأدب، بعد أن لم تعد النظرة القديمة مقبولة، شأنها في ذلك شأن فيزياء نيوتن التي فقدت جاذبيتها منذ بواكير هذا القرن.

ويستعير ياوس من فلسفة العلم (ت. س. كون) مفهوم «الصيغة» Paradigm الذي يشير إلى الإطار العلمي للتصورات والفرضيات الفاعلة في عصر من العصور. وهو مفهوم يعنى أن «العلم» يظل يقوم بعمله التجريبي داخل عالم عقلي لصيغة بعينها، إلى أن تحل صيغة جديدة محل الصيغة القديمة، وتطرح مشكلات جديدة وتؤسس فرضيات جديدة. ويستخدم ياوس مصطلح «أفق التوقعات» ليصف المقاييس التي يستخدمها القراء في الحكم على النصوص الأدبية في أى عصر من العصور. هذه المقاييس تساعد القراء على تحديد الكيفية التي يحكمون بها على قصيدة من قصائد بأنها ملحمة أو مأساوية أو رعوية مثلا، كما أن هذه المقاييس تحدد - بطريقة أعم - ما يعد استخداما شعريا أو أدبيا بوصفه مناقضا للاستخدام غير الشعري أو الأدبي للغة. وتحرك الكتابة العادية والقراءة داخل هذا الأفق. فإذا نظرنا إلى الأدب الإنجليزي في العصر الأوغسطيني، على سبيل المثال، رأينا أن شعر بوب كان يحكم عليه تبعا لمقاييس تقوم على قيم الوضوح والطبع واللياقة الأسلوبية (مطابقة الكلمات لمقتضى الموضوع). ولكن ذلك لم يؤسس قيمة شعر بوب مرة واحدة وإلى الأبد؛ ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر أخذ المعلقون يتساءلون عن ما إذا كان بوب شاعرا أصلا، وذهبوا إلى أنه كان ناظما بارعا ينظم النثر في قوالب مقفاة، ويفتقر إلى القوى التخيلية المطلوبة للشعر الحق. وإذا استبعدنا القرن اللاحق، أمكن أن نرى حركة القراءات

٧
الحديثة لشعر بوب داخل أفق متغير من التوقعات، فنحن غالبا مانقيم قصائد بوب - الآن - على أساس مافيهها من فطانة^(٤) Wit وتعقد وبصيرة أخلاقية وإحياء للتراث الأدبي.

إن الأفق الأصلي من التوقعات يخبرنا عن الكيفية التي تم بها تقييم العمل وتفسيره عند ظهوره فحسب، ولكن دون أن يؤسس هذا الأفق معنى العمل على نحو نهائي. ويرى ياوس أنه يستوى في الخطأ القول إن العمل الأدبي - كوني وإنه ثابت المعنى أبدا، وإنه مفتوح لكل القراء في أى عصر من العصور - «إن العمل الأدبي ليس موضوعا ينهض بذاته عارضا الوجه نفسه لكل قارئ في كل فترة تاريخية، فهو ليس أثرا من الآثار التي تكشف عن جوهرها اللازمى فى نجوى ذاتية». ويعنى ذلك، بالطبع، أننا لانستطيع دراسة الآفاق المتعاقبة التي تنحدر إلينا من عصر العمل الأدبي إلى العصر الذى نعيش فيه، لنلخص - بتعال أوليمبي - القيمة النهائية أو المعنى النهائي لهذا العمل، ففي ذلك تجاهل لموقفنا التاريخي. وبأى سلطة نتقبل مانقبل من معنى العمل؟ أبسلطة القراء الأوائل؟ أم بسلطة الرأى المتجمع للقراء عبر الزمن؟ أم بسلطة الحكم الجمالى للحاضر؟ إن القراء الأوائل قد يعجزون عن رؤية الدلالة الثورية للكاتب (كما حدث مع ويليام بليك على سبيل المثال)، والاعتراض نفسه يمكن توجيهه إلى أحكام القراء المتأخرين بما فيهم نحن.

(٤) أو الابتكار الذكى فى الكلام أو الكتابة، على نحو مايعرفها مجدى وهبة فى «معجم المصطلحات الأدبية»، حيث تشير إلى حسن التنسيق، والاختراع، وملاءمة الأفكار للكلمات، وسرعة البديهة، والقدرة على التعبير فى أسلوب بليغ عن معان تبدو غير مألوفة للوهلة الأولى.

وتتبع إجابة ياوس عن مثل هذه الأسئلة من «نظرية التأويل» أو الهرمنيوطيقا Hermeneutics^(٥) الفلسفية عند هانز جورج جادامر، وهو واحد من أتباع هايدجر؛ إذ يذهب جادامر إلى أن كل تفسير لأدب الماضي إنما ينبع من حوار بين الماضي والحاضر، وأن محاولاتنا لفهم عمل من الأعمال الأدبية إنما تعتمد على الأسئلة التي يسمح لنا مناخنا الثقافي الخاص بتوجيهها، وأتينا نسعى - في الوقت نفسه - إلى اكتشاف الأسئلة التي كان العمل ذاته يحاول الإجابة عنها في حوارها الخاص مع التاريخ. إن منظورنا الحاضر يتضمن دائما علاقة بالماضي، وفي الوقت نفسه لا يمكن إدراك الماضي إلا من خلال المنظور المحدود للحاضر، ولنقل إن قيمة تأسيس معرفة [خالصة] بالماضي مهمة لا أمل فيها، فالهرمنيوطيقا لا تفصل بين العارف وموضوع المعرفة في الفهم، على نحو ما هو مألوف في العلم التجريبي، بل تنظر الهرمنيوطيقا إلى الفهم من حيث هو «انصهار» للماضي والحاضر، فنحن لا يمكن أن نقوم برحلتنا إلى الماضي دون أن نأخذ الحاضر معنا، ولقد كانت «الهرمنيوطيقا» أصلا علما يستخدم لتفسير النصوص المقدسة، وهو علم تستبقى صورته الحديثة الاتجاه التوقيري الجاد نفسه إزاء النصوص التي يحاول العلم النفاذ إليها.

وياوس على وعى بأن الكاتب قد يصدم التوقعات المنتشرة في عصره على نحو مباشر، وذلك وعى طبيعي بالنظر إلى مناخ التغير الأدبي الذي

(٥) مصطلح يوناني الأصل يشير إلى عملية التفسير أو التأويل. وقد ارتبط بعلم تفسير النصوص الدينية وتأويلها في نشأته، ثم اتسع مدلوله مع فلسفة الظواهر، وأصبح مجالا معرفيا يصل بين علوم متعددة، تتلاقى فيما بينها حول مشكلة التفسير، من منظور العلاقة التأويلية بين النص ومن يقوم بتفسيره والأنظمة التي تقوم عليها عملية التفسير.

تطورت فيه نظرية الاستقبال فى ألمانيا خلال الستينيات، حيث برز كتاب من أمثال رولف هونجهت Rolf Hochuthh ، وهانز ماجنوس إنزينسبرجر Hans Magnus Enzensberger وبيتر هيندكه Peter Handke، وهم كتاب قاموا بتحديد الشكلية الأدبية المقبولة فى هذا الوقت بواسطة الإلحاح على الاهتمام المباشر بالقارئ أو المستمع. ولقد درس ياوس حالة بودلير الذى أحدث صدور ديوانه «أزهار الشر» هياجا استدعى الاتهام القانونى، عندما انتهكت قصائد الديوان معايير الأخلاق البرجوازية وقوانين الشعر الرومانسى، ولكن هذه القصائد نفسها أنتجت - على الفور - أفقا جماليا جديدا من التوقعات، فقد رأت الطليعة الأدبية فيها تجسيدا لنزعة التدهور، وأصبحت هذه القصائد - فى آخر القرن التاسع عشر - بمثابة تعبير عن العبارة الجمالية للنزعة العدمية، وينقد ياوس التفسيرات النفسية واللغوية والاجتماعية لقصائد بودلير رافضا إياها فى الأغلب. ولكن المرء لايسعد بمنهج يدرك محدوديته التاريخية ومع ذلك يشعر بالقدرة على وصف التفسيرات المخالفة له بأنها تطرح «أسئلة زائفة غير شرعية». إن «انصهار الأفق» - فيما يبدو - ليس امتزاجا يشمل كل وجهات النظر المطروحة بل تلك التى يراها الحس التأويلى (الهرمنيوطيقى) للناقد بمثابة جزء من الكلية المنبثقة تدريجيا للمعنى التى تصنع الوحدة الحقة للنص.

ستانلى فيش : تجربة القارئ:

ولقد طور ستانلى فيش Stanley Fish - الناقد الأمريكى المتخصص فى الأدب الإنجليزى للقرن السابع عشر - منظورا للنقد الذى يتوجه إلى القارئ أسماه «أسلوبيات العاطفة»، وهو يشبه أيزر فى تركيزه على العمليات التى يكيف بها القراء توقعهم أثناء متابعتهم النص، ولكنه يدرس ذلك على

المستوى المحلى المباشر للجملة، ويفصل فصلا واعيا بين منهجه وكل أنواع الشكلية (بما فيها النقد الأمريكى الجديد) منكرا أن يكون للغة الأدبية أى مكانة خاصة، فنحن نستخدم استراتيجيات القراءة نفسها فى تفسير الجمل الأدبية وغير الأدبية، ويتجه بتركيزه إلى الاستجابات المتصاعدة للقارئ إزاء كلمات الجمل المتتابعة فى الزمن، ومثال هذا التركيز تحليله للجملة التى يصف بها ميلتون حالة وعى الملائكة الذين هبطوا من النعيم إلى الجحيم: «ماكانوا غير مدركين لموثق الشر»، حين يرى أن هذه الجملة لايمكن تناولها بوصفها تقريراً يساوى (أدركوا موثق الشر)، فإن علينا أن نلتفت إلى مساق الكلمات الذى يخلق حالة من الترقب عند القارئ الذى يظل معلقاً بين وجهتى نظر مختلفتين لوعى الملائكة الهابطين. وذلك تفسير يضعفه - دون أن يدحضه - حقيقة أن ميلتون كان يقلد تقليداً واضحاً النفى المزدوج فى أسلوب الملحمة القديمة. ولكن الجملة التالية من وولتر باتر تنال تحليلاً حساساً متميزاً من ستانلى فيش:

«إن حياتنا هذه التى تشبه على الأقل اللهب، ليست سوى التقاء، يتجدد من لحظة إلى أخرى، للقوى التى ترثل عاجلاً أو آجلاً إلى سبلها».

حيث يوضح أن باتر يمنع القارئ من تكوين صورة ثابتة أو محددة فى الذهن بواسطة «التقاء القوى» الذى «يتجدد من لحظة إلى أخرى»، وأن باتر يدفع القارئ - فى كل مرحلة من الجملة - إلى القيام بتعديل للتوقع والتفسير. ففكرة «الالتقاء» يعطلها «الارتحال»، وعاجلاً أو آجلاً تترك «الارتحال»، غير محدد زمانياً، ولذلك يتعدل توقع القارئ للمعنى على نحو مستمر، بحيث يغدو المعنى بمثابة الحركة الكلية للقراءة.

ولقد دعم جوناثان كوللر أهداف فيش، ولكنه انتقده بسبب فشله في تقديم صياغة نظرية حقيقية لما يقوم به من نقد، ذلك لأن فيش يرى أن قراءته للجمل تتبع ببساطة الممارسة الطبيعية للقراء الخبراء، وأن القارئ هو الشخص الذى يكتسب «مقدرة لغوية يتمثل بها المعرفة التركيبية والدلالية المطلوبة للقراءة، بالطريقة نفسها التى يكتسب بها «القارئ الخبير» للنصوص الأدبية «مقدرة أدبية»، (أو معرفة بالأعراف الأدبية). ويعترض كوللر على هذا الموقف بأمرين حاسمين، أولهما أن فيش يعجز عن تنظير أعراف القراءة، أى أنه يفشل فى طرح السؤال: «ما الأعراف التى يتبعها القراء حين يقرأون؟» وثانيهما أن ما يزعمه فيش عن قراءة الجمل كلمة كلمة فى تعاقب زمنى إنما هو أمر مضلل، فليس هناك من سبب يدعو إلى الاعتقاد بأن القراء يتعاملون مع الجمل فعلا على هذا النحو المتعاقب المتجزئ. ولماذا نفترض، مثلا، أن القارئ الذى يواجه جملة ميلتون «وما كانوا غير مدركين» سوف يشعر بأنه قد علق بين نظرتين؟ إن هناك شيئا مصطنعا فى استعداد فيش الدائم للاندهاش بالكلمة اللاحقة فى الجملة. أضف إلى ذلك ما يقرب به فيش نفسه من أن نهجه يميل إلى إعطاء الميزة للنصوص التى تسير بطريقة التقويض الذاتى (ولقد أطلق على أحد كتبه «منتجات ذاتية الاستهلاك»).

ويعترف فيش فى بحثه «هل هناك نص فى هذا الفصل؟» (١٩٨٠) بأن كتبه السابقة عالجت تجربته فى القراءة على أنها المعيار، ويمضى مبرا موقفه السابق بتقديم فكرة «المجموعات المفسرة» - Interpretive communities، مما يعنى أنه كان يحاول إقناع القراء بتبنى «مجموعة من فرضيات الجماعة ليفعلوا ما فعلت عندما يقرأون». قد يكون هناك - بالطبع - مجموعات مختلفة متعددة من القراء الذين يتبنون أنواعا معينة من

استراتيجيات القراءة (كاستراتيجيات فيش!) ، ولكن استراتيجيات جماعة بعينها - في هذه المرحلة الأخيرة من عمله - هي التي تحدد العملية الكاملة للقراءة، أي تحدد الحقائق الأسلوبية للنصوص وتجربة قراءتها. وإذا قبلنا مقولة «الجماعات المفسرة» فإننا لن نكون في حاجة إلى الخيار بين طرح الأسئلة عن النصوص أو القارئ، لأن كل المشكلة عن الذات والموضوع تتلاشى.

ميشيل ريفاتير: المقدرة الأدبية:

يتفق ميشيل ريفاتير Michael Riffaterre مع الشكليين الروس في النظرة إلى الشعر بوصفه استخداما خاصا للغة، فاللغة العادية لغة عملية تستخدم للإشارة إلى نوع من الواقع، أما اللغة الشعرية فتركز على الرسالة بوصفها غاية في ذاتها. وهو يأخذ هذه النظرة الشكلية عن ياكوبسون، ولكنه يهاجم - في مقال مشهور - تفسير ياكوبسون وشتراوس لقصيدة «القطط» لبودلير، موضحاً أن الملامح اللغوية التي يكتشفانها في القصيدة قد لا يدركها القارئ الخبير نفسه. ورغم أنه يرى أن طريقتيهما البنيوية تبرز كل وسائل الأنماط النحوية والفونيمية، إلا أنه يرفض أن تكون كل الملامح التي يلحظانها - في القصيدة - جزءا من بنيتها الشعرية بالنسبة إلى القارئ. وفي مثال معبر، يعترض على دعواهما بأن بودلير - عندما يختم سطرا من قصيدته بكلمة Volupté (لذة) (بدل Plaisir على سبيل المثال) - يتلاعب بالاسم المؤنث La Volupté (لا) ويستخدمه قافية «مذكرة»، على نحو يخلق غموضا جنسيا في القصيدة، ويشير ريفاتير بحق إلى أن القارئ الذي لديه خبرة معقولة قد لا يسمع إطلاقا عن المصطلح الفني للقافية

«المذكرة» و«المؤنثة»^(٦). ولكن ريفاتير يجد صعوبة في تبرير السبب الذى يجعل من شئ أدركه ياكوبسون وشتراوس لا يعد دليلا على ملاحظة القراء فى النص، فماذا عليك أن تفعل لتحصل على إجازة من قارئك؟

ويطور ريفاتير نظريته فى كتابه «سميوطيقا الشعر»^(٧) (١٩٧٨) حيث يذهب إلى أن القراء الأكفاء يتجاوزون المعنى السطحي، فنحن إذا نظرنا إلى القصيدة على أنها سلسلة من الجمل قصرنا انتباهنا على المعنى الذى ليس سوى ما يمكن قوله لتمثيل وحدات الإعلام فى القصيدة. وإذا قصرنا انتباهنا على «معنى» فحسب فى القصيدة فإننا نختزلها فى خيط من الأجزاء المنفصلة (التي قد لا يكون لها معنى). وتبدأ استجابتنا الحقة إلى القصيدة بملاحظة أن عناصر (علامات) القصيدة تنحرف غالبا عن النحو العادى أو المحاكاة العادية، فالقصيدة تؤسس دلالتها على نحو غير مباشر فحسب، وتهدد المحاكاة الأدبية للواقع بهذا الفعل. وإذا كان المطلوب من القارئ هو مجرد المقدرة اللغوية العادية لفهم «معنى» القصيدة فإن «المقدرة الأدبية» لازمة للتعامل مع اللانحويات المتكررة التى يواجهها القارئ أثناء قراءة القصيدة، فالقارئ مضطر - خلال عملية القراءة التى يواجهها فيها العائق المربك من الانحراف النحوى - إلى الكشف عن مستوى ثان (أعلى) من

(٦) القافية المذكرة Masculine Rhyme فى الشعر الفرنسى، هى القافية التى تنتهى بمقطع لا يليه حرف (E) الصامت، فى حين أن القافية المؤنثة هى التى تنتهى بمقطع صائت يليه حرف ال (E) الصامت. والمعتاد فى الشعر الفرنسى المكون من أبيات سكندرية أن يلي فيه كل بيتين من القافية المؤنثة بيتان من القافية المذكرة.

(٧) قدمت فريال غزول ترجمة ممتازة لبعض ما كتبه ريفاتير فى الفصل الأول من هذا الكتاب. ضمن كتاب «مدخل إلى السميوطيقا» الذى أعده نصر أبو زيد وسيزا قاسم. القاهرة ١٩٨٧.

الدلالة التي تفسر الملامح اللانحوية للنص. ومايكشفه القارئ - في النهاية - هو «مولد» Matrix^(٨) بنائي يمكن اختزاله في جملة واحدة أو حتى كلمة واحدة. ولكن المولد لا يمكن اختزاله إلا على نحو غير مباشر، فليس له وجود فعلي بوصفه كلمة واحدة أو جملة واحدة في القصيدة. وتتصل القصيدة بمولدها بواسطة مايتولد عنه من صيغ فعلية في هيئة تعبيرات مألوفة أو جاهزة أو اقتباسات أو ترابطات عرفية. هذه الصيغ هي Hypograms «المضمنات»^(٩) التي تدل على «المولد» الذي يعطى للقصيدة وحدتها في آخر المطاف. وتتلخص هذه العملية في القراءة كالتالي:

- ١ - حاول القراءة باحثاً عن «معنى» عادي.
- ٢ - ركز الانتباه على تلك العناصر التي تبدو لانحوية، والتي تعوق التفسير العادي القائم على المحاكاة.
- ٣ - اكتشف «المضمنات» (أو الركائز) التي تنال قسطاً أكبر من التعبير الموسع أو غير العادي في النص.
- ٤ - استخلص المولد من المضمنات، أي أوجد جملة واحدة أو كلمة قادرة على توليد «المضمنات» والنص.

(٨) المصطلح مستخدم في النحو التحويلي، حيث يعني الجملة الأساسية التي تتولد منها الجملة الفرعية. وهو، عند ريفاتير، أقرب إلى المعنى المجرد أو الكلمة المفتاح التي تلخص الدلالة، إذ يصفه بأنه مفهوم مجرد لا يتحقق في ذاته، أو بذاته، بل من خلال متغيراته، أو مايسميه ريفاتير اللانحويات.

(٩) مصطلح يرجع إلى دي سوسير، ويقصد به ريفاتير ما يظهر في شكل كلمات مضمنة في جمل يعكس نظامها المعاني اللازمة لنواة المولد.

وإذا حاولنا، تطبيق هذه النظرية تطبيقاً أولياً على قصيدة وردزورث «أطبق السببات على روحى»، فإننا قد نصل فى النهاية إلى أن المولد هو «روح ومادة»، وتبدو المضمّنات التى تتشكل فى النصّ أنها:

١ — الموت نهاية الحياة.

٢ — الروح الإنسانى لا يمكن أن يموت.

٣ — فى الموت نعود إلى الأرض التى جئنا منها.

وتحقّق القصيدة الوحدة بتوليد هذه الركائز بطريقة غير متوقعة من مولد أساسى، ولا شك أن نظرية ريفاتير كانت تظهر أقوى مما عرضت لو قدمت واحداً من أمثله الخاصة التى يحلّ فيها قصائد بودلير أو جوتيه، فمنهج يبدو أكثر ملاءمة من حيث هو طريقة لقراءة الشعر الذى يناقض المعتاد من النحو أو الدلالة، ولكن هذا المنهج ينطوى على صعاب عدة من حيث هو نظرية عامة فى القراءة. وليس أقل هذه الصعاب أنه يرفض الأنواع المتعددة للقراءة التى قد تظنه أنت أو أنا مستقيمة تماماً (كأن نقرأ القصيدة من أجل رسالتها السياسية).

جوناثان كوللر: أعراف القراءة^(١٠)

يذهب جوناثان كوللر إلى أن أية نظرية فى القراءة لابد لها من أن تكشف عن العمليات التفسيرية التى يستخدمها القراء، فكلنا يعرف أن

(١٠) قام جوناثان كوللر بتعميق أطروحته فى كتابه «ملاحقة العلامات»، ثم فى تعقيبه على نظرية التفكيك فى كتابه الذى صدر عنها عام ١٩٨٣. وقد قدم ياكوبسون قبيل موته نقداً لافتاً لاعتراضات كوللر التى طرحها على آلياته القرائية فى بحث مهم نشر بعد وفاة ياكوبسون بعامين - أى عام ١٩٨٤ وقد نشر فى كتابه «قضايا الشعرية» - فى الترجمة العربية.

اختلاف القراء ينتج التفسيرات المختلفة. وإذا كان هذا الاختلاف في التفسير قد أفضى بالمنظرين إلى اليأس الكامل من تطوير نظرية في القراءة، فإن كولر يذهب إلى أن الاختلاف نفسه هو ما يجب أن تشرحه النظرية، فمن الممكن أن يختلف القراء حول المعنى ولكنهم يظلون يتبعون المجموعة نفسها من الأعراف التفسيرية. وأول مثال يقدمه كولر على ذلك هو الفرضية الأساسية للنقد الجديد، أعني فرضية الوحدة؛ إذ قد يكتشف قراء مختلفون هذه الوحدة بطرائق متعددة في نص بعينه، ولكن الأشكال الأساسية للمعنى الذى يبحثون عنه (أى أشكال الوحدة) تظل واحدة. وقد لانشر بما يلزمنا بإدراك وحدة تجاربنا في الحياة الفعلية، ولكننا غالباً مانتوقع العثور على هذه الوحدة في حالة القصائد. وإذا عدنا إلى قصيدة وردزورث التى ناقشتها من قبل، نجد أنه من العسير جداً على أى قارئ لها أن لايسأل السؤال: «كيف أوجد بين شطرى القصيدة؟». ومهما يكن من أمر، فإن تنوع التفسيرات ينشأ بسبب تعدد النماذج التى يمكن للمرء أن يقدمها للوحدة، وعلى نحو ينطوى معه النموذج على طرائق متعددة للتطبيق على القصيدة. وهناك نموذج وحدة القيمة، حيث تكتسب قصيدة وردزورث وحدتها بما تنطوى عليه من نزعة «وحدة الوجود» أو نزعة «عدمية». وهناك نموذج بديل يمكن أن تكتشف معه الوحدة عن طريق «نقض الحقيقة»، حيث توجد رؤية زائفة أو غير ملائمة أولاً، ثم يظهر نظيرها الحقيقى أو الملائم ثانياً (كولر). وإذا طبقنا هذا النموذج على قصيدة وردزورث أمكن لنا أن نرى تحولاً من رؤية غير ملائمة لروحانية غيبية إلى رؤية أكثر ملائمة للاتحاد بالطبيعة. ويمكن القول بالتأكيد إن منهج كولر يتيح تقدماً نظرياً مثمراً أصيلاً، فهو لا يصنع صنيع ستانلى فيش الذى يعطينا منهجاً مفيداً ولكنه يغلق عينيه إزاء المسائل الأساسية للنظرية، ولا يصنع صنيع ريفاتير الذى يقدم منهجاً ضيقاً. ولكن يمكن للمرء - فى المقابل - أن يعترض على

رفض كولر دراسة مضمون حركات تفسيرية بعينها، فهو يتوقف - على سبيل المثال - عند قراءتين سياسيتين لـ «لندن» بليك، وينتهي إلى «أن التفسيرات التي يقدمها قارئان مختلفان لما هو خطأ في النظام السياسي تختلف بالطبع، ولكن العمليات التفسيرية الشكلية التي تمنح التفسيرات بنية تحتويها تبدو متشابهة تماما». وهنا، نوع من التعسف في نظرية تعالج الحركات التفسيرية بوصفها شيئا أساسيا في الوقت الذي تعالج فيه مضمون هذه الحركات بوصفه شيئا غير أساسي، فهناك أسس تاريخية قد تكون قائمة في آخر المطاف لتجعل من تطبيق نموذج تفسيري أكثر سلامة ومعقولة من غيره، فضلا عن أنه يمكن لقراءات بدرجات مختلفة من المعقولة أن تشترك في الأعراف التفسيرية نفسها. والأكثر جدوى أن ننظر إلى قصيدة وردزورث - على سبيل المثال - من حيث هي تمثيل لوحدة الوجود أكثر مما هي تمثيل لنزعة عدمية (رغم أن كلتا النظرتين ليست مقنعة تماما).

ولقد رأينا قبل ذلك ماذهب إليه كولر «الشعرية البنيوية» من عدم إمكان وجود نظرية لبنية النصوص أو الأنواع، بسبب عدم وجود شكل شامل للمقدرة التي تنتج هذه النصوص أو الأنواع، ومعنى ذلك أننا لايمكن أن نتحدث إلا عن «مقدرة» القراء في تعقل مايقراءون، وعن شعراء وروائيين يكتبون على أساس من هذه المقدرة ماداموا يكتبون ما يمكن قراءته. ولا بد لنا من أن نمتلك «مقدرة أدبية» لكي نقرأ النص بوصفه أدبا فحاجتنا إلى هذه «المقدرة الأدبية» كحاجتنا إلى «المقدرة اللغوية» الأعم التي نتمكن بها من فهم مانقابله من مخاطبات لغوية عادية. ونحن نكتسب «المقدرة الأدبية» أو هذا «النحو» للأدب في المؤسسات التعليمية - صحيح أن كولر يقر بأن الأعراف التي نطبقها على نوع أدبي لانطبقها على نوع آخر، وأن أعراف التفسير تختلف من عصر إلى عصر، ولكن نزعتة البنيوية

جعلته يؤمن بأن النظرية الأدبية لا بد لها من الاهتمام بالأنساق الساكنة
الآنية من المعنى وليس بالأنساق التاريخية المتعاقبة.

نورمان هولاند وديفيد بلايخ: علم نفس القارئ:

استمد ناقدان أمريكيان مدخلين إلى نظرية القراءة من علم النفس. أما
نورمان هولاند Norman Holland فقد تبنى نظرية مؤداها أن كل طفل
يتلقى عن أمه سمة من «هوية أولية». وينطوي الراشد على «تيمة هوية»
أشبه بالتيمة الموسيقية التي تقبل التنوع مع بقاء بنيتها الأساسية ثابتة. ومعنى
ذلك أننا عندما نقرأ نصا نمارس معه عملية تتوافق مع «تيمة الهوية» التي
تميزنا، ونستخدم العمل على نحو يرمز إلينا ويكرر نفسياتنا في النهاية، ونعيد
صياغته لنكتشف استراتيجياتنا المميزة الخاصة، ونتغلب على المخاوف العميقة
والرغبات التي تشكل حياتنا الروحية، إذ لا بد من تهدئة آليات الدفاع
المشوشة عند القارئ لتتيح مدخلا إلى النص. والمثال المثير الذي يستشهد به
هولاند على ذلك هو حالة صبي دفع دفعا إلى قراءة القصص البوليسية
لإشباع مشاعره العدوانية إزاء أمه، وذلك بإقامة علاقة تربطه بالقاتل، على
نحو لم تتخذ معه هذه القصص سمة رغبات الصبي فحسب بل أتاح له
تلطيف إحساسه بالذنب عن طريق ربط نفسه بالضحية والمفتش بالمثل، مما
جعل الصبي قادرا على إشباع غرائزه وتقديم دفاعات تواجه القلق والذنب.
والمثال غير نمطى ولكنه يثير عددا من الأسئلة عن نظرية هولاند الذي يطرح
أمثلة أكثر نمطية من هذا المثال. وفي هذه الأمثلة الأخيرة، يسيطر القراء
على النصوص باكتشاف تيمات موحدة وأبنية تساعد على استيعاب
النص - «إنك عندما تنقل النص إلى داخلك تتحكم في شئ يقع في

الخارج حيث لا يمكن السيطرة عليه بل يسعى إلى السيطرة عليك». ويؤكد هولاند التفاعل بين تيمة الهوية عند القارئ ووحدة النص التي يكتشفها القارئ بوصفها تعبيراً عن تيمة هويته. ولكن مثال الصبي يبدو كما لو كان يطل الأفكار الخاصة بـ «وحدة» النص و«تيمة الهوية»، فإن أية قصة بوليسية كانت تسمح له بتشكيل المعاني التي يحتاجها نفسياً. وإذا كانت هناك وحدة نصية فواضح أنها تقع في بنية قص القصص البوليسية أكثر مما تقع في نصوص متعينة: وعلى أي حال، فإن قراءة هذا الصبي تمزق وحدة النصوص بإنتاج أوضاع متناقضة للذات يحاول الصبي الدخول فيها. ومن المؤكد أن هذا المثل (الذي لم يتابعه هولاند حتى النهاية) يطرح الشكوك حول فكرة تيمة الهوية كلها من حيث هي مبدأ للوحدة النفسية. وقد أوضحت مناقشتنا للاكان بنموذج بديل (الفصل الرابع).

أما ديفيد بلايخ David Bleich فإنه يقدم بكتابه «النقد الذاتي» (١٩٧٨) حاجة محكمة في سبيل التحول من الصيغة الموضوعية إلى الصيغة الذاتية في النظرية النقدية. وهو يذهب إلى أن فلاسفة العلم المحدثين (خصوصاً ت. س. كون) قد أنكروا على نحو صائب وجود عالم موضوعي من الحقائق، فالأبنية العقلية للمدرك تحدد ما يعد حقيقة موضوعية حتى في العلم، إذ «المعرفة يصنعها الناس ولا يجدونها» «لأن» موضوع الملاحظة يظهر متغيراً بفعل الملاحظة. ويمضي بلايخ في الإلحاح على أن ما يحكم تطورات «المعرفة» هي حاجات «الجماعة»، فحين نقول إن «العلم» حل محل الخرافة، فإننا لانصف انتقالاً من الظلام إلى النور بل نصف تغيراً في الصيغة التي تحدث، عندما تتصارع حاجات قاهرة معينة للجماعة مع المعتقدات القديمة لتفرض معتقدات جديدة.

ويذهب بلايخ إلى أن اكتساب الطفل للغة يمكنه من تأسيس سيطرة

ذاتية على التجربة، فنحن لانستطيع فهم الكلمات الأخرى إلا بوصفها «فعلا دافعا»، أى بوصفها طريقة فى السيطرة على الأشياء التى لها أهمية عند المتكلم. وإذا كان كل تلفظ يحدد مقصداً، فإن كل فعل لتفسير تلفظ هو منح لمعنى. ومادام ذلك صحيحا فيما يتصل بكل المحاولات الإنسانية لشرح التجربة فإننا نستطيع فهم الفنون على أفضل وجه عندما نسأل: مادوافع هؤلاء الذين يخلقون ألوان الأداء «الرمزى» للتجربة؟ وما الظروف الفردية والجماعية للاستجابة والإبداع عندهم؟

ويقوم النقد الذاتى على افتراض مؤداه «أن فهم النفس أهم الدوافع الملحة عند كل شخص». ولقد قادت التجارب التى قام بها بلايخ فى قاعة الدرس إلى التمييز بين أمرين، أولهما «استجابة» القارئ العفوية للنص، وثانيهما «المعنى» الذى ينسب القارئ إلى هذا النص. وي طرح القارئ المعنى عادة بوصفه تفسيرا «موضوعيا» (شيئا مطروحا للتفاوض فى موقف تربوى) ولكن هذا المعنى هو تطور - بالضرورة - لاستجابة ذاتية عند هذا القارئ. وأيا كان نسق الفكر المستعمل (أخلاقي، ماركسي، بنيوي، تحليل نفسي)، فإن تفسيرات النصوص تعكس الفردية الذاتية لـ «استجابة» شخصية، إذ دون الصدور عن هذه «الاستجابة» فإن تطبيق أنساق الفكر يتم استبعاده بوصفه تركيبة فارغة لمعتقد جامد. وإذا كان بعض التفسيرات النقدية يبدو أكثر معقولة عندما يتجشم النقداء عناء شرح نمو أفكارهم وأصلها، فإن هذا يتاح فى الموقف التعليمى بواسطة «تقرير استجابة» يعطى «المهاد الدافعى» للحكم التفسيري اللاحق. مثال ذلك استجابة السيدة (أ) إلى قصة كافكا «التحولات»، فقد بدأت الاستجابة بنفور، كما لو كانت قراءة القصة «أشبه بتناول زيت كبد سمك القد». ولكن السيدة (أ) شعرت بالحزن إزاء مأزق جريجور لأنها وجدت بينه وأخيها الذى أهين وأقصى عن أبيه بالمثل.

أما تحول جريجور إلى خنفساء زوئية فقد أنتج نفورا متصارعا، إذ اعترفت السيدة (أ) بتبلدها الساذي إزاء الحشرات. وكان هناك ترابط أكثر بين جريجور وذكرياته عن فتاة قبيحة في المدرسة شعرت إزاءها السيدة (أ) بالذنب. وكانت مشاعرها الغالبة متضادة (إعجاب - نفور) إزاء كل الشخصيات وبخاصة جريجور. وللحكم الأخير على «المعنى» الذي يبرز من تقرير السيدة (أ) مظهر موضوعي، ولكن من الواضح أنه حكم مبني على استجابة استهلاكية، فالقصة «مبنية على دراما ثنائية الضحية/ الجلاد». وتذهب السيدة (أ) إلى أن الضحايا كالجلادين، كلاهما يعتمد على الآخر ولا يمكن التمييز بينهما في النهاية. بكلمات أخرى، تسقط السيدة (أ) تناقض اتجاهاتها إزاء الناس على النص فتكتشف فيه «ثنائية». وكل ذلك، تفسير يجعل أي إنسان يشارك في حلقة دراسية عن قصة كافكا يميل إلى أن يرى في هذا التفسير تقريراً موضوعياً، قدم في عبارة نقدية أدبية محايدة. ومهما يكن من أمر، فإن «النقد الذاتي» يرغب في إعادة الوصل بين التفسير أو الاستجابة الشخصية للسيدة (أ) والدافعية الذاتية لهذه الاستجابة.

إن النظرية الأدبية التي تتجه إلى القارئ أشبه بالنقد النسائي، من حيث إنها لا تنطلق من نقطة بداية واحدة أو من منطلق فلسفي غالب، فلكتاب الذين عرضنا لهم ينتمون إلى تقاليد فكرية مختلفة. وإذا كان الكتاب الألمان - أمثال أيزر وياوس - يعولون على الفينومينولوجيا والهرمنيوطيقا في محاولاتهم وصف عملية القراءة بمصطلحات وعي القارئ، فإن ريفاتير يفترض سلفاً قارئاً يمتلك مقدرة أدبية متميزة، في حين أن ستانلي فيش يعتقد أن القراء يستجيبون إلى سياق الكلمات في الجمل، سواء أكانت الجملة أدبية أم غير أدبية. أما جوناثان كولر فيحاول تأسيس نظرية (بنوية) للتفسير، نظرية تسعى إلى الكشف عن العناصر المنتظمة في

استراتيجيات القراء، وإن كان يدرك أ، الاستراتيجيات نفسها يمكن أن
تنتج تفسيرات مختلفة. ولقد رأينا في الفصل الرابع كيف يحتفى رولان
بارت بنهاية العهد البنيوي، وذلك بمنح القارئ القوة على خلق معانٍ،
بواسطة «فتح» النصوص على اللعب اللامتناه لـ «الشفرات». وينظر
هولاند وبلايخ الأمريكيان إلى القراءة بوصفها عملية إشباع للحاجات
السيكولوجية للقارئ، أو بوصفها عملية تستند إلى هذه الحاجات على
الأقل. وأيا كان ما يظنه المرء في هذه النظريات التي تركز على القارئ،
فمن المؤكد أنها تطرح تحدياً خطيراً على النظريات السائدة التي تركز
على النص في «النقد الجديد» و«النزعة الشكلية»، فنحن لم نعد
نستطيع الحديث عن معنى النص دون أن نضع في تقديرنا إسهام
القارئ في هذا المعنى.

قراءات مختارة
نصوص أساسية

Bleich, David,

Subjective Criticism (Johns Hopkins University Press, Baltimore and London, 1978).

Culler, Jonathan,

The Pursuit of Signs: Semiotics, Literature, Deconstruction (Routledge & Kegan Paul, London and Henley, 1981), especially Part Two.

Eco, Umberto,

The Role of the Reader: Explorations in the Semiotics of Texts (Indiana University Press, Bloomington, 1979).

Fish, Stanley,

Self-Consuming Artifacts: The Experience of Seventeenth-Century Literature (California University Press, Berkely, 1972).

Fish, Stanley,

Is There a Text in This Class? (Harvard University Press, Cambridge, Mass., 1980).

Holland, Norman,

5 Readers Reading (Yale University Press, New Haven and London, 1975).

Ingarden, Roman,

The Literary Work of Art, Trans. George G. Grabowicz (Northwestern University Press, Evanston, Ill., 1973).

Iser, Wolfgang,

The Act of Reading: A Theory of Aesthetic Response (Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1978).

Jauss, Hans R.,

Toward An Aesthetic of Reception, trans. T. Bahti (Harvester Press, Brighton, 1982). The important first chapter is also in Ralph Cohen (ed.), *New Directions in Literary History* (Routledge & Kegan Paul, London, 1974).

Prince, Gerald,

Introduction to the study of the narratee, in Tompkins (below). French original in *Poétique* no. 14 (1973), 177-96.

Riffaterre, Michael,

Describing poetic structures: two approaches to Baudelaire's *les Chats*, in J. Ehrmann (ed.) *Structuralism* (Doubleday & Co., Inc., Garden City, New York, 1970). Extract in Tompkins. Originally *Yale French Studies*, 36-7 (1966), 200-42.

Riffaterre, Michael,

Semiotics of Poetry (Indiana University Press, and Methuen, London, 1978).

Suleiman, Susan, and Crosman, Inge (eds.),

The Reader in the Text: Essays on Audience and Interpretation. (Princeton University Press, Princeton, N.J., 1980) Includes essays by Iser, Culler, Prince and Holland.

Tompkins, Jane P., (ed.),

Reader-Response Criticism: From Formalism to Post-Structuralism. (Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1980). Basic anthology of texts.

مقدمات

Introductions to Suleiman and Crosman, *The Reader in the Text* (above) and Tompkins, *Reader-Response Criticism* (above).

Eagleton, Terry,

Literary Theory: An Introduction (Blackwell, Oxford, 1983). Chap. 2.

Fokkema, D. W., and Kunne-Ibsch, E.,

The Theories of Literature in the Twentieth Century: Structuralism, Marxism, Aesthetics of Reception, Semiotics (C. Hurst, London, 1977).

Holub, Robert C.,

Reception Theory: A Critical Introduction (Methuen, London and New York, 1984).

الفصل السادس.

النقد النسائي

النقد النسائي

كان على النساء الكاتبات والقارئات أن يسبحن دائما ضد التيار، فقد أكد أرسطو «أن الأنثى أنثى بفضل ما تفتقر إليه من خصائص». وذهب القديس توما الأكويني إلى أن المرأة «رجل ناقص». وألمح جون دون (ولم يرفض) - عندما كتب «هواء وملائكة» - إلى نظرية القديس توما الأكويني التي ترى أن الشكل مذكر والمادة مؤنثة، وأن العقل المقدس الأعلى المذكر يطبع شكله على المادة الطيبة الخاملة المؤنثة. ونظر الرجال إلى منيهم - قبل قوانين مندل للوراثة - على أنه البذور الفاعلة التي تهب الشكل لبيضة تنتظر بلا هوية إلى أن تتلقى ميسم الذكر، وفي الأورستيا - ثلاثية إيسخيلوس المسرحية - نصرت (الربة) أثينا حجة الذكور التي قدمها أبوللو والتي تقول إن الأم ليست بسبب وجود طفلها. وأنهى انتصار مبدأ الذكورة عهد «ربات الانتقام» (الفيوريات) الإناث الحسيات Furies^(١) وأعلى من شأن النظام الأبوي على حساب النظام الأمومي. والنقد النسائي يستحضر، أحيانا، غضب ربات الانتقام ليزعج اليقين الخائف للثقافة الأبوية، ويخلق مناخا أقل

(١) الفيوريات في الأساطير اليونانية والرومانية الأرواح الأنثوية الرهيبة ذوات الشعر الشعباني اللائي يقمن بعقاب مرتكبي الجرائم التي لم يؤخذ بثأرها.

قمعا للنساء الكاتبات القارئات، وتستخدم ناقدات الحركة النسائية الثورية الساخرة، أحيانا أخرى، لينقضن أساليب نظرة الذكور السائدة، فتقترح ماري إلمان Mary Ellmann - على سبيل المثال - النظر إلى الرحم على أنه جريئ مستقل فردى (بدل النظر إليه على أنه «لامبال») وإلى المنى على أنه امتثالي خانع (بدل النظر إليه على أنه «متقد»). والفانطازيا السينمائية التى قدمها وودى آلان Woody Allen عن منى مذعور منهوك ينتظر خانعا الرحلة إلى المجهول فانطازيا تهزأ بفكرة الإخصاب الذكورى على نحو تسعد به أية متمية إلى الحركة النسائية.

مشكلة النظرية النسائية:

وبعض ناقدات الحركة النسائية لا يرغبن فى تبنى «نظرية» Theory على الإطلاق لأسباب عدة، فالنظرية مذكرة دائما فى المؤسسات الأكاديمية، بل تتضمن صفات الفحولة من حيث هى المجال الفكرى الطليعى الصعب فى الدراسات الفكرية، فالفضائل الرجالية للصرامة والعزم النافذ والطموح الوثاب تجد ملاذها فى مجال «النظرية»، أكثر مما تجده فى المنطقة الرهيفة للتفسيرات النقدية. وغالبا ماتفضح ناقدات الحركة النسائية الموضوعية المخادعة لعلم الذكر، ويوجهن أقسى النقد إلى نظريات فرويد لما فيها من نزعة تمييز جنسى Sexism صارخة، ولما تفترضه هذه النظريات - على سبيل المثال - من أن النشاط الجنسي للمرأة يتشكل بواسطة «حسد القضيب» Penis envy^(٢).

(٢) «حسد القضيب» عنصر أساسى فى النزعة الجنسية الأنثوية والقوة الحركية لجذليتها، عند فرويد، وينشأ من اكتشاف الفروق التشريحية بين الجنسين، فتشعر البنت بالظلم بالقياس إلى الصبى، وترغب فى امتلاك عضو ذكرى مثله.

ويرغب الكثير من النقد النسائي في الفرار من «ثبوتية وقطعية» النظرية، وتطوير خطاب أشوى لا يمكن تقييده فكريا بنسبته إلى تراث نظري معترف به (ومن ثم يمكن أن يكون نتاجا رجاليا). ولكن ناقدات الحركة النسائية ينجذبن إلى أنماط نظرية مابعد البنيوية عند لاكان وديريدا، ربما لأن هذه الأنماط ترفض الجزم بسلطة أو حقيقة «مذكرة». ولقد قدمت نظريات التحليل النفسي عن المحركات الغريزية عوننا خاصا إلى ناقدات الحركة النسائية، في محاولتهن الكشف عن ما تتضمنه بعض الكتابة النسائية من مقاومة مدمرة - واضحة في عدم انتظامها الشكلي - للقيم الأدبية الرجالية السائدة، ولكن هذه المحاولة لم تنجح في الكشف عن الاستراتيجيات الممكنة للمقاومة النسائية دون تنظير محكم إلا في حالات قليلة.

ولقد طرحت سيمون دي بوفوار 'Simon de Beauvoir' بوضوح عظيم الأسئلة الأساسية للحركة النسائية الحديثة في كتابها «الجنس الثاني» (١٩٤٩)، حيث ترى أن المرأة تبدأ بالقول: «أنا امرأة» عندما تحاول تعريف نفسها، وليس هناك رجل يفعل ذلك. هذه الحقيقة تكشف اللاتماثل الأساسي بين مصطلح «مذكر» و«مؤنث»، فالرجل هو الذي يحدد الإنساني وليس المرأة، والتضاد بينهما يرجع إلى «العهد القديم». ولم يكن للمرأة تاريخ منفصل، ولا تضامن طبيعي، فلم تتجمع النساء مثلما تجمع غيرهن من المجموعات المضطهدة. وظلت المرأة مسمرة في علاقة غير متكافئة مع الرجل، فهو الواحد وهو الآخر. وأمنت سيطرة الرجل مناخا إيديولوجيا للإذعان، فهناك مشرعون وقساوسة وفلاسفة وكتاب وعلماء كدّوا ليظهروا أن وضع الخضوع من المرأة مرغوب في السماء ومفيد في الأرض. وتدعم سيمون دي بوفوار محاجتها وثائقيا بمعرفة واسعة لتكشف عن النظرة الدونية

إلى المرأة، تلك النظرة التي يدعمها إيمان الرجل بأن النساء أدنى بالفطرة. إن الرجال المتعاطفين يستقبلون الفكرة المجردة عن «المساواة» بين الرجل والمرأة بمعسول الكلام. ولكنهم عادة يقاومون المطالبة الفعلية بهذه المساواة. وليس سوى النساء وحدهن - لا الرجال المتعاطفين - من يستطعن دعم الإمكانيات الوجودية الحقيقية للنزعة النسائية.

ومن الواضح أن هناك خمسة محاور أساسية تدور حولها أغلب المناقشات عن الاختلاف الجنسي، وهي:

البيولوجيا

التجربة

الخطاب

اللاوعي

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

أما الحجج التي تتناول الجوانب البيولوجية من حيث كونها أساس الاختلاف بين الرجل والمرأة، والتي تقلل من أهمية «التنشئة الاجتماعية» Socialization^(٣)، فهي حجج يستخدمها الرجال أساسا للإبقاء على النساء في «مكانهن»، ويلخص القول المأثور: "Tota mulier in utero" (ليست المرأة سوى رحم)، هذا الاتجاه، لأنه إذا كان جسد المرأة هو قدرها فإن كل محاولة للشك في أدوار الجنس Sex Roles المعزوة إلى المرأة تتبدد في مواجهة النظام الطبيعي. وفي المقابل، فإن بعض ممثلات الحركة النسائية يعلن من شأن الصفات البيولوجية للمرأة بوصفها مصادرا للتفوق وليس

(٣) عملية تلقين الفرد قيم المجتمع الذي يعيش فيه ومعاييره، ليصبح الفرد قادرا على التكيف مع المجتمع من ناحية، ومستعدا لأداء الأدوار التي تسند إليه من ناحية ثانية.

الدونية. ولكن أية حجة متطرفة تقوم على التسليم بطبيعة خاصة بالنساء تنطوي على 'خطر الانتهاء' - بطريق مختلف فحسب - إلى الوضع نفسه الذى يتخذه المتعصبون من الذكور. هذا الخطر ينطوي عليه - أيضا - موقف أولئك الذين يلجأون إلى التجربة الخاصة للمرأة بوصفها مصدر القيم المؤنثة الإيجابية فى الحياة والفن، وتقول حجة هؤلاء أنه مادامت النساء وحدهن يعانين تجارب الحياة الأنثوية النوعية (كالإباضة^(٤) والطمث، والمخاض) فهن وحدهن اللائى يستطعن الحديث عن حياة المرأة. يضاف إلى ذلك ما تتضمنه تجربة المرأة من حياة فكرية وانفعالية متميزة. فالنساء لا ينظرن إلى الأشياء كما ينظر إليها الرجال وتختلف أفكارهن ومشاعرهن إزاء ما هو مهم أو غير مهم. ويقوم بدراسة التمثيل الأدبى لهذه الاختلافات فى كتابة المرأة من يطلق عليهن اسم «ناقداات الخصائص النسائية» Gynocritics، أما المحور الثالث الذى يدور حول الخطاب فإنه محور ينال قدرا عظيما من اهتمام ممثلات الحركة النسائية.

ويوحى عنوان كتاب ديل سبندر Dale Spender «لغة من صنع الرجل» بما تراه المؤلفة من أن سيادة لغة الرجل تقوم بدور أساسى فى قمع المرأة. وإذا تقلنا فكرة فوكو التى ترى أن ماهو «صواب» يعتمد على من يهيمن على الخطاب، فمن المعقول أن نسلم بأن سيادة خطاب الرجل أوقع المرأة فى فخ (حقيقة) الذكر. وطبيعى - من هذا المنظور - أن تصارع الكاتبات هيمنة الرجال على اللغة بدل مجرد الانحسار فى قوقعة الخطاب الأنثوى، ولكن هناك نظرة مناقضة، تتبناها واحدة من دارسات علم اجتماع اللغة، هى روبين ليكوف Robin Lakoff التى ترى أن لغة النساء أدنى بالفعل من لغة الرجال، لأنها لغة تتضمن أنماط «ضعف» و«عدم يقين» وتركز

(٤) خروج البيضة من البيض.

على «الثافة»، و«الطائش»، والهازل»، وتؤكد الاستجابات الانفعالية الذاتية، وتذهب ليكوف إلى أن خطاب الرجال «أقوى»، ويجب أن تتبناه النساء إذا رغبنا في تحقيق المساواة الاجتماعية بالرجال. وأكثر الراديكاليات من ممثلات الحركة النسائية يرين أن المرأة تواجه عملية غسيل للمخ بواسطة هذا النمط من الإيديولوجيا الأبوية[البطريكية] التي تنتج قوالب مكروية عن رجال أقوى ونساء ضعيفات، وتطرح نظريات التحليل النفسي عند لاكان وكريستيفا مايتصل بالمحور الرابع الخاص بعملية اللاوعي، حيث بعض كاتبات الحركة النسائية ممن يناصبن النزعة البيولوجية^(٥) Biologism العداء، بواسطة إقامة صلة تربط بين «الأنثى» والعمليات التي تميل إلى تفويض سلطة خطاب «الذكر» فينظرون إلى كل مايشجع أو يستهل اللعب الحر للمعاني ويمنع «الانغلاق» بوصفه «أنثى»، على نحو تغدو معه النزعة الجنسية الأنثوية ثورية تدميرية متغايرة الخواص «منفتحة». هذا النهج أقل تضمنا لخطر نزعة التفوق والقبولية، لأنه يرفض تحديد النزعة الأنثوية، ويرى أنه إذا كان هناك مبدأ أنثوي فإنه ليس سوى البقاء خارج تعريف الذكر للأنثى. ولقد كانت فرجينيا وولف أول ناقدة تدخل البعد الاجتماعي (المحور الخامس) في تحليلها لكتابات المرأة. ومنذ ذلك الوقت، والماركسيات من الحركة النسائية على وجه الخصوص يحاولن الربط بين تغير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وتغير توازن القوى بين الجنسين، ويوافقن غيرهن من ممثلات الحركة النسائية على رفض فكرة الأنوثة المطلقة.

كيت ميليت وميشيل باريت:

النزعة النسائية السياسية:

وصلت الحركة النسائية الحديثة إلى مرحلة فكرية مهمة مع كتاب

(٥) أي إرجاع الخصائص إلى المكونات البيولوجية للكائنات.

كيت ميليت Kate Millett: «السياسات الجنسية»، (١٩٧٠)، حيث استخدمت مصطلح النظام الأبوي (دور الأب) لوصف سبب قمع النساء، قاضدة بذلك إلى أن النظام الأبوي يخضع الأنثى إلى الذكر، أو يعامل الأنثى بوصفها أدنى من الذكر، على نحو تتم معه ممارسة القوة - بكيفية مباشرة أو غير مباشرة - للحجر على النساء في الحياة المنزلية والأسرية. وتذهب ميليت إلى أن إجبار النساء على الطاعة ظل مستمرا - رغم التقدم الديمقراطي - بواسطة دور الجنس المقبول الذي يخضعن له منذ أقدم العصور. وهي تستعير من العلوم الاجتماعية التمييز المهم بين «الجنس» Sex والهوية الجنسية Gender. أما «الجنس» فيتحدد بيولوجيا في حين أن الهوية الجنسية مفهوم ثقافي مكتسب، فقد أظهرت مارجريت ميد - في دراساتها الأنثروبولوجية - أن الصفات التي تعزى إلى الرجال والنساء يمكن أن تختلف اختلافا كبيرا في المجتمعات القريبة، حيث يمكن للرجال أن يكونوا محبين للسلام بينما النساء محبات للحرب. وتهاجم ميليت وغيرها من ممثلي الحركة النسائية علماء الاجتماع الذين يتناولون الصفات «الأنثوية» المكتسبة ثقافيا (كالسلبية وغيرها) بوصفها صفات طبيعية، وتعترف أن النساء لا يختلفن عن الرجال في الإبقاء على هذه الاتجاهات في المجالات النسائية والإيديولوجيا العائلية. وترى أن «أدوار» الجنس المؤبدة في المجتمع قمعية، والخروج على هذه الأدوار من حيث العلاقة غير المتكافئة بين السيطرة والتبعية هو ما تسميه ميليت «السياسات الجنسية».

ولقد كان التركيز في المرحلة الباكرة من الكتابة النسائية الحديثة عن الأدب (كيت ميليت، وجرمين جرير Germaine Greer، وماري إلمان Mary Ellmann) تركيزا سياسيا تماما في الغالب، بمعنى أن الكاتبات كن يعبرن عن مشاعر ساخطة على الظلم. وكن مشغولات بتعميق وعي النساء

«السياسى» من حيث قهرهن بأيدي الرجال. ومن الشائق أن نلاحظ أوجه الشبه بين هذا النمط من الحركة النسائية وأشكال أخرى من الراديكالية السياسية؛ إذ يمكن مقارنة النساء - من حيث هن مجموعة مقهورة - بالسود أو الطبقة العاملة، رغم أن النساء لسن أقلية كالسود أو نتاجا للتاريخ كالطبقة العاملة - فيما تشير سيمون دى بوفوار. ولقد قيل إن أكثر المجموعات المقهورة قاطبة: السود، والطبقة العاملة والنساء. وتتخذ أفكار كل مجموعة من هذه المجموعات أشكالا متشابهة، على نحو يبدو معه القاهر واعيا بمحاولته الإبقاء على القهر إلى مالا نهاية بواسطة إيديولوجيا (عرقية، أو برجوازية، أو أبوية). وتدافع كل مجموعة عن أعضائها فى مواجهة إساءة التمثيل والقبول فى الأدب ووسائل الإعلام. وتدير كل مجموعة صراعاً سياسياً للارتقاء بوعي أعضائها، وإحداث تغيير جذرى فى علاقات القوة بين القاهر والمقهور. ولكن الإيديولوجيا فى هذه النظريات السياسية غير الناضجة يتم اختزالها فى سلاح ذى بعد واحد فحسب، فتغدو الإيديولوجيا عند ميليت - كما تقول كورا كابلان - «الهراسة القضيبيية الكونية التى يستخدمها الرجال جميعا لضرب النساء»، ويقذف الرجال - ببساطة - النساء بصفات الضعف والمازوكية، وذلك فهم يتجاهل العمليات السيكولوجية اللاواعية لتشكيل الهوية الجنسية؛ بالإضافة إلى المحركات الاجتماعية الاقتصادية للإشخصية لقهر النساء.

كيف يؤثر ذلك على الأدب؟ أولاً، تتشكل القيم والأعراف الأدبية بواسطة الرجال، وتناضل النساء فى الأغلب للتعبير عن مطالبهن الخاصة فيما يمكن النظر إليه بوصفه أشكالاً غير ملائمة، وفى القصص - على سبيل المثال - تغدو الأعراف التى تشكل المغامرة والمطاردة الرومانسية ذات زخم وهدف «رجالى». ثانياً، يخاطب الكاتب القراء كما لو كانوا رجالاً

دائماً، وتزودنا الإعلانات بأمثلة موازية واضحة في الثقافة الجماهيرية، حيث التليفزيون الذى يعلن عن «دش» كهربائى، يقدم امرأة تسقط المنشقة - على نحو مثير للمشاهد - (الذكر) - فى آخر لحظة من الإعلان ليختطف المشاهد نظرة إلى جسدها العارى، وذلك إعلان يستبعد المشاهد (الأنثى) على نحو صارم. ولكن هذا المثال يوضح أنه يمكن - أيضاً - للمشاهدة الأنثى أن تتواطأ مع عملية استبعادها وتتنظر نظرة (رجل)، تماماً كما يمكن دفع المرأة (بلاوعى) إلى القراءة كرجل. ولكى تقاوم كيت ميلليت هذه النزعة التلقينية المفروضة على القارئة الأنثى، فإنها تعرى - فى كتابها «سياسات الجنس» - التمثيلات الجنسية الموجودة فى قصص الرجال، حيث تضع نظرة الأنثى القارئة فى الصدارة لتبرز هيمنة الرجل المنتشرة فى الأوصاف الجنسية لروايات د. هـ. لورنس D. H. Lawrence وهنرى ميللر Henry Miller، ونورمان ميلر Norman Miller، وجان جينييه Jean Genet، ومثال ذلك، ما تقدمه ميلليت من نقد قاس لفقرة من رواية لميللر، هى رواية «جنس» Sexus التى يقول فيها «نزلت على ركبتى ودفنت رأسى ما بين فخذيها.. إلخ»، حيث تذهب إلى أن الفقرة «تحمل نفمة.. ذكر يحكى مآثره من مآثره إلى ذكر آخر، فى مفردات رجالية تنطق نظرة الذكورة»: وتصف ميلليت الأحداث الرئيسية فى عمل ميللر «الحلم الأمريكى»، حيث يقتل زوجها زوجته ثم يلوط بالخادمة روتا، بأنها «حرب تشن» ضد المرأة «بمصطلحات القتل واللواط». ولكن مع أن كتاب ميلليت يطرح نقداً قوياً لثقافة النظام الأبوى، إلا أن بعض تمثيلات الحركات النسائية يرين أن اختيارها للكتاب من الرجال كان غير معبر، وترى أخريات أنها لم تفهم حق الفهم القوة التدميرية للخيال القصصى، فهى تسيء فهم الطبيعة المتسوية العميقة لكتاب جان جينييه، «يوميات لص» - على سبيل المثال - ولا ترى من عالم المثلية الجنسية الذى يصوره الكتاب سوى إذلال الأنثى

والحط من شأنها، وتنظر إلى علاقة السيطرة والتبعية بين الشواذ على أنها صورة أخرى من النموذج القمعي للمغايرة الجنسية. ويشن نورمان ميللر هجوما عدوانيا على ميلليت في كتابه «سجينة الجنس» (١٩٧١)، حيث ينجح في تسجيل نقاط على فشل ميلليت في تفهم السياق الخيالي لمجموعة من الفقرات الروائية، ويكشف عن أنها لا ترى من القصاصيين الذكور إلا أنهم مدفوعون بواسطة هويتهم الجنسية إلى استنساخ السياسة الجنسية القمعية للعالم الفعلي الذي تصوره قصصهم، وذلك نهج يظلم معالجة جويس للنزعة الجنسية الأنثوية على سبيل المثال، ولا يقتصر الأمر على ميللر، فإن بعض ممثلات الحركة النسائية يرين أن ميلليت تتمسك بنظرة أحادية البعد عن سيطرة الذكر، وأنها تعالج الإيديولوجيا الجنسية كما لو كانت شعارا قمعيا يرفعه كل الكتاب الذكور بالضرورة.

وبالعلاج الكتاب الذي أصدرته ميلليت وشولميت فايرستون Shulamith Firestone، بعنوان «جدل الجنس»، (١٩٧٢) 'سيطرة الذكر بوصفها سيطرة مستقلة كل الاستقلال، ابتداء، عن بقية الأشكال الاجتماعية والاقتصادية للقهر، على نحو يهدف إلى استبدال الجنس بالطبقة بوصفه العنصر الحتمي تاريخيا، فيغدو «صراع الطبقة» نفسه نتاجا لتنظيم الوحدة البيولوجية للعائلة. وتذهب ميشيل باريت إلى أن فكرة النظام الأبوي على نحو ما استخدمتها ميلليت وفايرستون - في كتابهما - إنما هي فكرة توحى بسيطرة مطلقة بلا أصول أو تنوعات تاريخية، فهي فكرة تتجاهل علاقة التشكيل التي تربط النظام الأبوي بالرأسمالية، مما ينتج عنه تبسيط عملية معقدة تتضمن عناصر متعددة لا بد من الربط بينها. هذه العناصر تشمل التنظيم الاقتصادي للأسرة في المنزل وإيديولوجيته العائلية المصاحبة، وتقسيم العمل في النظام الاقتصادي العام، وأنظمة التعليم والدولة، والعمليات الثقافية التي يتم فيها

تمثيل الرجال والنساء على نحو مختلف، وطبيعة الهوية الجنسية، والعلاقة بين النشاط الجنسي وإعادة الإنتاج البيولوجية.

وتقدم باريت تحليلا ماركسيا نسائيا لتمثيل الهوية الجنسية، فتستحسن - أولا - الفكرة المادية التي تطرحها فرجينيا وولف عندما تذهب إلى أن الأوضاع التي ينتج النساء والرجال في ظلها تختلف اختلافا ماديا، يؤدي إلى التأثير في شكل ومضمون مايكتبه كلا الطرفين، على نحو لا يستطيع معه فصل الأسئلة الخاصة بقبولة الهوية الجنسية عن أوضاعها الاجتماعية في التاريخ، مما يعنى أن التحرر النسائي لن يأتي من مجرد التغييرات الثقافية وحدها. وتذهب باريت - ثانيا - إلى أن إيديولوجيا الهوية الجنسية تؤثر في الطريقة التي تتم بها قراءة كتابات الرجال والنساء، كما تؤثر في الكيفية التي تتأسس بها معايير الامتياز في الكتابة. وترى باريت - ثالثا - أنه لا بد للناقدات من أن يضعن في اعتبارهن الطبيعة الخيالية للنصوص الأدبية، ولا ينغمسن في «نزعة أخلاقية هائجة» بإدانة كل المؤلفين الذكور والصاق تهمة التمييز الجنسي بكتبهم، واستحسان أعمال النساء لطرحها قضايا الهوية الجنسية، فالنصوص ليس لها معان ثابتة لأن التفسيرات تعتمد على موقف القارئ وإيديولوجيته، ومع ذلك يمكن للنساء بل يجب عليهن القيام بمحاولة تأكيد تأثيرهن في طريقة تحديد الهوية الجنسية وطريقة تمثيلها الثقافي.

كتابة النساء

وناقداً الخصائص النسائية:

يقوم كتاب ألين شولتر Elaine Showlter «أدب خاص بهن» (١٩٧٧) بدراسة الروايات الإنجليزية منذ عهد الأخوات (٦) برونتي

(٦) المقصود آن برونتي (١٨٢٠ - ١٨٤٩) وشارلوت برونتي (١٨١٦ - ١٨٥٥) وإميلى برونتي (١٨١٨ - ١٨٤٨).

Brontes من وجهة نظر التجربة النسائية. صحيح أن المؤلفة تسلم بعدم وجود نزعة جنسية ثابتة وفطرية أو ما يسمى خيالاً أنثوياً، غير أنها تذهب إلى وجود اختلاف عميق بين كتابة النساء والرجال، كما ترى أن تراثاً بأكمله من الكتابة النسائية قد أغفله النقاد. هذا التراث هو «القارة المفقودة من التراث الأنثوي الذي يبرز كقارة أطلنطيس من بحر الأدب الإنجليزي». وتقسم شولتر هذا التراث إلى مراحل ثلاث. الأولى هي المرحلة النسائية ما بين الأعوام (١٨٤٠ - ١٨٨٠)، وتتضمن أعمال إليزابيث جاسكل، وجورج إليوت George Eliot، تلك الأعمال التي حاكت فيها المرأة الكاتبة وتمثلت المعايير الجمالية الرجالية النسائية، حين كان على الكاتبات أن يكن سيدات مهذبات، وكان المجال الرئيسى لعملهن هو الدائرة المنزلية والاجتماعية المباشرة، مما أدى إلى معاناتهن من الشعور بالذنب لالتزامهن (الأناني) بصناعة الكتابة، وإلى تقبلهن قيود التعبير التي تجنبهن الفظاظ والحسية. قد نقول إن كاتبة متطهرة النزعة [بيوريتانية] مثل جورج إليوت قد نجحت في أن تلمح إلى قدر طيب من الحسية في روايتها «طاحونة على الجدول»، ولكن الفظاظ والحسية لم تكونا مقبولتين بيسر حتى في قصص الرجال، فقد كان على رواية توماس هاردى «تيس سليلة آل أوبرفيل» التي أثارت الجدل حولها أن تلجأ إلى المعانى الضمنية والصور الشعرية لتوصل النزعة الحسية للبطلة.

وتتضمن المرحلة النسائية الثانية (١٨٨٠ - ١٩٢٠) كتابات من مثل إليزابيث روبنز Elizabeth Robins وأوليف شرايتر Olive Schreiner. وقد دافعت الكاتبات الراديكاليات لهذه المرحلة عن يوتوبيات أمازونية انشقاقية ووحدة نسائية تدعو إلى المساواة. أما المرحلة الثالثة (١٩٢٠ وما بعدها) فقد ورثت خصائص المرحلتين السابقتين، وطورت فكرة الكتابة النسائية المتميزة فضلاً عن فكرة التجربة النسائية، وكانت ريكا وست Rebecca West وكاترين مانسفيلد Katherine Mansfield ودورثي ريتشاردسون Dorothy Rich-

ardson أوائل الروايات فى هذه المرحلة - فيما ترى شولتر، ولكن ريتشاردسون اتخذت لنفسها موضوع وعى الأنثى فى روايتها الطويلة «رحلة حج» فى الفترة نفسها التى كان يكتب فيها جيمس جويس ومارسيل بروست روايات طويلة تقوم على تيار الوعى. وقد استبقت نظراتها فى الكتابة النظريات النسائية المتأخرة، فقد مالت إلى نوع من القابلية السلبية، أو التلقى المنفتح الذى يرفض النظريات القطعية والآراء التى أطلقت عليها تسمية «الأشياء» المذكورة، وعقلت^(٧) مشكلة «تدفقها الهبولى» بالعمل على تأصيل نظرية مؤداها أن الهبولانية تعبير طبيعى عن التقمص الوجدانى Em-pathy للأنثى فى مقابل النمط Pattern الذى هو علامة على أحادية البعد الخاص بالذكر. وحاولت على نحو واعد إنتاج جمل مجزأة تقوم على الحذف، لتوصل مارأت أنه شكل العقل الأنثوى ونسيجه. ولقد استجذبت الصراحة فى الحديث عن النزعة الجنسية (الزنا، السحاق، إلخ) بعد فرجينيا وولف، خصوصا عند جين ريس Jean Rhys، وظهر جيل جديد من النساء اللاتى أكملن تعليمهن الجامعى، واللاتى لم يعدن يشعرن بالحاجة إلى التعبير عن السخط الأنثوى، ويتضمن [هذا الجيل] أ. إس. بيات، A.S. Byatt ومارجريت درابل Margaret Drabble، وكريستين بروك روز Christine Brooke-Rose وبرجيد بروفى Brigid Brophy. ولكن حدث تحول فى أوائل السبعينيات إلى نفمة أكثر غضبا فى روايات بينولبي مورتايمر Penelope Mortimer، وميريل سبارك Muriel Spark، ودوريس ليسنج Doris Lessing.

ولقد كتبت فرجينيا وولف الكثير من الكتابة النسائية، فهى رائدة مهمة للنقد النسائى الحديث مثل دورثى ريتشاردسون. ورغم أنها لم تتبن الموقف النسائى قط، فإنها لم تكف عن دراسة المشكلات التى تواجه

(٧) أى قامت بتقديم تبرير عقلى.

الكاتبات. فقد آمنت أنه كان على النساء دائماً مواجهة العوائق الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تعوق طموحاتهن الأدبية، وهي نفسها كانت واعية بالتعليم المحدود الذي تلقتَه (لم تكن تعرف اليونانية على سبيل المثال). غير أنها قبلت بانسحاب هادئ من الصراع بين النزعة الجنسية للذكورة والأنوثة بتبني أخلاق يلومزيرى الجنسية عن «الخنائَة» - ورفضت الوعي النسائي آملة في تحقيق التوازن بين التحقق الذاتي (الذكرى) والإبادة الذاتية (الأنثوية)، ولكن هجومها المتكرر على الجنون والانتحار النهائي يوحي بأن صراعها للتسامي على النزعة الجنسية قد فشل، فلقد أرادت لحسها النسائي أن يكون لاواعياً، لعلها بذلك «تفر من مواجهة الذكورة أو الأنوثة». (غرفة خاصة بالمرء).

ورغم هذا الالتزام العسير بالخنائَة، فإن فرجينيا وولف قد كشفت عن وعيها العميق بتميز كتابة النساء؛ إذ يلفت وصفها لدوقة نيوكاسل الغريبة الانتباه - على نحو بارع - إلى الإبداعية «النسائية» للمرأة الكاتبة في القرن السابع عشر:

«رغم عقم فلسفاتها وثقل وطأة مسرحياتها وفتور شعرها بوجه عام فإن الحجم الضخم لكتابة الدوقة كان يمتزج بمسحة من لهب أصيل، بحيث لا يملك المرء سوى الإذعان إلى إغراء شخصيتها الغريبة المحببة. وهي تتلوى وتتلاها، صفحة إثر صفحة، فهناك شيء نبيل ودون كيخوتي وجري ومخبل ومتقلب بالمثل في هذه الشخصية».

ويترأى لي أن فرجينيا وولف تريد القول إن «الحجم الضخم» من الإنتاج «المذكر» الفاتر للدوقة يشرق بنزعة «أنثوية» متمردة «غريبة»، «تتلوى». والجملة الأخيرة كاشفة بوجه خاص؛ إذ إن الصفتين: «نبيل، ودون كيخوتي» تبدوان أشبه بالصفات المذكورة، بينما تبدو الصفتان

«مخبّل»، و«متقلب» أشبه بالصفات المؤنثة. وتصل الجملة إلى نوع من الحيادية الخنثوية بهذا الجمع بين الدلالات الإيحائية المتقابلة.

وأكثر مقالات فرجينيا وولف عن الكتابات تأثيرا ولفتا للانتباه هي مقالة «حرف للمرأة»، حيث حصرت معوقات عملها في أمرين، أولهما أنها كانت سجينه إيديولوجيا نسائية، بسبب وجود العديد من الكتاب في القرن التاسع عشر، فقد كان المثل الأعلى عن «الملاك في المنزل» يفرض على النساء أن يكن متعاطفات غير أنانيات ونقيات. وكان على المرأة أن تستخدم المداينة والحيل النسائية لتخلق زمان الكتابة ومكانها. وثانيهما أن تحريم التعبير عن الجوانب العاطفية الأنثوية قد منعها من «قص حقيقة تجاربها الخاصة من حيث هي جسد»، فهي لم تستطع قط أن تغلب على هذا الإنكار الواعي للزعة الجنسية الأنثوية، سواء في عملها أو حياتها. مؤكدا أنها لم تكن تؤمن بوجود لاوعي أنثوي، ولكنها ذهبت إلى أن النساء قد كذبن بطريقة مختلفة، ليس لأنهن مختلفات نفسيا عن الرجال بل لأن تجربتهن الاجتماعية مختلفة. ولقد كانت محاولاتها في الكتابة عن تجارب المرأة واعية، وتهدف إلى اكتشاف الأساليب اللغوية لوصف الحياة الحبيسة للنساء، وآمنت أنه عندما تحقق النساء المساواة الاجتماعية والاقتصادية بالرجال، فلن يوجد شيء يمنعهن من التطوير الحر لمواهبهن الفنية.

أما النص الباكر من نقد الخصائص النسائية الذي خلف في نفسى أعمق الأثر. فهو كتاب ماري إلمان «التفكير حول المرأة» (١٩٦٨)، فهي تنتمي إلى المرحلة «السياسية» الباكرة للحركة النسائية الحديثة، ولكنها تسبق الكثير من التطورات اللاحقة، وهي تهاجم براعة «النقد الذكوري»، ساخرة من فكرة وولتر باتر العبثية عن «الرجولة في الفن»، تلك التي يحددها بأنها الصنعة الواعية تمام الوعي، و«تلاحم الحدس مع الغرض»، وروح البناء التي تعارض ماهو غير متلاحم أدبيا أو آيل إلى السقوط، أو ماهو

هستيرى أوحبط عشواء»، وعلى النقيض من شولتر، لا تميل إلمان إلى التوحيد بين الكتابة الأنثوية وتجربة الأنثى، ولكنها تصل الكتابة بأساليب أدبية متعينة، فتذهب إلى أن الكاتبات غالبا مايؤسسن منظورا تدميريا مختلفا بتقويض قطعية الحكم وتثبيت البؤرة، وذلك على نحو مايحدث فى روايات إيفى كومبتون - بيرنيت - Ivy Compton Burnett التى تختزل «وجهات النظر» القطعية فى ثانويات هامشية تنفى عن وجهات النظر سلطة الأحكام «المذكورة». هذا النمط من الكتابة غالبا مايحدث أثرا أشبه بأثر الموقف الكوميدي Comic Stasis الذى يتم فيه إحباط الأحكام وعدم الوصول إلى نتائج. وترى إلمان أن ليست كل الكاتبات يتبنين أسلوبا أنثويا فى الكتابة، فمارى ماكارثى Mary Mc Carthy تكتب بسلطة بالغة، وشارلوت برونتى تكتب بالتزام حاد وعاطفة جادة. وفى مقابل ذلك، فإن البراعة الأسلوبية التدميرية المراوغة التى ترجع إليها إلمان القيمة، موجودة عند أوسكار وايلد وعند جو أورتون Joe Orton ، وكلاهما كان متحررا جنسيا.

وتلفت إلمان الانتباه إلى رواية جين بولز Jane Bowles «سيدتان جادتان» (١٩٤٣)، وهى رواية كوميدية عجيبة عن امرأتين تنحدران إلى العالم السفلى للفسوق، فى الوقت الذى تحافظان فيه على احتشام منفصل فى الحديث والتصرف، فكلتا المرأتين تحتفى - على نحو غير واع تماما - بالمباهج المهذبة لاستقلال الأنثى. والرواية اكتشاف باهر مبكر لتدمير الأنثى قيم الذكر. إن فريدا كوبرفيلد تتحرق شوقا إلى فندق مريح فى بنما تسزوره مع زوجها. ولكن الزوج يفضل إنفاق النقود على «موضوعات» تبقى، وعندما تخالفه فريدا فى رأى يعبس:

«قال السيد كوبر فيلد:

«إذا كنت ستكونين عيسة فلنذهب إلى فندق وشملن».

وفقد وقاره، فجأة، وغامت عيناه ولوى شفثية.

«ولكنى أؤكد لك أنى سأكون تعيشا هناك، سيكون الأمر
ممتلا تماما».

كان أشبه بطفل، وكان على السيدة كوبرفيلد أن تواسيه،
فقد كان يمتلك الحيلة التى تجعلها تشعر بالمسؤولية».

وليس سوى روائية تستطيع أن تقوم بهذا الانتقام البارع من وقار
الذكر و«روحه البناءة». إن جين بولز تستغل بطلات روايتها لاستكشاف
وعى «الأنثى» ونسق القيمة. فهن بطلات ينجذبن إلى الممنوع لأنه
يتحدى سلطة الذكر، ويبحثن جذلات بلا مسؤولية عن سعادة و«سلام
داخلى»، ومثال ذلك كريستينا جورج التى تتخلى عن احترام طبقتها العليا
وتنتهى إلى أن تكون بغيا راقية فى بنما، ولكنها تلاحظ - فى ثنايا
انحدارها - ألوان الدفاع والتناقضات الغريبة للمعجبين بها من الذكور،
فوالد أرنولد الذى ينافس ابنه - على نحو سمج - فى التودد إليها يشير فجأة
إلى أمله فى أن تتخذ جانبه. وعندما تسأله كريستينا: «وماذا يستلزم ذلك؟»
فإنه يجيب: «يستلزم... أن تكونى امرأة صادقة، متعاطفة، ومستعدة للدفاع
عن كل ما أقول وأفعل، وفى الوقت نفسه نزاعة إلى توبيخى بعض الشئ
ويظهر فى اليوم الثانى بياقة مفتوحة وشعر مصقول، محاولا صرف النظر عن
مسؤوليات الزواج بعدم اهتمام بوهيمى. ويعلن أن «جمال الفنان يكمن فى
روحه الطفلة»، دون أن يدرك تناقضاته. وتساءل كريستينا نفسها أخيرا - فى
مسعاها إلى «القداسة» - سؤال «الذكر»: «هل يمكن أن يكون جزء منى،
لا أراه، يكسب الخطيئة تلو الخطيئة بالسرعة التى تتميز بها السيدة
كوبرفيلد؟». ويقرر الراوى فى برود: «رأت الآنسة جورنج أن هذا
الإمكان الأخير ذو تأثير لافت ولكنه بالأمر الخطير».

إن رواية «سيدتان جادتان» تشير إلى النقد النسائي الذي يجاوز الجدالية العنيفة لكيت ميلليت، ومع ذلك تقوض - على نحو مراوغ - كل قوالب «الذكر» وقيمه. فالسيدة كوبرفيلد - على سبيل المثال - تعلن: «كنت دائما من عباد الجسد.. ولكن ذلك لا يعنى أنى أحب من لهم أجساد جميلة، فبعض الأجساد التى أحببتها كان شنيعا». هنا، فإن مايمكن أن يعده الرجال خصيصة أنثوية يتحول فى صمت إلى اختلاف أنثوى. تنويرى.

النظرية النقدية النسائية الفرنسية

تأثرت الحركة النسائية الفرنسية تأثرا عميقا بالتحليل النفسى، خصوصا ما قام به لاكان من تجديد لنظريات فرويد (انظر الفصل الرابع). وعندما اتبعت مميزات هذه الحركة نظريات لاكان فإنهن تجاوزن العداء الغالب على الحركة النسائية عموما لفرويد. فقد كانت نظريات فرويد - قبل لاكان، فى الولايات المتحدة بوجه خاص - مختزلة فى مستوى بيولوجى فج، مما جعل الأنثى تبدو طفلة تتطلع إلى عضو الذكورة، وتتعرف نفسها من حيث هى أنثى بافتقادها عضو الذكورة، فتحدد نفسها بالسلب وتعانى عقدة «حسد القضيب» بالضرورة. وقد ذهب فرويد نفسه إلى أن حسد القضيب عام فى النساء، وأنه المسؤول عما يصيبهن من «عقدة خضاء»^(٨) Castration complex، تنتج عن ملاحظتهن لأنفسهن بوصفهن رجالا ناقصين Hommes manqués أكثر منهن جنسا موجبا بذاته. وكان

(٨) عقدة تدور حول هموم الخضاء التى تحمل الجواب عن اللغز الذى يطرحه الفرق التشريحي بين الجنسين على الطفل، من حيث وجود أو غياب عضو الذكورة؛ إذ يرجع هذا الاختلاف (فى عيني الطفل) إلى بتر هذا العضو الذكري عند البنت.

إرنست جونز أول من أطلق على نظرية فرويد «مركزية القضيب»^(٩) Phal-locentric، وهو مصطلح تبنته على أوسع نطاق ممثلات الحركة النسائية في نقاشهن لسيطرة الذكر بوجه عام.

وقد دافعت جوليت ميتشيل Juliet Mitchell، عن فرويد في كتابها «التحليل النفسي والحركة النسائية» (١٩٧٥)، فذهبت إلى «أن التحليل النفسي ليس تركيبة لمجتمع النظام الأبوي وإنما هو تحليل لهذا المجتمع»، وأن فرويد يصف تمثيلاً ذهنياً لواقع اجتماعي وليس الواقع نفسه. ولكن دفاعها عن مفهوم فرويد عن حسد القضيب وأفكاره عن الاختلاف الجنسي لم يلق القبول عند العديد من ممثلات الحركة النسائية. وقد أظهرت جين جالوب Jane Gallop أن ميتشيل تدين لأفكار لاكان في محاولتها رد اعتبار فرويد، ولكنها تفشل في تعميق الاستخدام الاستراتيجي الذي يقوم به لاكان لعلم اللغة عند دي سوسير.

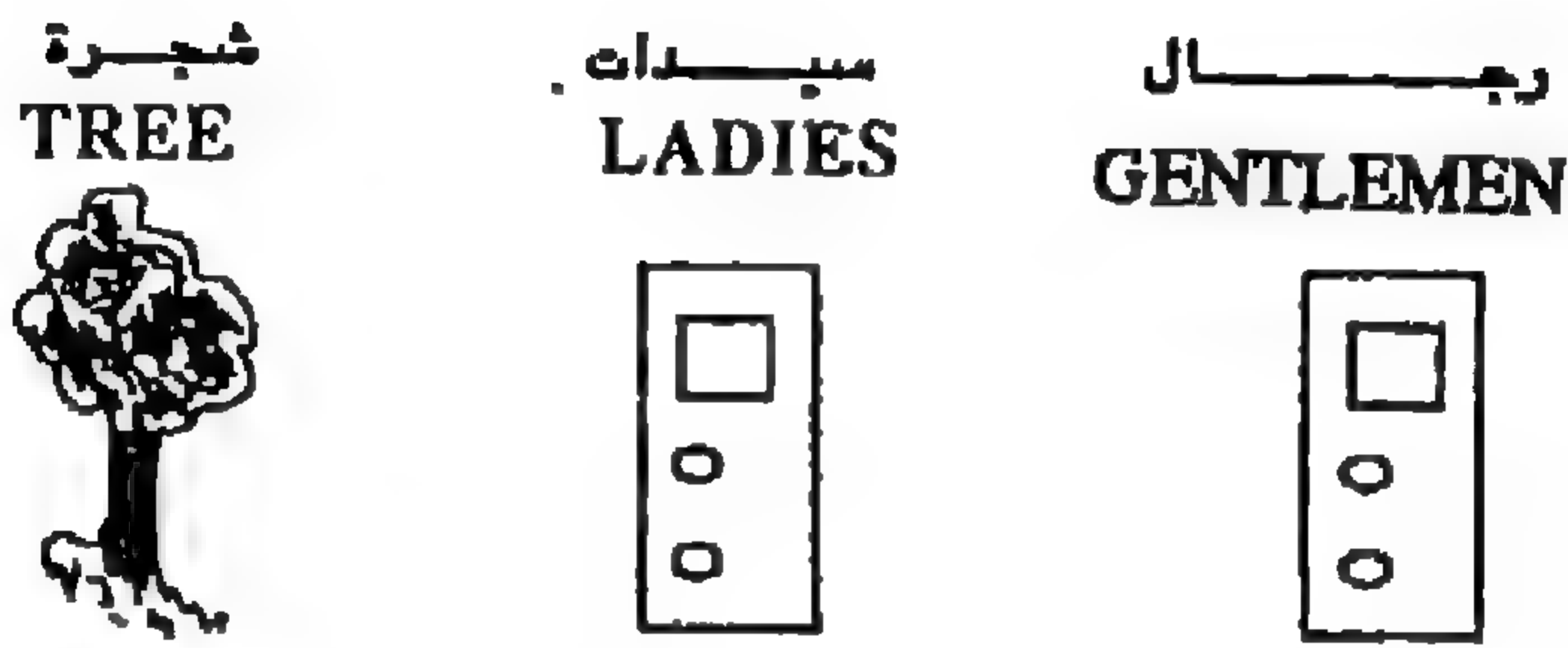
وحتم أن يصدر عن ممثلات الحركة النسائية رد فعل قاس على نظرة لا ترى في المرأة إلا أنها «سلبية، نرجسية، مازوكية»^(١٠) Masochistic، حاسدة للقضيب (إيجلتون)، كما لو كان لا يوجد منها شيء يمكن قياسه من حيث علاقته بمعيار الذكر، ولكن بعض ممثلات الحركة الفرنسية قد أكدن أن «القضيب»، أو «العضو»، مفهوم رمزي عند فرويد وليس حقيقة

(٩) القضيب Phallus هو الصورة المجازية لعضو الذكورة في الحضارة اليونانية واللاتينية، ويشير استخدامه، في التحليل النفسي، إلى الوظيفة الرمزية التي يقوم بها في العلاقة الجدلية بين مكونات الذات من ناحية، والذات والآخر من ناحية ثانية. ولأنها المحور الذي تدور حوله نظرية التحليل النفسي، عند فرويد، فقد أطلق على النظرية هذه الصفة التي سرعان ما أصبحت، مع الحركة النسائية، مرتبطة بنزعة هيمنة الذكورة.

(١٠) المازوكية شذوذ يرتبط فيه الإشباع بالألم أو بالإذلال الذي يلحق الشخص المصاب به.

بيولوجية. فلا كان يستخدم المصطلح معتمداً على دلالة الإيحائية في شعائر الإخصاب، فضلاً عن أن الكلمة نفسها مستخدمة في الكتابات اللاهوتية والأنثروبولوجية بمعناها الرمزية الذي يرتبط بتمثيل القوة.

وقد أفادت ممثلات الحركة من أحد رسوم لا كان التوضيحية في الكشف عن اعتبارية الأدوار الجنسية على النحو التالي:



فالشكل الأول - الشجرة - علامة إيقونية^(١١) Iconic تصف التجارب الطبيعية، بين الكلمة والشيء، وهو علامة تلخص الفكرة الشائعة قبل سوسير عن اللغة، حيث تظهر الكلمات والأشياء متحدة اتحاداً طبيعياً في معنى عام. أما الشكل الثاني يتكون من بايين، فإنه يدمر التناغم القديم بين الكلمة والشيء، فالدالان «سيدات» و«رجال» ملحقان ببايين متماثلين. و«نفس» البايين مصنوعان لدخول نسق اختلافي في اللغة، ومن ثم نراهما بوصفهما مختلفين. وإذا طبقنا هذا [الفهم للعلاقة بين الدال والنسق اللغوي] على المرأة، وجدنا أن «المرأة» وليس أنثى بيولوجية؛ إذ لا يوجد تجارب مباشر بين جسم معين والدال «امرأة»،

(١١) العلامة الإيقونية من مصطلحات الفيلسوف الأمريكي تشارلز بيرس (الذي أسس علم السميوطيقا / السميولوجيا مع دي سوسير) حيث قسم العلامة Sing إلى أنواع، أولها العلامة الإيقونية التي تشير إلى الموضوع الذي تعبر عنه الطبيعة الذاتية للعلامة فقط.

ولكن ذلك لا يعنى أننا لو أزلنا النقش المشوه للدال فإن امرأة «طبيعية» «حقيقية» تبرز الضوء كما كانت قبل بداية عملية الترميز اللغوى. فنحن لانستطيع أن نخطو قط خارج عملية الدلالة إلى أرضية محايدة، كما أن أية مقاومة نسائية لمركزية القضيب (أو هيمنة القضيب من حيث هو دال) لابد أن تنبع من داخل العملية الدالة. ولقد رأينا - فى الفصل الرابع - أن الدال أقوى من «الذات» التى «تضمحل» وتعانى «الخصاء». و«المرأة» تمثل موضع ذات منفية إلى الظلمة الخارجية (القارة المظلمة) بواسطة القوة الخصائية لمركزية القضيب، ولأن هذه القوة تمارس سطوتها - بالقطع - بواسطة خطاب، أى بواسطة هيمنة منطق القضيب Phallocentrism

ولاتفصل مسألة مركزية القضيب عن بنية العلامة عند لاكان؛ فالدال - القضيب - يعد بالحضور الكامل والقوة، وكلا الأمرين لا ينال أو يتحقق كاملاً مما يهدد كلا الجنسين بعقدة خضاء، والعقدة تنبنى تماماً بالطريقة نفسها التى تنبنى بها اللغة واللاوعى، إذ ينتج دخول الذات الفردية إلى اللغة «انشطارا» يترتب على إحساس هذه الذات بالنقصان، عندما تفشل الدوال فى تحقيق ما وعدت به من حضور كامل (راجع الفصل الرابع). فيفتقد الذكور والإناث - بطرائق مختلفة - تكامل النزعة الجنسية المرموز إليه فى القضيب، وقد تزيد العوامل الاجتماعية المرتبطة بقبولة الهوية الجنسية من أثر هذا النقصان أو تنقص منه. ولكن القضيب - من حيث هو الدال على الحضور الكامل وليس العضو المادى - يظل مصدراً عاماً لعقدة الخضاء، فالنقصان الذى وعد بإكماله لا يكتمل قط.. ويطلق لاكان - أحياناً - على هذا الدال الملحاح «اسم الأب»، مؤكداً بذلك طراز الوجود غير «الواقعى» وغير «البيولوجى» لهذا الدال أو القضيب، ذلك الذى تنظم الإنسانية كلها علاقتها فى الحب والكراهة حول مسألة حضوره أو غيابه. هذا التأكيد للنموذج العام بنيوى تماماً.

ويلعب الأب - بالمثل - دورا متميزا فى العملية التى تفضى إلى تشكيل الهوية الجنسية للأفراد. ويصف تفسير لا كان لعقدة أوديب - عند فرويد - ثلاث مراحل:

١ - يتحد الطفل الذكر بأمه تماما، ويرغب - على نحو لاواع - فى إكمال كل شئ ينقضها، فيتحد بالقضيب موضوع رغبة الأم. ويفعله ذلك يظهر على أنه غفل محض.

٢ - يحرم الأب اتحاد الطفل بالقضيب وإمكان قبول الأم لهذا الاتحاد فى آن، مما يضع الطفل فى مواجهة قانون الأب الذى يهدده بالخصاء.

٣ - يتحد الطفل عندئذ بالأب لأنه يمتلك القضيب (بالمعنى الرمضى)، ويتشكل إحساس الطفل بهويته الخاصة من حيث هو كائن سيأتى عليه يوم يشغل مكان الأب، ويكبت الطفل زغبته الأصلية ويتقبل بدلا منها القانون (الذى أسماه فرويد «مبدأ الواقع»).

ولا يصل الطفل إلى الإحساس بالهوية إلا بدخوله نظام اللغة «الرمضى» المصنوع من علاقات المشابهة والاختلاف، ولا يستطيع شغل مكان الهوية الذى يعينه له النظام اللغوى إلا بتقبله الاستثناءات (إذا كان هذا فليس ذاك) التى يفرضها قانون الأب. ومن الأساسى أن ندرك الطبيعة الاستعارية لدور الأب الذى يتخذ موضع المشرع لأنه يقوم بالوظيفة التناسلية الأعلى (رغم ما آمن به الناس قديما) بل لأنه نتيجة من نتائج النظام اللغوى فحسب. إن الأم تدرك كلام الأب لأن لديها وسيلة الوصول إلى دال الوظيفة الأبوية (اسم الأب) الذى ينظم الرغبة بطريقة «متحضرة» (أعنى غير مكبوتة)، أما الطفل فلا تتم تنشئته الاجتماعية إلا بتقبله ضرورة الاختلاف الجنسى (إما هذا.. أو ذاك) وضرورة تنظيم الرغبة.

وتعترض ممثلات الحركة النسائية - أحيانا - على الوضع المتميز الذى تعزوه نظريات لا كان إلى القضيب فى عملية الدلالة. ويرين أن هذا الوضع

غير متكافئ تماما حتى لو تقبلن النظرة «الرمزية» الخالصة إلى القضيب. وتذهب جين جالوب إلى أن تطبيق مقولات لاكان على الاختلاف الجنسي يبدو أنه يفضي حتما إلى التبعية الجنسية للأنثى. فالرجل يعاني «الخصاء» لأنه لايتحقق له الامتلاء الكامل الذى وعده به القضيب. أما المرأة فهي «مخصاة» بسبب كونها ليست ذكرا. والطريق الذى تسلكه الأنثى خلال مراحل عقدة أوديب أقل وضوحا من طريق الذكر. إن عليها - أولا - أن تحول عاطفتها من الأم إلى الأب من قبل أن يستطيع قانونه القيام بتحريم سفاح المحارم. ومادامت تعاني «الخصاء» سلفا فمن الصعب - ثانيا - أن نرى مايحل - فى حالتها - محل هذا الخصاء الذى يهدد تطور الذكر، فما الذى يجبرها على تقبل القانون؟ ولكن تظل لمنهج لاكان فائدته، فهو منهج يتخلص من الحتمية البيولوجية ويضع التحليل النفسى فى علاقة تماس مع النسق الاجتماعى (عن طريق اللغة).

وتلاحظ جين جالوب Jane Gallop أن لاكان يميل إلى دعم خطاب «نسائى» مضاد لمركزية اللوجوس، وأن هذا الخطاب - رغم عدم وعيه بمناصرة الحركة النسائية - «جذاب» «لعوب» «شعرى»، يرفض الجزم بنتائج أو تأسيس حقائق. وآية ذلك أن لاكان عندما يسترجع السؤال الذى لم يجب عنه فرويد: «ماذا تريد المرأة؟» ينتهى إلى أن السؤال لا بد أن يظل مفتوحا، لأن الأنثى «سيالة»، والسيولة حالة «غير ثابتة»، فالمرأة «لاتقول المماثل Pareil قط» و«اتقذفه بمنساب Fluent». ولكن هنا، مرة أخرى، يكمن خطر الارتداد إلى مركزية القضيب الذى ينفى النساء إلى الهامش، متجاهلا إياهن، لأنهن متقلبات متبدلات لا يمكن التنبؤ بما يفعلن. وما يمنع هذا الارتداد إلى «انفتاح» الأنثى على نسق النظام الأبوى - فيما يبدو - هو التميز الإيجابى لهذا الانفتاح، حيث النزعة الجنسية للأنثى ترتبط ارتباطا

مباشراً بالخاصية الإنتاجية الشعرية، أى بالمحركات النفس جسدية التى تمزق استبداد المعنى المركزى وخطاب مركزية اللوجوس (من ثم منطق خطاب القضيب)، وجوليا كريستيفا وهيللين شيكسوس هما أهم من قام بالتنظير لهذه النظرة.

يؤخذ تنظير كريستيفا عادة على أن المفهوم المركزى فيه هو الاستقطاب بين الأنساق العقلانية «المغلقة» والأنساق «المفتوحة»، «اللاعقلانية»، فهى تنظر إلى الشعر بوصفه «الموقع المتميز» للتحليل، لأنه يوازن بين هذين النمطين من الأنساق، وينفتح - فى أوقات بعينها - على الدوافع الأساسية للرغبة والخوف الذى يعمل خارج الأنساق العقلانية. ولقد ناقشنا من قبل (فى الفصل الرابع) تمييزها المهم بين «السميوطيقى» و«الرمزى»، الذى هو أصل العديد من الاستقطابات الأخرى؛ وفى الأدب الطليعى تغزو العمليات الأولية Primary Processes^(١٢) (كما وصفها لاكان فى قراءته التى قام بها لنظرية فرويد عن الأحلام) التنظيم العقلانى للغة، وتهدد بتمزيق «الذات» المتحدة لكل من «المتكلم» والقارئ، تلك الذات التى لا تنظر إليها كريستيفا بوصفها مصدر المعنى بل بوصفها موقع المعنى الذى يمكن أن يعانى من تشتت جذرى للهوية وفقدان للتلاحم. إن المحركات التى يعانىها الطفل فى المرحلة قبل الأوديبية أشبه باللغة ولكنها لم تنتظم فى لغة بعد. ولكى تصبح هذه المادة «السميوطيقية» مادة «رمزية» فلا بد لها من الاستقرار الذى يتضمن كبتاً للمحركات الإيقاعية المناسبة. وإذا كان التلفظ الذى يقارب الخطاب السميوطيقى أكثر من غيره هو

(١٢) تتصل العمليات الأولية بالنشاط الوظيفى للجهاز النفسى، على مستوى اللاشعور، عند فرويد، وذلك مقابل العمليات الثانوية التى تتميز نسق ما قبل الشعور - الشعور. ويتلازم التعارض بين هذين النوعين من العمليات مع التعارض بين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع.

«البربرة» Babble^(١٣) قبل الأوديبية للطفل، فإن اللغة تستبقى بعض الدفق السميوطيقى لهذه البربرة، ويميل الشاعر بوجه خاص إلى إبراز هذا الدفق. ومادامت المحركات الجسدية النفسية هي محركات قبل أوديبية فإنها ترتبط بجسد الأم، فالبحر المنساب تلقائيا من الرحم، والحسية التي تحيط بشدى الأم، هما أول مكانين للتجربة قبل الأوديبية. ومعنى ذلك أن «السميوطيقى» يرتبط ارتباطا حتميا بجسد الأنثى، أما «الرمزى» فيرتبط بقانون الأب الذى يراقب ويكبت لكى ينشأ الخطاب، إن المرأة هى صمت «اللاوعى» الذى يسبق الخطاب، و«الآخر» الذى يقف خارجا يهدد بتمزيق النظام الواعى (العقلانى) من الكلام. ولكن من ناحية أخرى، إذا كانت المرحلة قبل الأوديبية غير قائمة على التمييز الجنسى، فإن السميوطيقى ليس أنثويا تماما. ويمكن للمرء القول إن كريستيفات طرح الدعوى بالأصالة عن النساء لتؤكد حقهن فى هذا الدفق غير المقموع وغير القامع من الطاقة المتحررة، فالشاعر الطليعى - رجلا أو امرأة - يدخل جسد الأم ويقاوم اسم الأب^(١٤). ومثال ذلك مالارميه الذى يمزق قانون الأب بتمزيق قوانين النحو، ويتحد بالأم باستخلاصه الدفق السميوطيقى «الأمومى». وتنظر كريستيفا إلى الثورة الشعرية على أنها وثيقة الصلة بالثورة السياسية بوجه عام وتحرر النساء بوجه خاص إذ لابد للحركة النسائية من ابتداع «شكل من الفوضوية» يستجيب إلى «خطاب الطليعة»، فالفوضوية هى الموقف الفلسفى والسياسى الذى لابد أن تتبناه حركة نسائية عقدت العزم على تدمير هيمنة مركزية منطق القضيب.

(١٣) الأصوات الأولى للطفل، قبل أن يتعلم اللغة، ويدخل المرحلة الأوديبية التي ترتبط بالخضوع إلى النظام، القانون، النسق، وكل مايسميه لاكان «اسم الأب» أو «قانون الأب».

(١٤) بعبارة تفسيرية، يعود إلى مبدأ التمرد، اللاتحدد، المتدفق، اللذة، ويقاوم مبدأ الواقع، القانون، النظام (اسم الأب).

وتذهب بعض ممثلات الحركة النسائية (من أمثال شانتال شاواف Chantal Chawaf ، وإكسفير جوتيه Xaviere Gauthier ، ولوس إريجراي Luce Irigaray) إلى أن النزعة الجنسية الأنثوية كيان خفى مجهول. ولكن مقال هيلين سيكسوس Helene Cixous «ضحكة الميدوزا» بيان شهير عن الكتابة النسائية، بيان يدعو النساء إلى أن يضعن «أجسادهن» فيما يكتبنه. وإذا كانت فرجينيا وولف قد تخلت عن معركة الكلام عن الجسد الأنثوي، فإن سيكسوس تكتب متشبة (وجدا) عن اللاوعي الأنثوي المتدفق: «اكتبي نفسك، يجب أن تسمعي صوت جسدك، فذلك وحده هو الذى يفجر المصادر الهائلة للاشعور». وليس هناك عقل أنثوي عام بل هناك خيال أنثوي جميل غير محدود. وعندما توجد الكاتبة المتحررة حقا فإنها سوف تقول:

«إنى... أتدفق. رغباتى تبتدع رغبات جديدة. جسدى يعزف أغنيات لم يستمع إليها أحد. مرة بعد مرة... أشعر أبى مليئة بسيل جارف ساطع أكاد أنفجر به - أنفجر بأشكال أكثر جمالا من تلك الأشكال المؤطرة التى تباع للحصول على ثروة نتنة».

ومادامت الكتابة هى المكان الذى يمكن أن يتخلق فيه فكر تدميرى، فمن العار أن تستسلم المرأة إلى تقاليد مركزية اللوجوس التى سلبت المرأة - فى الأغلب - حقها فى الكلام. ويجب على المرأة أن لا تراقب نفسها، بل عليها أن تسترد «محاسنها، أعضائها، أقاليمها الجسدية الهائلة التى ظلت حبيسة». كما يجب عليها أن تتخلص من الشعور بالذنب (لكونها بالغة الحرارة أو بالغة البرودة، مفرطة فى عطفها الأمومى، أو فاقدة العطف). وجوهر نظرية سيكسوس يكمن فى رفضها للنظرية، فالكتابة النسائية: ستجاوز دائما الخطاب الذى ينظم نسق مركزية القضيب».

وتعارض سيكسوس نوع الثنائية الجنسية التي روجت لها فرجينيا وولف، لتدعه إلى ما تسميه «الثنائية الجنسية الأخرى» التي «تشير الاختلافات بدل أن تلغيها». ودراسة بارت عن ساراسين (راجع الفصل الرابع) مثل كامل على هذه الثنائية في القصص. والمؤكد أن تصوير سيكسوس للنزعة الجنسية الأنثوية يذكر - في الأغلب - بوصف رولان بارت للنص الطليعي، فهي تكتب قائلة: «إن جسد المرأة بما فيه من ألف منطلق ومنطلق للحمية... سوف يجعل اللسان القديم، المفرد، الرتيب، للأم، يدوي بأكثر من لغة». وهي تتحدث عن «المتعة» التي تجمع بين الدلالات الإيحائية للهزة الجنسية والكلام متعدد الأبعاد عند بارت وكريستيفا، أي أنها تتحدث عن لذة النص التي تصل إلى أزمة حادة (موت المعنى) بإزالة كل ألوان الكبت. هذا الانتهاك لقوانين الخطاب الذي يقوم على مركزية القضيب هو المهمة الخاصة بالمرأة الكاتبة، فهي في حاجة إلى «أن تبتدع لنفسها لغة تنفذ إليها»، بعد أن ظلت تعمل دائما «داخل» خطاب سيطرة الذكر.

إن منهج سيكسوس منهج رؤيوي، يتخيل لغة ممكنة أكثر مما يصف لغة موجودة، وهو ينطوي على خطر غيره من المداخل التي ناقشناها، أي الانتهاء بالمرأة إلى تراجع لا وعي غامض، حيث يحكم صمت لا تقطعه إلا «بربرة» رحمية. وكريستيفا تدرك هذا الخطر، فهي تنظر إلى الكاتبات نظرة أشبه بنظرة فرجينيا وولف، فتراهن معلقات بين الأب والأم، فهن من ناحية يتواطأن حتما - بحكم كونهن كاتبات - مع هيمنة القضيب، فيدخلن العلاقة المتميزة بين الأب والابنة، تلك العلاقة التي تكون باعثا على الميل إلى التفوق والعلم والفلسفة والأستاذية، إلخ. ومن ناحية أخرى، نحن نهرب من كل شيء يعد قضيبا لتجد ملاذنا في التثبيت المفروض على الجسد الصامت التحتي، فتتخلى عن كل ما يدخلنا إلى التاريخ.

هذا التخطيط الذى قدمته عن النظرية الأدبية النسائية يوحى - فيما
أمل - بمجال المداخل المستخدمة فى المرحلة المعاصرة وتنوعها. فلقد ثبت
أنه من الصعب على ممثلات الحركة النسائية تطوير نظرياتهن دون الاستعانة
بالمنظرين من الرجال. صحيح ان الكثيرات من ممثلات الحركة يذهبن إلى
أن النظرية النسائية الملائمة لا يمكن أن تنشأ إلا من داخل تجربة النساء، أو
من لاوعيهن، فالنساء لا يد أن ينتجن لغتهن وعالم مفاهيمهن الذى قد
لا يراه الرجال معقولا. ولكن هيلين سيكسوس - وهى نبيه العالم الأنثوى -
تعتمد بشكل دال على نظريات رولان بارت وجاك لاكان. وأيا كانت
المصاعب التى تواجه المنظرات فى تطوير نظرية نسائية، فإن النساء لهن الحق
فى تأكيد قيمهن الخاصة، واستكشاف لاوعيهن، وتطوير أشكال جديدة من
التعبير تستجيب إلى قيمهن ووعيهن، إذ لابد من إعادة تقييم القوانين
الأدبية للماضى وإعادة تشكيلها، بالقدر نفسه الذى يتغير به توازن القوة بين
النقاد والناقدات، وبالقدر نفسه الذى يغدو معه السؤال الخاص بالهوية
الجنسية أكثر بروزا فى المجالات النظرية، فالنقد الخاص بهذه الهوية لن يقبل
اللجوء إلى مادة مقبولة من نظرية قائمة. ويذهب تيرى إيجلتون - فى كتاب
أخير له - إلى أن الحركة النسائية قد نجحت فى تطوير الوحدة - الأكثر
أمانة وتحديا - بين الفعل السياسى والفعل الثقافى. إن كل نظرية نقدية هى
نظرية «سياسية»، بمعنى أنها تسعى دائما إلى التحكم فى الخطاب. وممثلات
الحركة النسائية يحاولن - عن وعى تام - انتزاع نصيبهن فى خطاب القوة
من الرجال، مستغلات فى ذلك كل الاستراتيجيات النظرية التى تخدم
هدفهن. ولذلك، فإن النظرية النسائية ليست سوى كون صغير لكون نظرى
أوسع لا يخدم فيه صراع القوة.

قراءات مختارة

نصوص أساسية

Abel, Elizabeth (ed),

Writing and Sexual Difference (Harvester Press, Brighton, 1982),
originally in *Critical Inquiry*.

Cixouse Helene,

The laugh of the Medusa, *Signs*, 1 (1976), 875-93.

de Beauvoir, Simone,

The Second Sex, trans. H. M. Parshley (Bantam Books, New York,
1949, 1961; Penguin, Harmondsworth, 1974).

Donovan, Josephine (ed),

Feminist Literary Criticism: Explorations in Theory (Kentucky Uni-
versity Press, Lexington, 1975).

Ellmann, Mary,

Thinking about Women (Harcourt Brace, 1968; Virago, London,
1979).

Jacobus, Mary, ed.,

Women Writing and Writing about Women (Croom Helm, London,
and Barnes & Noble, New York, 1979).

Marks, Elaine and de Courtivron, Isabelle, (eds),

New French Feminisms: An Anthology (Harvester Press, Brighton, 1981).

Showalter, Elaine,

A Literature of Their Own: British Women Novelists from Brontë to Lessing (Princeton University Press, 1977; Virago, London, 1978).

Woolf, Virginia

Women and Writing, intro. M. Barrett (Women's Press, London, 1979). Anthology.

خلفية عامة عن النسائيات

Barrett, Michele

Women's Oppression Today: Problems in Marxist Feminist Analysis (Verso Editions, London, 1980).

Eisenstein, Hester,

Contemporary Feminist Thought (Unwin, London and Sydney, 1984).

Firestone, Shulamith,

The Dialectic of Sex (Women's Press, London, 1979).

Gallop, Jane,

Feminism and Psychoanalysis: The Daughter's Seduction (Macmillan,, London and Basingstoke, 1982).

Millet, Kate,

Sexual Politics (Virago, London, 1977).

Mitchell, Juliet,

Psychoanalysis and Feminism (Penguin, Harmondsworth, 1975).

Rich, Adrienne,

On Lies, Secrets, and Silence: Selected Prose 1966 - 1978 (Virago, London, 1980).

قراءات إضافية

Culler, Jonathan,

Reading as a woman, in *On Deconstruction: Theory and Criticism after Structuralism* (Routledge & Kegan Paul, London, Melbourne and Henley, 1983).

Fetterly, Judith,

The Resisting Reader: A Feminist Approach to American Fiction (Indiana University Press, 1978).

McConnell-Ginet, S., Borker, R., and Furman, N. (eds),

Women and Language in Literature and Society (Praeger, New York, 1980).

Ruthven, K.K.,

Feminist Literary Studies: an Introduction (Cambridge University Press, Cambridge, 1984).

Journals:

Feminist Review, *m/f* and *Signs*, publish important work. *Diacritics* (Winter, 1975) was a special issue: Textual Politics: feminist criticism.

المحتويات

النظرية الأدبية المعاصرة	٥
تصدير الترجمة	٧
مقدمة	١٧

الفصل الأول

النزعة الشكلية الروسية	٢٥
------------------------------	----

الفصل الثاني

النظريات الماركسية	٥٧
--------------------------	----

الفصل الثالث

النظريات البنيوية	١٠٥
-------------------------	-----

الفصل الرابع

نظريات ما بعد البنيوية	١٣٩
------------------------------	-----

الفصل الخامس

النظريات المتجهة إلى القارئ (نظريات القارئ)	١٩٧
---	-----

الفصل السادس

النقد النسائي	٢٣١
---------------------	-----

آفاق الترجمة

النظرية الأدبية المعاصرة

تأليف : رامان سلدن ترجمة : د. جابر عصفور

مدن الآخرين

أشعار ترجمة: أحمد ع. حجازي

صحراء القنار

رواية : دينو بوتزاني ترجمة : موسى بدوي

الحب

رواية : مرجريت نورا ترجمة : د. فوزية العشماوي

أساطير

تأليف : رولان بارت ترجمة : سيد عبد الخالق

نشيد بحري

شعر : فرناندو بيسوا ترجمة: المهدي أخريف

هبة الطوطم

أساطير الهنود الحمر ترجمة : راوية صادق

ازهار الشر

شعر : شارل بودلير ترجمة : محمد أمين حسونة

مرآة الحبر

نصوص : بورخيس ترجمة : محمد عيد ابراهيم

النظرية الأدبية المعاصرة

(طبعة ثانية)

تأليف : رامان سلدن ترجمة : د. جابر عصفور



رقم الايداع ٩٥/٧٣٧٥

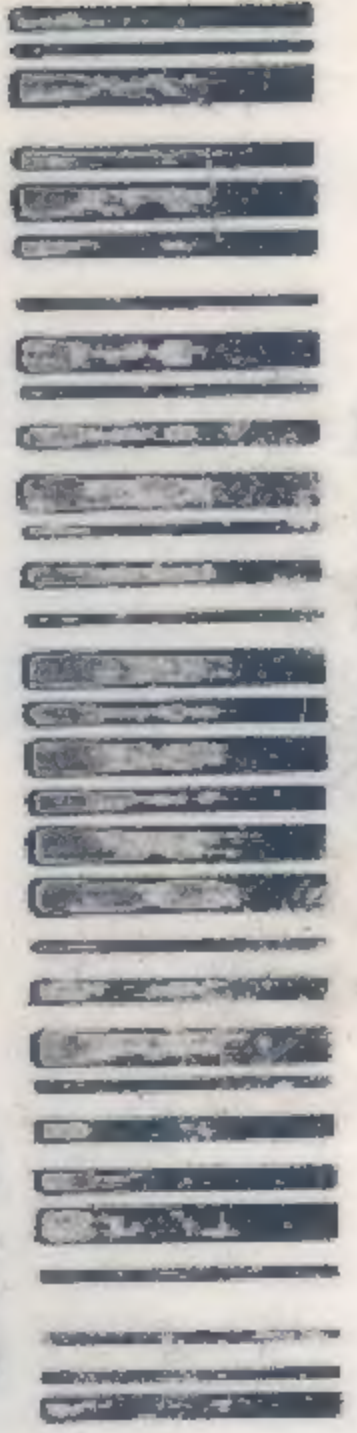
النظرية الأدبية المعاصرة

إن النقد الأدبي لن يقدم شيئاً ذا بال للقارئ إذا لم يكن هذا القارئ - أصلاً - راغباً في تأمل الكيفية التي يقرأ بها . وإذا ظن آخرون أن النظريات والمفاهيم لا تفعل شيئاً سوى القضاء على عفوية استجاباتهم إلى الأعمال الأدبية ، فإنهم يتناسون أن هذا الخطاب «العفوي» عن الأدب يعتمد اعتماداً لاواعياً على التنظير الذي خلّفته الأجيال السابقة ، فأصبح جزءاً من لغة الإدراك العادي.

يقدم الكتاب دليلاً شبه مكتمل للنظريات النقدية الحديثة: النزعة الشكلية الروسية، النظريات الماركسية، النظريات البنيوية، نظريات ما بعد البنيوية، النظريات المتجهة نحو القارئ، النقد النسائي، إذ تُركز كل منها على وظيفة بعينها .

وتعميماً للفائدة - إذ نفدت الطبعة الأولى في «أفاق الترجمة» وزاد الطلب عليها - ارتأينا طرح إصدار جديد لها، حيث بساطة العرض ترادف الوضوح، فقد تأكدت جدواه للقارئ المتطلع إلى معرفة جديدة ★

Bibliotheca Alexandrina



0347533



الثلث
جنيه واحد

الأمل للطباعة والنشر

Contemporary
Literary Theory